RIHANNA BITTOS

جائزة كتوبيا للنشر

صفاء الجابري

ريانة بيشوس

فريق متميزون

E-BOOK

رواية

KOTOPIA PUBLISHING HOUSE

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

ريانة بيتوس

رواية..

الكاتبة: صفاء الجابري

عن الرواية

عقار مجهول وأميرة في الزمن مخفية. وريانة بين الحقيقة والحب منسية يجمعهم بيتوس واسطورته المطوية فهل سينجحوا في مهمتهم أم ستقضي عليهم المواجهة الحتمية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإهداء..

أخبرتها ذات مساء أني سأهديها النسخة الأولى من الرواية..

ولكني وجدت أنها تستحق أن أهديها كل النسخ..

إلى الصديقة الحبيبة آية شمس..

فلولا أنتِ بعد الله ما اكتملت الحكاية.

شكر وتقدير لـ

د. هاجر حمدي.

م. إيناس سمير.

م. وليد شعراوي.

جروب كلام رويات.

شكرًا لكم لأنكم كنتم دومًا في الموعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل الحكاية

«بغداد عام ٢٠٠١م»

تحرك بحذر شديد وهو يقبض بكلتا يديه عليها، يضمها لصدره، يتشبث بها، يحميها بذراعية القصيرتين، قارورة فضيه اللون يموج داخلها سائل أزرق يتحرك مع حركته الخفيفة فيلامس الجزء العلوي من الزجاجة فيتحول للون الأحمر القاني...

يتلفت يمينًا ويسارًا بترقب يتحرى أنه ما زال وحيدًا على ذاك الشريط الضيق بين الأشجار في تلك الغابة المتسعة، توقف برهة يلتقط أنفاسه بصعوبة ثم تابع سيره الحثيث ليخرج من تلك الغابة المظلمة... رغم أنه لم يلمح ما ينبئه بالخطر إلا أنه يوقن أنه قادم لا محالة، لذلك أسرع الخطى ثم تحولت خطواته إلى هرولة وهو يهمس:

«عليّ أن انجح في مهمتي، لابد وأن تصل القارورة لوجهتها وإلا ستستمر اللعنة تطال الجميع»

عرج على طريق جانبي.. هرول داخله قبل أن يختبئ بجسده الضئيل وقامته القصيرة التي لا تتجاوز المتر الواحد خلف جذع نخلة كان قد اجتز رأسها.

جلس يلتقط أنفاسه؛ فالهواء الذي يدخل رئتيه يحرقهما خاصة مع هرولته ولكن عليه أن يتحمل من أجل شعبه ووطنه وسيده، يعلم أن الوقت يداهمه ولكن تلك النار التي تكوي داخله من جراء الثقب الصغير الذي بجانب بذلته تمنعه من الحركة كما ينبغي...

فالحركة العنيفة تعني احتياجه لهواء أكثر وتجعله يجاهد ليتنفس وهذا ما يزيد آلامه التي أصبحت لا تطاق، عليه أن ينتظر قليلًا حتى تبرد بذلته وأنفاسه ثم يواصل السير.

كان ينظر إلى القارورة التي بين يديه وهو يشعر بأسى شديد؛ فمنذ أن تحطمت مركبته وهو يجاهد ليبقى حيًّا، على أمل أن يجد سبيلًا للعودة إلى عالمه مرة أخرى والوصول إلى هدفه، هذا الأمل الذي بدأ يتلاشى في الساعات القليلة السابقة بعد أن علم أن الحادثة التي تعرض لها مدبرة هدفها الاستيلاء على قارورته.

نظر إلى مقياس الحرارة في بذلته فوجده قد هدأ قليلًا وإن كان ما زال يشعر بتلك السخونة.. هب واقفًا عندما لمح ومضة خافتة تأتي من بعيد، ارتعدت فرائصه وتصلب جسده للحظات فها هم قد اقتربوا منه وإذا ما لحقو به فستفشل المهمة. جف حلقه من هذا الخاطر، كان يفكر بسرعة كيف يمكنه تجنب هذا الأمر حتى ولو كانت حياته هي الثمن، لا بد وأن يبعدهم عن تلك القارورة.. لا بد وأن يشتت ذهنهم حتى تصل لأيدٍ أمينة، لم يفكر كثيرًا ولكنه قرر أن ينفذ سريعًا..

لم يعبأ بقوته الواهنة، ولا بوجهه الشاحب، ولا بالنار التي تكوي داخله مع كل نفس يتنفسه عندما تحرك بأقصى سرعة تسمح بها حالته، وصل أول بيت قابله على أطراف المدينة ومن حسن حظه أن الحارس لم يكن في مكانه وإلا اضطر لتسلق الحائط حتى يختفي خلفه، دفع الباب بحذر ثم تسحب إلى فناء المنزل المتسع وبقوة سمعه الحاد التي تفوق قوة سمع أي بشري بثلاثة أضعاف انتبه إلى صوت

خطوات قادمة تأتي من الداخل فيبدو أن الحارس في طريقه للعودة إلى موقعه أمام الباب الخارجي للمنزل الذي كان أشبه بقصر صغير تحيط به حديقة صغيرة، وبقفزة واحدة فتح أول باب قابله ليختبئ خلفه وهو يسمع صوتًا بالخارج يقول:

«لقد عادت مولاتي الأميرة من القصر»

كانت العبارة باللغة العربية والتي لم يفهم منها حرفًا ولكنه شعر بالارتياح عندما ترجمت له بذلته تلك العبارة، فاطمأن إلى أن جهاز المترجم ما زال يعمل ولم يفسد بتلك الحادثة.

نظر من ثقب بالباب وهو يكتم أنفاسه المتلاحقة ليجد الأميرة تدخل المنزل ومعها إحدى وصيفاتها، توترت يداه وانقبضت عضلات وجهه الرمادية وارتفعت أذنيه الصغيرتين عندما توقفت الأميرة بغتة في الفناء وصوبت نظرها إلى حيث مخبأه.. تحفزت جوارحه للهرب إذا ما لزم الأمر فهو لا يريد أن يقع في أيدي الأرضيين أيضًا.

تنفس الصعداء عندما أكملت الأميرة المسير وكأن أحدًا لم يلتفت لوجوده. هدأ قليلًا ثم نظر حوله يتفحص المكان ليجد أنه بمكان أشبه بمختبر صغير كان قد لمح مثله عند العالم ماشو من قبل.. هناك قوارير عدة تحتل أرفف معلقة وهناك أوعيه وأعشاب متناثرة في أماكن شتى.

بدأت بذلته تصدر أزيزًا خافتا فعلم أنهم قد اقتربوا...

بسرعة تسلق أحد الأرفف ومنها إلى آخر أعلى ليخبئ القارورة التي يحملها بين القوارير الموجودة في هذا الرف ثم نزع زر الطوارئ الأخير ببذلته والذي يربطه بما تبقى من عالمه، اعتصره بين يديه وهو يتذكر جيدًا تحذير القائد له وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة:

«راو.. لا تنزع هذا الزر أبدًا فأشعة بذلتك لن تستمر طويلًا بدونه.. هذا الزر هو الضمان الوحيد الذي سيدلهم على مكانك مهما مر الوقت..»

كان وجهه الرمادي قد تحول للون الأزرق بفعل دموعه المتساقطة، فمسحها بإصبعه ثم ضغط جانب الزر وهو يقول هامسًا:

«لم تفشل المهمة بعد ربما أكون قد فشلت ولكن غيري لن يفشل بالتأكيد»

تغيرت نبرته وهو يقرب الزر من فمه قائلًا بجدية:

«الأرض.. الأميرة العربية.. بدايات الألف الثاني»

أرسل رسالته ثم تمتم بأسى:

«الآن تصبح لحياتك ثمنًا يا راو»

فتح القارورة ووضع الزر بداخلها وتأكد أنه قد ذاب في ثوان ثم أحكم غلقها ووضعها على الرف مرة أخرى قبل أن يهبط ويقفز من نافذة قصيرة إلى خارج المنزل.

ابتعد بأقصى سرعة تسمح له بها حالته الجسدية وما زالت بذلته تطلق أزيزًا خافتًا من آن لآخر.. عندما دخل الغابة مرة أخرى وأدرك أنه ابتعد عن القارورة بالقدر الكافي توقف ليلتقط أنفاسه.

ارتفع الأزيز من بذلته بشدة فعلم أنه قد تم رصده وأنه لن يستطيع العودة للحصول على القارورة شعر بغصة شديدة بحلقه وهو يتجرع مرارة الفشل.. بكى عندما تذكر وطنه الذي ربما لن يراه مرة أخرى ولكنه لم يندم على قراره أبدًا رغم أنه ما زال في ريعان شبابه...

ثلاثون ثانية وعثر عليه جنديان ضعف طوله وبسرعة تليق بمدربين رفعا سلاحيهما في وجه ثم انتهى كل شيء..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١-

بعد ألف ومائة عام

الجمهورية العربية المتحدة ٢١٠٢م.

صدر صوت متتابع من الجهاز الهيموجلافي الوحيد الموجود بالغرفة، فاتجهت أنظار شاب في وسط العشرينات من عمره إليه وبضغطة واحدة على الكرسي الجالس علية تحرك فكان أمام الجهاز في ثلاث ثوان ثم ضغط الشاب زر الرؤية في الجهاز الهيموجلافي.. لتتكون أمامه صورة ثلاثية الأبعاد يقول صاحبها..

كيف حالك ياعامر أتمني أن تكون بخير.

أجاب الشاب بجدية:

نعم إني بخير سيدي..

يعلم عامر أن العميد حسن لن يهاتفه في معمله إلا لأمر هام لذلك سأل باهتمام:

هل هناك أمر ما؟

أجابه رئيسة المباشر وبلا مقدمات:

يبدو أن الأمر قد تفاقم في كوكب بروكسيما، الرئيس طلب تدخلك مباشرة.

وكان على الرائد عامر أن يترك مكتبه ويذهب لاجتماع خاص..

خاص جدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«مدينة خوارزم ١٠١٧م»

في غابة مدينة خوارزم العريقة وقف صقر فارسي حر ينظر لفريسته ويتابعها بتحدٍ، يضيق حدبتي عينيه كأنه يفكر ويخطط كيف ينقض عليها، يتحين اللحظة المناسبة لذلك.

كانت الحمامة تتناول حبات القمح بنهم وهي تظن أنها وقعت على كنز ثمين، تريد أن تمتلئ معدتها لأيام قادمة.. لا تدري المسكينة أن أحدهم قد نثر تلك الحبات عمدًا في هذا المكان.

تأكل وهي تلتفت للاتجاه الذي رحل إليه سربها من آن لآخر، لقد تأخرت عنهم وحلقت وحيدة تظن أن هذا لحسن طالعها، انتشاء غريب يتملكها ونظرات تقول «لو يعلم هؤلاء الحمقى هذا الكنز الذي وقعت عليه دون أي مجهود ما حلقوا بعيدا ولعاودو أدراجهم إليّ..»

حانت منها التفاتة إلى الجهة المقابلة فجمدت مكانها وتوقفت حبة القمح في حلقها، صدمت بعينيه المخيفتين.. وبطوله الشاهق.. شعرت بضآلة حجمها أمام هذا الصقر الضخم الذي تجاوز طوله النصف متر بقليل..

وبعد أن استفاقت من ذهولها قررت أن تقدم علي أكبر حماقة في حياتها أو فلنقل الحماقة الأخيرة في حياتها..

لقد قررت الهرب، قررت ولكنها لم تفعل فعندما فكرت فقط وقبل أن يستجيب جناحاها لها ويحلقان بعيدا كان الصقر ينقض عليها وفي اللحظة ذاتها انطلق سهم سريع باتجاه صندوق معلق بالشجرة التي كانت الحبوب منثورة تحتها..

وأصبح الثلاثة في سباق سرعة..

حمامة تريد الفرار بنفسها وهي تلعن تلك الحبات التي كانت سببًا في تخلفها عن مرافقة سربها..

وصقر فارسي حر يضرب الهواء بجناحيه بقوة يريد الظفر بغداء دسم له ولصغاره..

وسهم فتاك انطلق من رمح قوي بيد صياد ماهر لا يخطئ صيده أبدًا منذ سنوات عدة..

صراع دائر انتصر فيه السهم وصاحبه،

ضُرب الصندوق في اللحظة المناسبة وفي المكان المناسب.. فانفتح لتسقط شبكة كبيرة على الصقر فتأسره هو وفريسته.. ثم خرجت فتاة من بين الأشجار وبيديها رمح وضعته جانبًا ولملمت شبكتها بصيدها ثم حملتها وهي تنظر للصقر الذي كان يحاول التخلص من أسره قائلة له بسخرية:

حاول أن تهرب.. لن تستطيع، لقد فعلتها قبلك ولم أنجح..

ثم قربت وجهها منه وهي تضيف بأسى حقيقي كأنها تواسيه:

أعلم أنك حر كاسمك، ولكن هكذا حال الدنيا يا صديقي.

تعلم أنه لا يفهمها وتعلم أيضًا أن تلك الفصيلة من الصقور لا تستسلم بسهولة وسيظل يحاول الفرار حتى تكسر جناحيه فكرامة الصقر وحريته مقدمة على حياته لذلك تشعر بسكينة وهي تمارس تلك الحرفة فتلك اللحظات التي ترى فيها الصقور وهي تقاتل من أجل نيل حريتها تذكرها بنفسها وتذكرها أن هناك دوما من سيقاتلون من أجل كرامتهم، وسيموتون من أجل نيل حريتهم..

لذلك لم تشعر ريحانة التي تجاوزت العشرين ربيعًا بملل يتسرب إليها قط من تلك الحرفة بل ربما هي متنفسها الوحيد..

أخذت نفسًا عميقًا لتهدئ من قلبها قبل أن تقوم بالخطوة الأصعب على نفسها في هذه الحرفة وهي وضع برقع على الصندوق الذي حبست فيه الصقر كما تفعل كل مرة فهي تكره دوما أن توئد صوت الحرية.. ولكن ما باليد حيلة سيموت الصقر إن لم تحفظ له كرامته ليهدأ قليلًا.. وبالفعل دقائق واستكان الصقر وهو يظن أن الليل قد حل بعد أن لفه الظلام من كل مكان..

هزت ريحانة رأسها ثم حملته بهدوء ووضعته على العربة التي تحمل غنيمتها لهذا اليوم واتجهت للمنزل بعد يوم شاق من الصيد علها ترضي سيدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيسان..

أسندت رأسها على شباك نافذة العربة تتأمل تتابع الأشجار المحيطة بها وهذا الغبار الذي تخلفه حوافر الحصانين اللذان يجران العربة فتنشأ سحابة كثيفة تكسو جزءًا من هذه الأشجار برداء رمادي قبل أن يجذب السائق لجام فرسيه فيبطئا من سيرهما فتتجرد جذور الأشجار من ردائها..

تحولت أنظراها لداخل العربة لتجد أن طفلتيها تغطان في نوم عميق، توسدت الصغرى ذات الثلاثة أعوام رجل أمها اليمنى وتكور باقي جسدها على الأريكة الجانبية بينما احتلت الفتاة الكبرى ذات السنوات السبع الأريكة المقابلة لهما تحتضن رمحًا صغيرًا وبجواره سهم قصير.

كانت بيسان تعبث بخصلات طفلتها الصغرى وارتسمت على شفتيها ابتسامة عذبة وهي تتذكر أول مرة حمل فيها زوجها طفلته بين يديه.

كان يقبل شعر صغيرته بجذل وهو يضحك قائلًا:

بيسان تلك الفتاة تحمل شعرًا حريريًا مثلك.

ردت بدلال:

والكبرى تحمل قلبك القوي يا إدريس.

ثم تنهدت وهي تتابع:

لا أدرى منى ستدرك أنها فتاة وتكف عن تعليمها فنون القتال.

وضع الفتاة جانبًا ثم قال وهو يشير بيده إلى طفلته محتجًّا:

وهل تظنين أن هذا الشعر الحريري سيمنعني من تعليمها هي الأخرى فنون القتال.

ثم أضاف بإصرار:

ابنتاي ستكونان أفضل محاربتين في بغداد بأسرها.

تحولت أنظارها لطفلتها الكبرى تتأمل ملامحها البريئة.. تعلم أنها لم تحمل من ملامحها سوى أنفها المستقيم وعينيها المتسعتين اللتان ظنت في فترة ما أنهما قد استبدلتا بعيني أبيها من كثرة ملازمتها له حتى أنها أطلقت عليها ابنة أبيها.

تنهدت ببطء ثم همست تحدث طيفه أمامها:

إدريس.. أشتاقك.. عام على الرحيل.. ولم تمسك الصغرى سيفًا حتى اليوم ولم تتخلَ الكبرى عن رمحها الذي صنعته لها منذ رحلت.

مسحت دمعة هزمتها وهي تقول:

كم كنت أتمنى أن تكون معي في هذه الرحلة يا إدريس.. لا تدري كم من مشقة اجتزتها لألحق بتلك القافلة.. لم أجد بعدك من يقدر شغفي ويدعمني.

زفرت مرة أخرى وحاولت أن تنشغل بالطريق أمامها علها تستطيع أن توقف سيل الذكريات المتدفق في رأسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غزنة «عاصمة الدولة الغزنوية»

١٠١٧م

بين أشجار غابة مدينة غزنة الفتية انطلق حصان أدهم ذو غرة بيضاء ناصعة يشق طريقه مستجيبًا لقائده الملثم متجاوزًا أقرانه.. كان من الواضح أنه قد خاض مثل هذا السباق مرات عديدة فهو يحفظ طريقه جيدًا ويتجاوز العوائق ويلتف حول الأشجار بسهولة ويسر..

كانت حوافر الحصان تحتك بالأرض فتخلف وراءها عاصفة من الغبار ولكن هذا الغبار لم يكن ليعمي الخيول التي تتبعه والتي فيما يبدو تحرص على ألا تتخطاه تتنافس فيما بينها على المركز الثاني تاركة المركز الأول له ولكن هناك حصان قد تجاوز الجميع واقترب من الفارس الملثم الذي ما إن شعر باقترابه إلا وضرب الحصان في بطنه بقوة وهو يتشبث بلجامه قبل أن يستل سيفه ويقطع غصن شجرة فسقط أمام الخيول التي تتبعه فلم تستطع أن تتفادي هذا الغصن وتعثرت ليصل هو لنقطة النهاية أولا معلنًا فوزه بالسباق..

ثم ترجل بهدوء قبل أن يفك لثامه فتظهر تحته ملامح فتاة شابة ذات عيون خضراء بيضاء البشرة ترتدي ملابس باهظة الثمن تليق بأميرة نظرت إلى حصانها بامتنان ثم مسدت بحنان على رقبته وهمست في أذنه تحدثه:

أنت رائع يا صديقي كعادتك دائمًا.. لقد فزنا بالسباق.. تستحق مكافأة.

وكأن الحصان قد فهم ما تقول فحرك عنقه ابتهاجًا برضاها ثم مال برأسه إلى الأمام مطالبًا بمكافأته الفورية فضحكت الفتاة ثم أخرجت قطعة من الجزر تناولها الحصان من كفيها بسعادة، اقتربت منها خادمتها التي كانت تصفق بقوة عند انتهاء السباق لتساعدها في هندمة ملابسها وهي تقول:

لا أعلم ما سر شغفك بفنون القتال والخيل يا مولاتي... لماذا لا تكوني كباقي أقرانك الأميرات في الممالك المجاورة تهتمين بالزينة والتبرج؟

ردت الفتاة بشموخ بين:

ما كان لأميرة غزنوية أن تكون كباقي النساء... فما بالك بالأميرة نور شاه أميرة قصر السلطان محمود الغزنوي.

ولكنك اليوم بارعة حقًا يا مولاتي.

قالتها وصيفتها بحماس

تأملتها نور برهة ظنتها الخادمة دهرًا ثم قالت بغضب..

أتخدعينني أم تخدعين نفسك يا آسية.

صمتت آسية قبل أن تضيف نور وقد تملكها الضيق:

أنا أعلم جيدًا أن عمي السلطان محمود قد طلب من هؤلاء الفرسان أن ينهزموا أمامي.

ثم أضافت وهي تمط شفتيها بإحباط:

ولكن لو أنني كشفت لعمي أني عرفت خدعته فسيمنعني من المبارزة وركوب الخيل.

ردت آسية وهي تعاونها على ركوب خيلها:

هذا أفضل من لا شيء سيدتي..

قالتها أسية فهزت نور رأسها موافقة ثم أضافت بإحباط أشد:

لكنني ما زلت ضعيفة في الرمي وعمي يرفض أن يحضر لي معلمًا يدربني عليه.

أجابت آسية على الفور:

أعتقد أن أفضل من يدربك عليه هو الأمير مسعود... لقد عاد منتصرًا من معركته الأخيرة في الهند وأصبح متفرغًا لبعض الوقت فاغتنمي الفرصة يا مولاتي واعرضي الأمر عليه.

توردت وجنتا نور وهي تقول هامسة بعد أن تبدل مزاجها فجأة على ذكر الأمير مسعود:

هل تعتقدين حقًا يا آسية أنه سيوافق.

قالت آسية مؤكدة:

أظنه لن يتردد أبدًا.

شردت نور للحظة ثم قالت وهي تعبث بشعر حصانها:

حسنًا سأجرب.

ثم ركبت حصانها واتجهت للقصر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيسان...

الشغف هو الوقود المحرك للسواكن داخلنا، هو أكثر حالات الإنسان تفردًا وتألقًا.. تلك الحالة التي توقد بداخلك الحماس وربما تدفعك دفعًا لتنفيذ الأفكار المجنونة والمغامرات الغريبة وتحمل الصعاب التي قد تعجز عن تحملها في الظروف العادية..

الشغف بداخل بيسان كان هو اليقين المتجدد الذي حثها على البحث والتجارب..شغفها بالكمياء، دروسها، تجاربها، أبحاثها، معملها كان يعني الحياة بالنسبة لها..

احترم إدريس رغبتها منذ اليوم الأول وبني لها بيتًا على أطراف المدينة به معمل خاص بعيدًا عن صخب المدينة ومشاكل القصر والخلافة فما كان إدريس طامعًا وما كانت هي راغبة في حياة القصور تلك.

سنوات وهى تتتلمذ على يد كبار الأطباء والصيادلة في الدولة العباسية.. حتى رحل إدريس وبموته قُتلت كل رغبة داخلها للبحث والعلم.. ثمانية أشهر كاملة لم تقترب من معملها واكتفت بالاهتمام

بطفلتيها، لم تذهب للقصر إلا لمامًا حتى آنها إذا ما غابت لم تفتقد، تذكر جيدًا هذا اليوم الذي جاءت فيه من القصر مساءً عندما دخلت فناء منزلها لاحظت ومضة خافتة تأتي من خلف باب معملها همت أن تتقدم لتكتشف ما هناك ولكنها تراجعت للداخل فما عاد ذلك المعمل يهمها.. أو هكذا ظنت.

ليلة طويلة ظلت تتقلب فيها في فراشها تفكر في تلك الومضة تقنع نفسها أنها لم تعد تهتم لأمر الكيمياء ولا لأمر المختبر.. لكن لا بأس من إرسال الخادمة في الصباح لتنظيفه فلابد وأن الغبار قد كساه بعد أن اعتزلته ومنعت الخدم من الاقتراب منه بل لا مانع من أن تلقي نظرة عليه أيضًا..

ولكنها مع أول خيط من خيوط الصباح اقتحمت مختبرها وحيدة دون أن تنتظر استيقاظ الخدم، كانت تشعر بالحنين لكل شيء حولها، أدواتها تنظر إليها، تبادلها الحنين تشتكي فقدها، سكنت لحظة وهي تغمض عينيها كيف لها أن يتحرك حنينها لتلك الأدوات بعد موت رفيقها؟ عضت شفتيها وهي تقول:

لقد كانت فترة وولت يا بيسان.. حب الكيمياء مات بداخلك منذ أمد.

ورغم ذلك كانت تتمنى أن تجد شيئًا غير مألوف، ولكنها عندما لم تجده لم تشعر بخيبة أمل فلقد طوت تلك الهواية ولن تعود لها مرة أخرى لكن لا بأس من تنظيفه والمحافظة عليه.

وقفت أمام المنضدة الصغيرة التي تحتل جانب الغرفة تتذكر طفلتها عندما كانت تأتي إليها وهي منهمكة في إحدى التجارب فترفعها لتجلسها على تلك الطاولة حتى تنتهي..

كانت تبتسم وهي تتطلع إلى الطاولة ثم فجأة عقدت حاجبيها وهي تمعن النظر فيها فهناك أمامها آثار حديثة لقدم صغيرة أبرزتها ذرات التراب.. تتبعتها حتى وصلت إلى الرف الذي تحتفظ فيه بنتائج التجارب.

أول ما جاء في ذهنها أن تكون طفلتها قد اقتحمت معملها وحصلت على إحدى تجاربها لتلهو بها ولكن تلك الآثار كانت لقدم بأربعة أصابع فقط!

لذلك بحثت عن شيء تعتليه لتتأكد من أن كل شيء في موضعه ولكنها تفاجأت بتلك القارورة فضية اللون التي أيقنت أنها قد وضعت هنا حديثا.

بحرص أمسكت بها وعندما اهتزت بين يديها تحول لونها إلى الأحمر القاني كادت أن تفلتها ولكنها تماسكت في النهاية وهي تضعها برفق على منضدتها كأم تضع طفلها الوليد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٢-

خوارزم..

جذبت ريحانة لجام فرسها تهدئ من سرعتها بعد أن غادرت الغابة باتجاه المدينة كان عليها أن تمر بجوار نهر جيحون التي تمتد مزارع القطن على ضفتيه فتخلق نسق مبدع بتلك الزهرات البيضاء التي ما زالت تخرج على استحياء من بين أغصانها؛ فالموسم ما زال في أوله ولكن النهر يفيض بعطائه يهمس للمزارع الممتدة على مرمى البصر ارتووا كما تشاءون فأنا لن أضن عليكم أبدًا...

أول ما يخطر ببالك وأنت ترى تلك الخضرة البديعة أن خوارزم مدينة زراعية كل أهلها لا يعرفون شيئًا غير الأرض وحرثها والبذور وغرسها، ولكن عندما تخالط سكانها وتمر بطرقاتها وترتاد أسواقها تقر أنها مدينة تجارية بالدرجة الأولى.

توقفت تنظر لمياه النهر الجارية، طيور النورس التي تضرب بمناقيرها الطويلة سطحه لتحصل على غنيمتها من الأسماك الضالة ثم تعود مرة أخرى للتحليق في أسراب جذابة تنقض جماعة وترتفع جماعة قبل أن تحلق في دوائر لا تنقطع، تجوب ضفتي النهر كأنها تبحث عن مأوى تستكين إليه بعد يوم شاق.

كثيرًا ما حدثت نفسها أن تقفز في النهر رغم أنها لا تجيد السباحة، تشعر أنها ستجد السكينة بين أحضانه فلقد سمعت ذات مرة أنه إحدى أنهار الجنة التي تعلم أنها لن تجد راحتها إلا بها، كان النهر قد تحول لونه إلى اللون البرتقالي بلون الغروب فنفضت الفكرة عن رأسها وأكملت سيرها باتجاه المدينة بتمهل، أسرعت قليلا في الطريق الصخري المغطى بالحصى الذي يفصل بين الوادي بمزارعه والمدينة بأسوارها العالية وأبراجها الشاهقة وأسواقها الصاخبة..

لا تكاد أسواق خوارزم تنتهي فما إن يختتم سوق إلا ويعقبه آخر، كُثر هم زوار خوارزم يموجون في الطرقات موجًا يملأون شوارعها الفسيحة ولكنها في السنة الأخيرة نتيجة للاضطرابات السياسية هدأت الأسواق وأصبحت تقتصر على سكانها لا يزورها تاجر إلا لمامًا، يشعر السكان بالضيق من توقف حركة التجارة بالأسواق رغم أن المزارع عوضتهم بعض الشيء ولكنهم لا يعترضون فلقد تعرضوا لمحن كثيرة من قبل واعتادوا على شظف العيش وقلة ذات اليد.

تجاوزت ريحانة أسوار المدينة لتتجه غربًا وتمر في طريقها على جامع المدينة بمآذنة الثلاث المنقوش عليها آيات القرآن والمرصعة بالفسيفساء الزرقاء التي تزيده بهاءً وعظمة..

في ساحتة المجاورة مجموعة من الجواري يقفون بأوانٍ مملوءة بالمرق مضاف إليها الخليع من اللحم وقِرب مملوءة بالماء واللبن، مائدة متنقلة تكون حاضرة كل يوم مع غروب الشمس يجهزها أغنياء المدينة لفقرائها، إذا حدث طارئ لأحد الأغنياء فيتم تجهيز المائدة لهذا اليوم من درة معلقة في سقف المسجد حيث أن من يتخلف عن الصلاة في المسجد يضع خمسة دنانير في تلك الدرة تنفق على الفقراء والمساكين وتلك المائدة إحدى مصارفها عادة تظن ريحانة أنها حميدة توارثها أهل خوارزم عن أجدادهم الفاتحين.

مرت من زقاق إلى آخر ثم انحرفت يمينًا لتخرج على شارع متسع في نهايته وجهتها، البيوت متشابهة لا يوجد بينهم تباين كبير بُنيت من القراميد وطليت بالجص المزخرف وعرشت بسعف النخل والجريد ولكن الدار الذي تقصده ريحانة كان الوحيد المكون من طابقين يبدو عليه بعض الفخامة والثراء.

جذبت لجام فرسها لتتوقف العربة التي يجرها أمامه قبل أن تترجل منها وتحمل صندوقًا كبيرًا ثم تدخل به إلى الداخل ومنه إلى باب جانبي لتصل لحظيرة الصقور.

وكأمر اعتادت عليه أفرغت صيدها وهي تتمنى أن تنتهي من هذه الأيام التي أصبحت متشابهة لترحل من هذا البيت بلا عودة.. وعلى باب الحظيرة وقف شاب على عتبتها يتطلع إليها يتأمل عينيها البنيتين وجمالها الذي أحرقته الشمس وأخذ منه الصقيع فبات باهتًا.

كان هذا الشاب طويل القامة نحيل الجسد يرتدي ملابس عادية من يراه يظن أنه ليس ابن أخ السيد منصور صاحب هذه الدار والوريث الوحيد لتلك الثروة الطائلة، تقدم للداخل قليلًا ثم ناداها:

ريحانة.

تعلم أنه قد وقف كعادته يتطلع إليها ولقد تمنت أن يكتفي بالتطلع ثم يمل ويذهب ولكنه ها هو يخيب ظنها ويدخل معها في حوار لا تريده الآن لذلك ردت بحدة:

ماذا تريد يا أيوب؟

تعجب من حدتها غير المبررة لذلك تساءل:

ريحانة ما الأمر؟ لماذا تحدثينني هكذا؟

صمتت ولم ترد وأشاحت بوجهها للجهة المقابلة فأكمل وهو يقترب منها:

ريحانة أنا أحبك وأنتظر حتى يحررك عمي لأتزوجك.

انفجرت صائحة:

عمك لن يحررني بلا مقابل أنا مكاتبة إن كنت قد نسيت، أخذت أنت وعمك ثمني أضعافًا.

«ما زالت تلك الحمقاء تظن أنني أتقاضى ثمنًا لها».. هكذا حدث أيوب نفسه وذم شفتيه قليلًا ثم أفرجهما قائلًا:

لقد رفضتِ أنت أن أشتريك من عمي وأحررك... وصممتِ أن تحرري نفسك.

أطلقت ضحكة قصيرة ساخرة دون أن تتفوه بكلمة، للحظة بدت له دهرًا وهو يتصبب عرقًا قبل أن تقول باستخفاف:

وهل كنت قادرًا على فعلها حقًا؟

هتف مدافعًا عن نفسه:

وماذا في هذا؟ أنتِ لا تعلمين قدري عند عمي.

كان يحاول أن يبدو واثقا من جوابه ولكنه رغمًا عنه خرج جوابه مهتزَا خاصة مع تلك الابتسامة الساخرة التي ما زالت ترتسم على شفتي ريحانة.. لقد كان يعلم أن عمه لن يحررها ولو كان الطالب منه هو الخليفة بنفسه..

والأدهى أنه يعلم أن ريحانة تدرك هذا وتعلم أنه ضعيف أمام عمه بل إن أي فرد ضعيف أمام ريحانة بالنسبة لعمه وهذا أكثر ما يحنقه أن يكون عجزه واضحًا للفتاة التي أحبها وعشقها.

لم ترد ريحانة أن تتركه لأفكاره السيئة أكثر من هذا فما زالت تحمل قدرًا من الاحترام له ولو كانت تظهر غير هذا.. تعلم جيدًا أن عجزه وضعفه هذا أمام عمه ليس إلا لأنه يريد أن يبقى بجوارها.

تعذره أحيانًا وتقسو عليه كثيرًا.. لقد أقرت منذ زمن أن الأمر ليس بيده فلن يستطيع كائن أيًا كان أن ينتزعها من بين يد منصور حتى تقضي السنوات التي بينهما.. تنهدت ثم همست:

لا شيء يا سيد أيوب.. لاشيء.

ثم أضافت برجاء:

من فضلك إن كنت ما زلت حريصًا على القدر الكبير من الاحترام الذي أكنه لك فلا تتحدث في هذا الأمر مرة أخرى.

وكأنه قد قرأ ما يدور برأسها فتقدم منها خطوة أخرى وهو يهمس متجاهلًا رجاءها:

ريحانة أريدك فقط أن تعطيني فرصة أريد أن أثبت لك أني أحـــبـــــ...

زفرت بضيق.. فها هو يهرتل مرة أخرى، لابد لهذا الأيوب من قلم يستفيق بعده ويكف عن ملاحقتها فقاطعته هاتفة:

ولكنني لا أريدك يا أيوب، ولو كنت آخر الرجال لن أتزوجك.

صعق من ردها وتراجع خطوة للخلف وهو يسألها بذهول:

لماذا؟

أكملت ثورتها:

لأنك وعمك شاهدان على كل لحظة من لحظات العبودية والمهانة والذل الذين كنت أحيا فيهم.

رد بحيرة:

ولكن عمي يعاملك كابنته.

قهقهت ساخرة ثم قطعت ضحكتها بضيق فها هو يضطرها على أسماعه ما لا يرضيه فليتحمل إذن:

أتدري لماذا يا ابن الأسياد؟

لم تنتظر منه ردًا فأغلقت باب القفص بقوة وهي تتابع بهياج:

لأني الدجاجة التي تبيض له ولك من بعده ذهبًا.. كل هذه الثروة من مجهودي في صيد الصقور..

توقفت برهة تلتقط أنفاسها ثم أضافت بصوت مختنق:

عندما كنت تلهو وتعلب مع أقرانك وأنت في العاشرة كنت أربض بين الغابات أتحين اللحظة التي أنقض فيها على صقر أو شيهانة..

عندما كنت تأكل الحلوى وتتدثر بالفراش الدافئ كنت أكتوي بلفح البرد في الغابة وأنا أنتظر تلك الصقور، ما زالت علامات سوط أبيك وأمك محفورة بجسدي.. ولولا إنقاذ عمك لي لكنت الآن في عداد الأموات.. سأنهي عامي الأخير وأرحل بغير عودة.

قالت جملتها الأخيرة وهي تلوح بيديها قبل أن تكمل بشموخ لتنهي هذا الحوار:

أنا لن أتزوج يا أيوب ولو فكرت فلن تكون أنت أفهمت؟

اغرورقت عيناه بالدموع فخشى أن تهزمه فتركها ورحل دون أن يجيبها.. هزت ريحانة رأسها بأسف فلم يكن أيوب يستحق منها هذا ولكن كان عليها أن تصده بكلام قاس ليتركها ويفكر في غيرها..

توقفت للحظات تهدئ أنفاسها المتلاحقة ثم تابعت عملها وقد تعكر مزاجها تماما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيسان..

عادت الحياة لروحها منذ أن أمسكت بيسان تلك المادة بين يديها، استيقظ شغفها مرة أخرى.. خمسة أشهر كاملة تدرس خصائص تلك المادة الغريبة، تبحث عن أصلها في الكتب، تفصص تركيباتها ومكوناتها، عرضتها على كل من كان له باع في العلوم الكيميائية في بغداد بأسرها ولكن يأتي الرد دائمًا محبطًا:

هذه هي المرة الأولى التي نرى هذه المادة.

بقى شخص وحيد نصحها الكل بالذهاب إليه وعرض هذا العقار عليه إنه «الباروني» فمنذ أن اعترف الخليفة العباسي بالدولة الغزنوية في بلاد ما وراء النهر وشمال الهند حرص السلطان سبكتكين ومن بعده ابنه السلطان محمود على جذب العلماء في شتى المجالات وتقريبهم منهم حتى أصبحت غزنة عاصمة الدولة الغزنوية منارة للعلم تناطح بغداد بإمكانياتها العظيمة، ومن هؤلاء العلماء الذين ذاع صيتهم وأصبح مختبره قبلة لكل شغوف بالكيمياء وفروعها العالم الشهير «أبو ريحان الباروني» الذي يقيم في خوارزم ولكن هذا العام استضافه السلطان محمود لينهل التلاميذ الغزنويين من علمه.

لذلك قررت بيسان أن تسافر إليه مهما كلفها الأمر من مشقة وعناء، فهذا العقار بعد أبحاثها التي أجرتها عليه اكتشفت أنه سيكون نقلة طبية كبيرة في علم الأدوية ربما سيقضي على الكثير من الأمراض في هذا العصر. ولكن السفر لم يكن بالأمر اليسير فعليها أولًا أن تجد قافلة تسافر للبلاد الغزنوية ولقد وجدتها بصعوبة.. أما الجزء الأصعب في الأمر فهو إقناع الخليفة القادر بالله لكي يسمح لها بالسفر بالطفلتين خاصة وأنها كانت تخطط للمكوث عام كامل في أراضي الدولة الغزنوية تتتلمذ على يد الباروني، ولذلك قررت ألا تخبره، ستترك له رسالة بعد ذهابها فلو علم قبل ذهابها

سيرسل معها كتيبة من المحاربين لحمايتها وهي لا تريد لفت الأنظار إليها، ستكتفي بخادمين من خدامها يسيران معها في القافلة متنكرين في زي تاجرين..

أما أسهل ما في الأمر فكان تدبير المال فلقد ترك لها إدريس ما إن أنفقته طوال حياتها فلن ينفد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجمهورية العربية المتحدة

توتر رهيب يعصف بداخلها منذ معرفتها بالخبر منذ ساعات عندما هاتفها أستاذها قائلًا:

نون.. أنتِ مرشحة لمهمة عاجلة.. نلتقي في المركز بعد ثلاث ساعات.

ها هو حلمها يتحقق؛ ستكون عضوة في فريق السفر عبر الأكوان.. ستخوض مغامرة تحلم بها منذ نعومة أظافرها..

ورغم أنها مدربة على التحكم في انفعالاتها إلا أنها لم تستطع السيطرة على توترها.. ارتدت ملابسها عدة مرات قبل أن تستقر على ثوب فضفاض تحته بنطال بنفس لونه، وقفت تتطلع إلى نفسها في المرآة تعدل حجابها رغم أن لديها ميكنة تساعدها في ارتداء ملابسها وضبط حجابها تحديدًا إلا أنها ما زلت تحب أن ترتدي ملابسها بنفسها مادام هناك متسع من الوقت..

زفرت بضيق عندما لم تستطع ضبط حجابها كما ترغب لذلك جلست مذعنة على كرسى الميكنة التي نجحت في ضبطة كما أرادت في عشرين ثانية..

ابتسمت وهي تتطلع لنفسها فبدت أسنانها البيضاء كصفي لؤلؤ في وسط عتمة الليل بلون بشرتها ثم ضبطت ساعتها الإلكترونية قبل أن تنطلق للمركز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مدينة غزنة..

وقفت نور شاه في قصر غزنة الكبير هي والجواري يتابعن صراع الثيران الذي يصر السلطان على إقامته دومًا ويشارك فيه أبناؤه حتى ولو كان مشغولًا..

كان السلطان يعلم أن مثل هذه المهرجانات تبعث الحمية بالقلوب وترفع الروح المعنوية للشعوب فإذا كان حكامهم لا يخشون الأسود فكيف يخشون الأعداء..

جاورت الأميرة نور شاه السلطانة فاطمة يتابعان المهرجان في الشرفات المخصصة للنساء، تبحث بعينيها عن أحدهم واطمأن قلبها عندما هتف المنادي:

«الأمير مسعود»

تعالت الصيحات والتكبيرات والجمهور يشاهد خروج الأمير الشاب واقفًا على ظهر فيل عظيم يلوح بالسيف في يده..

وبشموخ وعظمة الأمراء نظر باتجاه السلطان محمود الذي كان يتابع الأحداث من مقصورة القصر الرئيسية قبل أن يتوقف الفيل قبالته فيضع الأمير مسعود سيفه فوق درعه ثم يرفعه وهو يجثو على ركبتيه ينتظر أمر السلطان..

صمت الجميع وتعلقت عيون الحاضرين بيد السلطان ينتظرون إذنه ليبدأ المهرجان الكبير..

نظر السلطان لابنه الكبير نظرة فخر وإعجاب ثم أشار بيده لقارع الطبول ليضرب ضربته الأولى فتتعالى الصيحات والهتافات ويقفز الأمير الشاب من على ظهر الفيل قبل أن يسير الفيل ليقبع بجوار الحائط ينتظر عودة سيده..

ثم كانت الضربة الثانية فتشبث مسعود بسيفه ودرعه جيدًا ثم كانت الضربة الثالثة ليفتح الباب للثور الهائج الذي ينقض على فريسته الوحيدة في الساحة الواسعة موجهًا ضربة قوية برأسه له.

ولكن الأمير الشاب تفاداها أو كاد أن يتفاداها فلقد اقتلعته الضربة من مكانه لترميه بعيدًا.. شهق على أثرها الحضور ووضعت نور شاه يدها على فيها وهي تشعر بوخز الضربة بقلبها..

ورغم الآلام التي شعر بها تمزق ضلعه إلا أنه نهض مرة أخرى وهو يتجاهلها قائلًا:

يبدو أنني لم أعط قوتك قدرها أيها الثور الأخرق.

وكأن الثور قد فهم حديثه فوقف متحفزًا يرمق مسعود بعينيه الغاضبتين، قبض مسعود على درعة وسيفه جيدًا وهو يقول:

هيا اهجم.

هجم الثور ولكن مسعود كان مستعدًا هذه المرة فتفاداه في اللحظة الأخيرة لتنغرس قرون الثور في الحائط من خلفة فتسيل الدماء منها فيزداد الثور هياجًا ويقرر أن يقضي على فريسته..

استقبل مسعود ضربته في درعه والثور ما زال مصرًا على الفوز..فزحف مسعود بقوة دفع الثور حتي الحائط وشعر أن أنفاسه تضيق وأن رئتيه أوشكت على الانفجار فحرر يده اليمنى التي يمسك بها السيف وضرب الثور بها ضربة مدروسة تؤلمه ولا تقتله، فتراخت قرون الثور عن درع الأمير مسعود على الفور فقذف درعه الحديدي جانبًا

ثم قفز سريعًا ناحية فيله الراقد بجوار الحائط فتسلقه سريعًا، حصل منه على لجام ودرع خشبي وقفز ينتظر هجوم الثور.. هجم الثور بقوة متأثرًا بالألم الشديد الذي يشعر به، فوضع مسعود درعه الخشبي أمامه لتخترقه قرون الثور فيكبله وأصبح الثور هائجًا يحاول التخلص من قيده..

انتهز مسعود انشغال الثور فقفز على ظهر فيله ومنه إلى ظهر الثور واضعًا اللجام على فيه والحبل حول رقبته ليستسلم الثور بعد مقاومة عنيفة.. لقد أدرك أن خصمه أقوى منه والمقاومة ستكلفه مزيدًا من الألم..تعالت الصيحات والهتافات باسم الأمير الشاب قاهر الأسود والأعداء على السواء.

وتبادل السلطان والسلطانة نظرات الفخر والإعجاب بولدهما..وواصل الأمير الشاب تحية الجماهير وأبيه بشموخ كما يفعل دائمًا ثم نادى أحد الحراس وناوله لجام الثور قائلًا:

أخبر السلطان أني سأزيل الأتربة العالقة بثيابي ثم سأنضم له بعد قليل لأتابع باقي المسابقات.

أجابه الخادم بإجلال:

كما تأمر يا سيدي.

امتطى مسعود فيله واتجه للداخل وما زال يشير للجماهير..

فقط وحدها نور من التفتت إلى ملامح الألم التي لم تدم أكثر من ثوان على وجهه وهو يضع يده على أحد أضلعه عندما كان يركب فيله.. طريقة ركوبه للفيل أيضًا أنبأتها أن الأمر يتعدى مجرد كدمة قد تعرض لها أثناء قتاله مع الثور.. لم تنتظر أكثر من ثانيتين عندما غاب عن نظرها ثم ابتعدت عن السلطانة ببطء وهي تهمس لآسية:

إذا سألت السلطانة عني فأخبريها أني ذهبت للجناح الخاص بي وسأعود بعد قليل.

وتركتها دون أن تتلق منها جوابًا فما يهمها الآن هو الاطمئنان على مسعود وبأقصى سرعة ليخمد الفزع الذي يسيطر على قلبها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيسان..

عادت من ذكرياتها عندما اهتزت العربة فجأة وكادت أن تنقلب عندما تعثرت بحجر لم يستطع السائق تفاديه فاستيقظت الطفلتان والصغرى تبكي

ولكن أمها احتوتها بين ذراعيها وهي تقول:

اهدأي صغيرتي أنا هنا.

استكانت الصغيرة في حضن أمها دقائق وأكملت نومها بينما اعتدلت الطفلة الكبرى في جلستها ونظرت من نافذة العربة الصغيرة لتتأكد من أن كل شيء على ما يرام.. ثم ذهبت لحضن أمها التي كانت تفتح لها ذراعها فجلست على رجل أمها اليسري ولفت ذراعيها حول عنقها..

دقائق وتعثرت العربة بحجر آخر فارتجت هذه المرة بشدة ظنت أن القائد ربما سيتوقف برهة ليزيل هذه الأحجار ولكن السائق استمر في طريقة بل زادت العربة من سرعتها عندها أدركت بيسان أن هناك خطب ما..

ثوان وخرج من بين الأشجار المحيطة بهم لصوص ملثمون لم تستطع حصر عددهم لكنهم يزيدون عن العشرة..

فكرت أن تسحب سيفها تساعد الرجال ولكن خوفها على طفلتيها دفعها للمكوث بجوارهما للدفاع عنهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجمهورية العربية المتحدة

وصل الرائد عامر إلى المركز الذري للسفر عبر الأكوان..

ضغط عدة أزرار في لوحة التحكم بالسيارة قبل أن يترجل منها متجهًا إلى المبني..

وبانسيابية وهدوء شديدين كانت السيارة تدخل في أنبوب اسطواني بعد أن ضبط برنامج الركنة لها، حملتها الأنبوب لتختفي تحت الأرض في المكان المخصص لها.. تنتظر عودته ليستدعيها بساعته الآلية فتأتي له مرة أخرى..

ثم دلف إلى غرفة الاجتماعات ليجد العميد حسن ومعه رجل يرتدي نظارة طبية لم يرها منذ وقت طويل بعد أن تم استبدالها بعدسات طبية تزرع في العين، وبجواره شابة سمراء البشرة بنيه العينين عرفة العميد حسن عليهما قائلًا:

د/ إبراهيم زهران أستاذ التاريخ القديم في الجامعة العامة.

صافحه ياسر وهو يقول بابتسامة ودودة:

مرحبًا دكتور إبراهيم إن لم أكن مخطئًا فأنت من أشرفت على كتابة التاريخ القديم قبل اندثاره.

بادله إبراهيم الابتسامة وهو يعدل من نظارته قائلًا:

شرف لي أن أجد شبابًا مثلك يعرفونني يا سيادة الرائد.

قال عامر بود:

بل كل الشرف لي أن ألتقي بك سيدي.

كانت نون تتابع حديثهما بترقب عندما قال د/ إبراهيم وهو يشير إليها:

دكتورة نون.. أصغر وأمهر مؤرخة تاريخية في العصر الحديث.

شعرت نون بالخجل فقالت بخفوت:

إنك تبالغ كثيرًا يا سيدي.

أجاب العميد حسن وهو يبتسم:

دكتور إبراهيم لا يجامل أبدًا ثم إننا لا نضم لفريقنا سوى النبغاء.. وأنتِ منهم.

كان عامر يتابع حديثهم دون أية مشاعر فهو يوقن أن الإنسان مهما ادعى صدق عباراته فلن تخلو أبدًا من بعض المجاملة ولكنه قال مرحبا بها:

مرحبًا د / نون.. سعدت بالتعرف عليكِ.

هزت رأسها مرحبة به هي الأخرى ثم شكرته.

كان عامر يظن أن وجود د/ نون ود/ إبراهيم لمجرد استشارتهما في أمر تاريخي ولكنه تعجب عندما سرد العميد حسن تفاصيل المهمة مرة أخرى أمامهما..

ثم قطع أفكاره قائلًا وهو ينظر إليه:

د/ إبراهيم ستمنعه ظروفه الصحية من السفر معك يا عامر أما د/ نون فستكون رفيقتك في مهمتك.

وكانت هذه مفاجأة لعامر الذي يبغض الدخلاء ولكن حسن لم يتركه لأفكاره كثيرًا عندما تابع:

سيكون عليكما الاستعداد للسفر للماضي في تلك السنة التي حددها د/إبراهيم لتجلبا تلك الأميرة.. قبل السفر لكوكب بروكسيما.

ثم أضاف وهو يشير لعامر قائلًا بحسم:

ستكون أنت المسئول عن تدريب د/ نون.. أسبوع واحد فقط وستنطلقان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خوارزم..

تابعت عملها بروتينية شديدة تطعم الصقور قبل أن تتوقف عندما اقترب منها رجل عجوز يعرج قليلًا ويستند على عصاه بيده قائلًا:

رائع ريحانة.. كم فزنا اليوم.

أجابت باقتضاب:

خمس صقور وشيهانة..

تهللت أسارير منصور واقترب من القفص يتحسسه بحبور وهو يقول:

أنت رائعة يا بنيتي... أظن أنني سأموت قبل أن أقابل من في مثل مهارتك أنت صائدة الصقور الأفضل على الإطلاق.

لم تعلق على حديثة ولكنها عضت شفتيها بألم ثم قالت:

هل تأمرني بشيء آخر.

أشار إليها أن تنصرف.. ثم استوقفها بندائه:

ريحانة..

توقفت في مكانها دون أن تلتفت.. فتابع هو:

أعلم أنه لم يتبق لكِ الكثير ولكن هناك مهمة لابد وأن تقومي بها..

عقدت حاجبيها والتفتت إليه تنتظر التوضيح.

فابتلع ريقه ثم أضاف وهو يشير إلى الصقر الفارسي الحر الذي اصطادته اليوم:

هذا الحر يجب أن يذهب إلي من يقدر ثمنه..

ازداد انعقاد حاجبيها غضبًا حتى خيل إليه أنهما اتحدا وهي تستمع إلى ما يقول..

فما يقوله كان ضربًا من الجنون..

بل هو الجنون بذاته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اصطحبها عامر لمركز التدريب الذي وقف على بابه خمس ثوان لينتهي الفحص قبل أن تعلن البوابة الإلكترونية عن السماح له بالعبور..

كانت هذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها نون كبسولة التدريب العليا للسفر عبر الزمن والأكوان فهتفت بانبهار دون أن تأبه لوجوده بجوارها:

رائع.. لقد تحقق حلم حياتي.

نظر إليها عامر باستخفاف وهو يلعن حظه كيف سينجح في تدريب تلك الساذجة التي يظنون أنها عبقرية زمانها؟ إنه يراها أشبه ما تكون بالأطفال.. شعر بالضيق وهو يرى نظرتها البلهاء وهي تتلفت فيما حاولها..

كانت تتطلع إلى كبسولة شاسعة المساحة تحتوي على آلات عدة أمامها مقاعد دائرية وشاشات شفافة..

تتوسط تلك المساحة آله كبيرة أسطوانية الشكل أشار عامر إليها قائلًا وهو يخفي ضيقه:

آلة السفر عبر الأزمان..

حاولت نون أن تتماسك بعد أن فطنت إلى نظراتها التي تفضح انبهارها بالمكان وبالفعل نجحت في ذلك لترسم الوقار المعهود عنها مرة أخرى وهي تستمع لعامر وهو يشرح لها بعض المعلومات عن هذه الكبسولة ثم يشير بيده نحو إحدى البزات قائلًا:

هيا سنبدأ التدريب الآن.

كانت تنظر للبذلة بتعجب؛ فالبذلة تكاد أن تكون ضعف حجمها فكيف ستتحرك إذن؟ همت أن تلقي سؤالها للخارج ولكن تلك النظرة الساخرة التي رمقها بها عامر جعلتها توئد سؤالها في مهده، شعرت بالضيق من نظراته تلك ولكنها اكتفت بالصمت وهي تتطلع للبذله..

فهم ما يدور بخلدها فقال بجدية بعد أن قطع ابتسامته الساخرة التي كانت على شفتيه قبل ثوان:

هذه البذلة مصممة لكي تناسب مقاس من يرتديها أيا كان.

أحنقها أن تكون مشاعرها وأفكارها ظاهرة للعلن بهذا الشكل ولكنها لم تعقب وتناولت البذلة لترتديها.

أخذ هو بذلته يفكر في مهمته ويتمنى من داخله ألا تفسد تلك النون مهمته، فكر أن يعود للعميد حسن يطلب منه إعفاء تلك الحمقاء من هذه المهمة واستبدالها برجل أكثر ذكاء وذو بنية جسدية قوية يتحمل مشاق وعنف الرحلة حتى لا يضيع أسبوع من العمل مع فتاة ضعيفة دون طائل..

ولكن طريقة حديث العميد في الجملة الأخيرة جعلته يفهم أن الأمر لا يسمح فيه بالمناقشة..

لذلك هداه تفكيره لحل آخر..

سيجعلها هي من تطلب الإعفاء من المهمة، لابد أن تستسلم ثم تنسحب بهدوء.

وبالفعل ثوان وكان على حلبة النزال يتخذ وضع الاستعداد وأمامه نون في نفس الوضع وكلًا منهما يحمل سيفًا من العصور القديمة.

ويتطلع إلى الآخر بنظرة تحدي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيسان..

تابعت المعركة الدائرة وهي تبتهل ولكن وجدت أن الغلبة للصوص، عندها قررت أن تشاركهم النزال ولكن الطفلة الصغيرة تشبثت بملابسها وهي تقول ببكاء: «أمي لا تتركيني.. إني خائفة»

ترددت كثيرًا بين نزولها أو البقاء بجوارهما..

بنظرة سريعة أيقنت أن رجالهم قد تم قتلهم ولم يتبق إلا رجل أو رجلين ما إن يتم قتلهم إلا وسيتم أسرها وبناتها..وبالفعل ثوانٍ قليلة وأصيب الرجلان ثم وجدت ثلاثة من اللصوص يقتربون من العربة التي تختبئ فيها يتقدمهم أحد اللصوص يبدو أنه ذو شأن بينهم بقامته الفارعة وجسده القوي.. تشبثت بسيفها وقررت أن تدافع عن بناتها حتى الموت، كانت تتضرع إلى الله وقلبها يضطرب ويدها ترتجف..ولكن فجأة سقط من كان يتقدمهم وهو يمسك سهمًا أصاب قلبه فالتف اللصوص حوله يحتمون بالدروع..

زاد تشبثها بسيفها وقد أضيئت خيوط الأمل بقلبها وهي تظن أن هناك من أتى لنجدتها..ولكنه تلاشى سريعًا عندما أدركت أن السهم قد أتى من الاتجاه التي به، بل من العربة التي تجلس فيها.. تحول نظرها بفزع إلى طفلتها الكبرى لتجدها تقف أمام الشباك الآخر للعربة ممسكة برمحها وقد فرغ من السهم الوحيد الذي به. وبسرعة أم تخاف على فلذة كبدها، جذبت منها الرمح لتلقيه بعيدًا ثم نزلت من العربة وقررت الفرار..

حملت بناتها ولكنها لم تكد تبتعد بضعة أمتار حتى وجدت أحدهم يقف أمامها ثم لطمها لطمة قاسية وهو يظن أنها من أطلقت السهم.. ولقد كان هذا ما تريده وتتمناه.. تريد أن تبعد تفكيرهم عن ابنتها بأي شكل وبعدها فليكن ما يكون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٣-

احتضنت بيسان طفلتيها وهي ترى اللصوص قد أوقدوا نارًا والتفوا حولها يتشاورون في مصيرهن، وبجوارهم كان اللص الذي ضربته ابنتها بالسهم يتأوه وهو يطلق سبابًا ساخطًا من آن لآخر وأحدهم يحاول علاجه..

تعلم أن بيعهن في سوق النخاسة مع العبيد هو المصير الأقرب.. ولم تكن بيسان ترضى بهذا المصير أبدًا وهي سليلة الأمراء حتى ولو كان الثمن هو حياتها ولكن نظرة منها لطفلتيها جعلتها تتراجع عن مهاجمتهم..

قلبها يشتعل خوفًا وإشفاقًا عليهما، تشعر بالذنب والحنق من نفسها، ما كان يجب عليها أن تقحم هاتين الطفلتين في تلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر.

«كم أنت أنانية يا بيسان»

كانت تحدث نفسها بلا صوت، ثم تابعت تقريع وجلد ذاتها تلومها على أنها أرادت ألا تبتعد عن الفتاتين وأن تُرضي شغفها وهوسها في ذات الوقت، أرادت أن تجمع بين الحسنيين ففقدتهما سويا..

تذكر أن إدريس قال لها مرة مازحًا:

هوسك بالكيمياء سيقتلك ويقتلنا ذات مرة يا بيسان.. لقد أصبحت أغار من تلك المواد.

عضت شفتيها بألم وهي تهمس:

«أخشى أن تكون نبوءتك قد تحققت يا إدريس ،هوسي بالكيمياء أنساني أمومتي.. أنساني أن سلامة الفتاتين مقدمة على أي شيء، كم أنا حمقاء غبية»

«لن أسامح نفسي أبدًا إذا ما حدث لهما شيء يا إدريس»

كانت تتمنى أن تبكي ولكن لم يكن لديها وقت للبكاء فعقلها يعمل كيف تخرج من هذه الكارثة دون أن تعرض الفتاتين لأذى.

برز في رأسها حل وجدته مناسبًا للخروج من هذا المأزق..ولكنها تحتاج لحقيبتها التي استولى عليها اللصوص أولًا وللقرب من النار ثانيًا..

أصبحت المشكلة الآن هي كيف تصل للحقيبة فلو حاولت ستعرض طفلتيها ونفسها للخطر.. زادت من ضمها لطفلتيها ودفنت وجهها بين شعرهما وهي تمتم بصوت خفيض راجٍ:

يا رب.. يا الله.

كانت تقبلهما بحرقة تارة وبلطف أخرى تحاول أن تبثهما الطمأنينة ولو قليلًا..تحول تأوه اللص المصاب إلى صراخ وما زالت الدماء تنزف منه.. اقترب اللص الذي يعالجه من زعيمهم قائلًا:

يبدو أننا سنفقده يا سيدي.

نظر إليه الزعيم نظرة نارية ثم لطمه على وجهه فأكمل الرجل وهو يرتجف واضعًا يده مكان الصفعة القوية التي تلقاها منذ قليل:

أقسم لك.. لن أستطيع فعل أي شيء له.

ثم أضاف بعين زائغة:

يحتاج إلى طبيب القرية.

يعلم الرجل أن الوقت لن يسعف طبيب القرية للحضور ولكنه لم يستطع قول هذا للزعيم، فمن عادة قطاع الطرق في هذا الطريق ألا يتم ترك أثر خلفهم فإذا كانت إصابة أحدهم بالغة يتم القضاء عليه فورًا، لذلك هم حريصون على أن تتم هجماتهم على القوافل بسرعة ووحشية والانسحاب يكون منظمًا حتى لا يصاب منهم أحد.. ولكن المصاب هذه المرة لم يكن مصابًا عاديًا فلقد كان الشقيق الأصغر لزعيمهم لذلك لم يجرؤ أي من اللصوص على اقتراح قتله..زمجر الزعيم وهو يسحب سيفه ويتجه به ناحية بيسان وطفلتيها صائحًا:

قبل إحضار الطبيب فليدفع من كان السبب الثمن.

زاد ارتجاف الفتاتين في حضن أمهما وعلا بكائهما رغم أنها كانت تخبئ وجهيهما في صدرها وقبل أن يرفع سيفه أبعدتهما من أمامه وخبأتهما خلفها وهي تقول برجاء:

أرجوك لا تؤذِ صغاري، فأنا أستطيع علاجه.

قالت بيسان جملتها الأخيرة بارتجافة واضحة. فتوقفت يده الممسكة بالسيف عن رحلة الهبوط فتابعت بلهفة:

لدي بعض الخبرة في الأمور الطبية من الممكن أن أساعدكم في وقف تدفق الدماء حتى يأتي الطبيب.

أفسح لها الطريق وهو يقول بصرامة:

هيا باشري عملك.

ثم جذب الطفلة الصغرى وهو يتابع:

عالجيه أو يعالج سيفي رقبة طفلتك.

صرخت الطفلة فتعلقت بها أختها الكبرى وهي تصرخ:

اتركها أيها الجبان.. اتركها أيها الخسيس.

تشبثت الفتاتان ببعضهما فامتزجتا حتى صارتا جسدًا واحدًا عجز الزعيم عن فصلهما وعجزت بيسان عن الحركة، تصلبت مكانها تتابع وعيناها تنفجران كشلال، أرادت أن تهذي ببعض الكلمات تطمئنهما ولكن الكلمات أبت مغادرة حلقها أغمضت عينيها، ضغطت بكفها على قلبه تسكته لتستطيع نجدتهما..

اندفع أحد اللصوص يعاون زعيمه في فصل الفتاتين عن بعضهما ولم يكن القتال متكافئًا بل إن الزعيم وحده كان كافيًا لفصلهما ولكن رغبتهما في ألا يفترقا زادت من قوتهما أضعافا فنجحا في المقاومة..

ولكن قوتهما انهارت أمام وحشية الرجلين فانفصلا وكلتاهما تمد يديها للأخرى. جذب الرجل الطفلة الكبرى من يديها الصغيرتين كأسد يفترس عصفور ليقذف بها أرضًا فتتدحرج تحت أقدام أمها التي احتضنتها ولكن الفتاة تخلصت من حضن أمها سريعًا وقبضت على حفنة من الرمال لتقذفها في وجه اللص..

استشاط غضبًا فدفع الفتاة الصغرى جانبًا وأمسك سيفه ليشهره في وجه الكبرى مقررًا فصل رأسها عن جسدها ولكن بيسان سحبت طفلتها من أمامه لتخبئها خلفها قائلة لزعيمه:

أرجوك إنها طفلة.. عاقبني مكانها.

ثم أضافت:

دعني أنقذ أخاك أولا ثم لتفعل ما تريد.

أمر الزعيم الرجل بالتراجع عندما سمع صراخ أخيه خشى إن قتل الفتاة تتراجع أمها عن المساعدة.. سينتظر حتى تنجز مهمتها ثم ليقطع رأسها، أشار إلى الطفلتين قائلًا لأتباعه:

أحكموا وثاقهما.

ونظر إلى بيسان متوعدًا:

وأنت.. إياكِ أن تفشلي في علاجه.

هزت رأسها متفهمة ثم قالت وهي تبتلع ريقها:

أحتاج حقيبتي ونيران مشتعلة بالقرب مني.

أشار زعيمهم لأحدهم لينفذ ما تطلب سريعًا..

ثم همس للص الذي كان يزمجر غضبا من فعل الفتاة الصغيرة:

بعد أن تنتهي أمها من عملها.. هي لك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«قصر غزنة»

اتجه مسعود إلى حجرة الطبيب مباشرة وقال لخادمه الذي كان يتبعه:

يعقوب اذهب إلى جناحي واحضر لي ملابس نظيفة دون أن يلحظ أحد.

طرق مسعود حجرة الطبيب ولكنه لم يجد ردًّا، ففتح الباب ببطء ونادى بصوت خفيض:

أين أنت يا ضياء الدين؟

أنا هنا يا سيدي.

أتاه الصوت من خلفه فالتفت ليجد ضياء الدين يأتي من الخارج مسرعًا وهو يتابع:

كنت أشاهد المهرجان وحضرت عندما أيقنت أنك قد أُصبت.

خلع مسعود قميصه لتظهر تحته جبيرة كان قد صنعها له ضياء الدين فأزالها وهز رأسه قائلًا بأسف:

ألم أخبرك يا سيدي أن تلك الجبيرة لن تصمد كثيرا أمام ضربة الثور الهائج؟

اكتفى مسعود بالجز على أسنانه من فرط الألم ولم يتفوه بكلمه فضغط ضياء على جزء من صدره ليتأوه الجالس أمامه بصوت مرتفع فقطب حاجبيه ثم تحدث:

ما كان يجب أن تشارك في هذا المهرجان يا سيدي.. لقد تفاقمت إصابتك.

أجابه مسعود هذه المرة:

كيف تطلب مني ذلك يا ضياء؟ وأنت تعلم أنه لا يصح أن يتخلف أبناء السلطان عن مهرجانات القتال.

أعلم يا مولاي..

أقر بها ضياء الدين ثم أضاف وهو يصنع له جبيرة قوية:

ولكن واجبي يمنعني من أن أكتم إصابتك عن السلطان هذه المرة.

تحرك مسعود ثم قال بانزعاج:

كلا يا ضياء أرجوك، أنت تعلم أنني قائد الحملة القادمة للهند... وهناك بوادر حرب مع خوارزم.. لا أستطيع ترك أبي وحيدًا.

لم يعلق ضياء واكتفى بالصمت وهو يتابع عمله لكي يلحق الأمير بالمهرجان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خوارزم..

العلاقات بين الدول المتجاورة قائمة على المصالح المشتركة فإذا انعدمت تلك المصالح التهمت الأقوى الأضعف وفي هذا النطاق كان الخلاف الدائم بين غزنة وخوارزم استقر فترة من الزمن بالمصاهرة ولكنه عاد للظهور مرة أخرى على السطح بعد أن رفض أعيان خوارزم الدعاء للسلطان محمود الغزنوي مع خوارزم شاه والاعتراف بالتبعية له مما أغضب السلطان محمود كثيرًا وأصبح التوتر هو السمة السائدة بين الدولتين بل إن هناك بوادر حرب طاحنة تلوح في الآفاق..

وهذا ما أدركه أيوب عندما علم أن عمه منصور قد طلب من ريحانة أن تأخذ الصقر الحر لتبيعه في غزنة، بل في قصر السلطان محمود نفسه.. فالشاري هو الأمير مسعود..

وجن جنونه خصوصا عندما علم أن ريحانة قد قبلت المهمة ألقى برمحه أرضًا وهو يقول غاضبًا:

تلك الحمقاء ستُقتل قبل أن تصل.. وإذا وصلت سالمة سيلقي السلطان القبض عليها بتهمة التجسس.

ظل هائجًا فترة ليست بالقليلة ولكنه في النهاية ركب حصانه وقد قرر الرجوع من رحلة الصيد الوهمية التي اختلقها ليبتعد قليلًا عن المدينة بعد حديثه الأخير مع ريحانة.. فلابد وأن يوقف تلك المهمة بأي ثمن..

اتجه مباشرة إلى عمه يستوضح منه عن صحة ما وصله وما أن تأكد من الخبر إلا وهتف:

ماذا تقول يا عماه.. إن هذا جنون.

تحرك منصور ببطء وهو يتكئ على عصاه ليجاوره ثم يضع يده على كتفه متحدثًا:

الجنون هو أن نضيع تلك الصفقة من أيدينا.

هتف أيوب مستنكرًا:

وريحانة؟

شعر منصور بآلام في قدمه فجلس على أقرب مقعد ومد رجله ثم تحدث بلا مبالاة:

ماذا بها؟

وكأن دلوًا من الماء البارد قد سكب على رأسه فلم يكن يتوقع مثل هذا السؤال، فبماذا يجيبه؟ أيخبره أنه يخاف عليها لأنه يحبها بل هي قطعة من قلبه؟ هل سيعترف عمه بهذا الحديث وتلك المشاعر التي لم يجربها قط؟ أم يخبره بأنه يريدها زوجة له؟كيف سيبوح له بما في صدره وقد رفضته صاحبة الشأن ولفظته من حياتها بكلمات قاسية جارحة؟

نظر إلى عمه فوجده ينتظر منه إجابة لسؤاله فقال بتلعثم:

كيف تضحي بصائدة صقورك هكذا.

نظر منصور في عينيه قليلًا غير مقتنع بأن هذا هو السبب الوحيد لتلك الثورة التي بها ابن أخيه الآن ولكنه تحدث:

ريحانة تستطيع الاهتمام بنفسها جيدًا، ثم إنها صفقة العمر وأثق أنها ستستطيع إنجازها والعودة بسلام.. المقابل يستحق.. خمسمائة ألف قطعة ذهبية تستحق أن أجازف بأفضل صائدة صقور على وجه البسيطة.

كان أيوب يريد أن يصرخ في وجهه يمنعه بالقوة من إرسالها، ولكن كيف يحكم فيما لا يملك، لاذ بالصمت واكتفى بنظرة حارقة للفراغ حوله ولكن عمه تجاهل الغضب البادي في عينيه وواصل بهدوء:

موسم صيد الصقور سينتهي عما قريب وريحانة بضعة أشهر وتحصل على حريتها أي أنها لن تلحق موسم الصيد القادم وأنا أعلم أنه لن يتمكن أي عبد من ملء فراغها مرة أخرى.. ففكرت في صفقة كبيرة تعوض تلك الخسارة التي سأتكبدها عندما ترحل، وتؤمن لك عيشة كريمة من بعدي.

شعر أيوب بالخزي وهو يستمع لحديث عمه الذي يؤكد ما تحدثت به ريحانة من قبل ولكن ماذا عساه أن يفعل؟ فهو يعلم أن عمه لن يتراجع ما دام الأمر فيه أموال، زفر بضيق وهو يشاهد عجزه، فها هو

يخذلها مرة أخرى ويبدو أنه سيظل يخذلها إلى أن يفترقا.

عليه أن يفعل شيء لينقذها من الجنود الغزنويين ومن طمع عمه حتى ولو اضطر أن يذهب معها ليحميها.. فكر قليلا ثم تحدث بحسم وهو ينظر في عيني عمه:

ما دمت مصرًا، فلن تذهب ريحانة وحدها، سأذهب معها.

كان يتوقع رفض عمه وثورته ولكنه تفاجأ بموافقته ببساطة قبل أن يقول ببرود:

افعل ما يحلو لك.. المهم أن تعودا لي بالقطع الذهبية سالمة.

تهكم أيوب وهو يتمتم بخفوت:

يبدو أنه لم يعد هناك من يهتم لشأنك بعد رحيل والديك يا أيوب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قصر غزنة..

خرجت نور من مقصورة النساء الرئيسية لتتجه مباشرة إلى جناح الأمير مسعود ولكنها بطأت من سيرها عند أول الطرقة المؤدية إلى جناحه كانت تدرك أن ما تفعله حماقة لا تصح أن تصدر منها، فمسعود لم يعد ذلك الفتى الذي كانت تشاركه اللعب وتنافسه السباق ولم تعد هي تلك الفتاة الصغيرة..

ولكنها لن تستطيع العودة قبل الاطمئنان عليه.. لابد من اختلاق حجة للذهاب إليه. كانت قد اجتازت نصف الرواق المؤدي لجناحه وهي تفكر في تلك الحجة عندما فُتح باب جناح الأمير تسمرت مكانها للحظات تنتظر ظهوره ثم تنفست الصعداء عندما وجدت يعقوب يخرج من الجناح وبيده بعض الملابس التي تخص مسعود..

لم يحتج الأمر للكثير من الذكاء لتدرك أن هناك خطب ما خاصة وأن يعقوب كان يسير في الاتجاه المعاكس الذي يؤدي سلمه إلى حجرة الطبيب ضياء الدين مباشرة.. استوقفته منادية:

يعقوب.

عاد الخادم إليها فور ندائها بينما أسرعت هي الخطى قبل أن تتوقف على بعد خطوات منه متسائلة:

هل الأمير مسعود عند الطبيب؟

نعم يا مولاتي.. ولقد طلب مني إحضار ملابسه ليستبدلها ويستكمل المهرجان.

أخذت منه الملابس قائلة:

حسنًا.. اذهب أنت.. سأنزل أنا له بالملابس.

دقيقتان وكانت أمام حجرة الطبيب طرقتها بهدوء فأذن لها مسعود بالدخول ظنًا منه أنها يعقوب ولكنه تفاجأ عندما وجد نور أمامه فقال وهو يعتدل في جلسته:

نور؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟

أدرك حماقة سؤاله خاصة وأن ضياء الدين موجود، فقال وهو يعتذر:

أقصد هل هناك خطب ما؟

لقد كنت أمر بالقصر فقابلت يعقوب وأخبرني أنك قد أصبت فأردت الاطمئنان عليك.

إنني بخير حال الحمد لله.

كان الطبيب قد فرغ من الضمادات التي يحيط بها كتفه وجزء من صدره فنظرت إليها بانزعاج وتحركت الدموع في عينيها ثم قالت وهي تحاول أن تبدو متماسكة أمام الطبيب:

هل إصابته خطيرة أيها الطبيب؟

هم ضياء أن يجاوب ولكن مسعود تدخل سريعًا:

إنها إصابة طفيفة جدا.. ولكن ضياء يحب أن يبالغ في لف ضماداته.

لم تقتنع نور شاه بقوله ولكن مسعود لم يترك لها فرصة فتحدث وهو يهب واقفًا ثم يتناول منها الملابس:

أشكرك يا نور على سؤالك.. سأبدل ملابسي والحق بكم في المقصورة.

ناولته الملابس وانصرفت وقبل أن تغلق الباب ناداها

نور.

التفتت إليه فتابع برجاء حقيقي:

أرجو ألا يعلم أحد بشأن إصابتي.. خاصة أبي.

هزت رأسها موافقة فقال بامتنان وهو يبتسم:

شكرًا لك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيسان..

عالجت بيسان اللص ونجحت في وقف الدماء ثم ناولته بعض الأعشاب المسكنة التي كانت بحقيبتها، فراح في سبات عميق ولكن الأهم أنها نجحت في الحصول على عشبة جافة كانت تحتفظ بها في حقيبتها..ثم فكت جزءًا من حجابها ولفته حول أنفها فوكزها اللص الواقف بجوارها بالسيف في جنبها صائحًا:

ماذا تفعلين يا امرأة؟ لا تربطي أنفك.

تجاهلت ألم السيف في جنبها وردت بهدوء:

سأكوي الجرح ولن استطيع تحمل الرائحة..

ثم أشارت إلى المصاب وهي تكمل:

إذا تركته هكذا سيموت.. وسيحاسبك سيدك.

قالت جملتها الأخيرة بلامبالاة وهي تفك اللثام عن أنفها ولكنه وكزها مرة أخرى بعد أن خشي من غضب زعيمه قائلًا بغلظة:

فلتنتهِ سريعًا.

كانت قد وضعت سيخًا معدنيًا في النار منذ قليل فأحكمت لثامها ودون أن يلاحظ أحد قذفت العشبة الجافة التي حصلت عليها من حقيبتها بعد أن كتمت أنفاسها جيدًا. عندما انتهت من كوي الجرح كان مفعول العشبة قد بدأ يعمل دقيقتين تلكأت فيهما وبدأ اللصوص يترنحون فابتعدت عن النار ولم تنتظرهم حتى يتساقطوا في النوم واحدًا تلو الآخر بل اتجهت ناحية طفلتيها ففكت وثاقهما ثم حملتهما نائمتين وأخذت حقيبتها لتنطلق بأحد الأحصنة مبتعدة بأقصى سرعة ممكنة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس السلطان في جناح السلطانة فاطمة كما اعتاد أن يفعل مساء كل ثلاثاء عندما دلف الأمير مسعود فقبل يد أبيه وأمه ثم جلس تحت مجلسيهما.تحدث السلطان محمود بحنان أبوي:

لقد آن الأوان لتتزوج يا مسعود لقد سبقك أخوك رغم أنه الأصغر.

ضحك مسعود وهو يقول:

لا أفكر في هذا الأمر الآن يا أبي.. ما يشغلني هو كيف أقضي على الأعداء وأرسي قواعد الدولة الغزنوية.

اعترضت فاطمة:

ولكن هذان الأمران لا يتعارضان يا ولدي.

هم مسعود أن يوضح لها وجهة نظره عندما طلبت نور شاه الإذن بالدخول فأذن لها السلطان لتنحني تقبل يد السلطان والسلطانة ثم تقابل مسعود في المجلس.

تمنى مسعود ألا يكمل أبوه حديثه أمام نور وبالفعل فهم السلطان ما يدور برأسه فقال موجهًا حديثه لنور:

كيف حال تدريباتك يا بنيتي؟

ردت بحماس:

بخير يا عمي.. لقد اجتزت كل الاختبارات بالسيف.. ولكن ما زلت لا أجيد الرمي..

قالت جملتها الأخيرة بخفوت يشوبه خيبة أمل.اعترض مسعود قائلًا باستخفاف:

أترغبين في تعلم كل شيء؟ ماذا تركت للرجال إذن؟ هذه أمور لا تصلح للنساء.

أحنقها رده؛ فهو دائمًا يستخف بها ويعاملها كأنها طفلة وهي لم تعد تحتمل لذلك قالت بعناد بيِّن:

لا أريد تعلم الرمي فقط.. بل أريد تعلم ركوب الفيلة ومصارعة الثيران.

كادت أن تضيف أيها الأحمق ولكنها تراجعت احتراما للسلطان الذي قهقه ضاحكًا عندما قال مسعود وهو يضرب يدًا بأخرى.

ركوب الفيلة ومصارعة الثيران! لقد جننت إذن.. بحجمك هذا لن يراكِ الثور حتى.

احمر وجه نور وكادت أن ترد ولكن السلطانة أمسكت يديها وهي تغمز لها بطرف عينيها فصمتت على مضض قبل أن يقول السلطان:

هل ترغبين أن نأتي لك بمدرب للرمي؟

أومأت برأسها وهي تقول:

إذا أذنت يا مولاي السلطان.

كانت نور شاه تعني كثيرًا بالنسبة للسلطان؛ فهي ابنته التي لم ينجبها لذلك قال على الفور:

حسنًا غدًا سأرسل لك أفضل مدربينا فاستعدي.

ولماذا نأت بمدرب ومسعود موجود؟ هو أفضل من يدربها.

قالتها السلطانة فاطمة وهي تنقل نظرها بين مسعود وأبيه

أحسنت يا سلطانة.. اقتراح طيب.

قالها السلطان محمود بإجلال وقد فهم ما ترمي إليه. كادت نور أن تصفق بيديها من السعادة ولكنها تمالكت نفسها بصعوبة وهي تستمع لمسعود الذي قال حانقًا:

لا أريد أن أعصي لك أمرًا يا مولاي ولكنى سأسافر الأسبوع القادم للهند كما تعلم.

نظر إليه السلطان مليًا ثم تحدث بحسم:

لا لن تسافر يا مسعود.. سيسافر محمد بدلا منك، لن تقود حملة حتى تتعافى تمامًا من إصابتك.

قال جملته الأخير بنبرة عتاب شديدة انتبه لها مسعود جيدًا..

أحنقه أن نور قد أفشت سره رغم أنه قد طلب منها عدم إبلاغ أبيه..

تلك البلهاء ما زالت تتصرف كالصغار.. لن تكبر ولن تتحمل المسؤولية أبدًا. شعر أنه ربما لن يستطيع السيطرة على انفعاله لذلك طلب الإذن من السلطان فأذن له وقبل أن ينصرف رمى نور شاه بنظرة نارية كادت أن تحرقها في مجلسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خوارزم..

منذ آن احتدت عليه المرة الأخيرة وصدمته بحديثها وهو في معزل عنها.. تعلم أنه يتجنب لقاءها ولقد أراحها هذا كثيرا، لم تقابله إلا مرة واحدة فقط ولقد هالها ما رأت وأشفقت عليه حقًا؛ كآبة وحزن عشعش بروحه.. ولكن كان عليها أن تقسم تلك العصا التي يتشبث بها، هي لا ترفضه لشخصه بل لأن هناك أمور هامة تنتظرها بعد التحرر وعهدًا قطعته على نفسها لابد من الوفاء به..

وإذا ما أخبرته بأي سبب للرفض سيتمسك بها أكثر لذلك اختارت أكثر الكلمات إيلاما ليرحل بلا عودة.. وكان لها ما أرادت بالفعل..

ولكنها تفاجأت عندما وجدته يجهز حصانه ليجاورها في رحلتها.. ما زال قلبه نقيا.. ما زال يهتم لأمرها رغم ما كان منها..

تعلم أنه هو من أصر على ذهابه معها لكي يحميها.. مسكين أيوب.. يتعلق بالأحبال البالية التي لن تُرقع أبدًا.. ويتصبر بالأمل الذي لن يبزغ فجره يومًا.

يعلم أنها تفكر أنه ما زال يحبها.. لقد طعنته في كبريائه بالفعل ولقد قرر البعد ولكن عندما علم بالخطر الذي يحيق بها تلاشى كل الحنق والضيق اللذان خلفتهما كلماتها وتبقي شيء واحد؛ حبه لها وخوفه عليها.

تمنى ألا لو كان قادرًا على الابتعاد عنها، على ألا يبالي لشأنها، ولكنه لا يستطيع لذلك قرر مرافقتها حتى تنتهي تلك المهمة ثم يتركها لتفعل ما يحلو لها.

لن ينتظر منها اهتمامًا أو يرجو شفقة يظنها حبًا.

تجاورا صامتين في بداية طريقهما.. كلًّا يحمل مشاعر مختلفة وأفكارًا شتى ومن خلفهما يودعهما منصور ينتظر عودتهما بالقطع الذهبية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٤-

الجمهورية العربية المتحدة..

أوشك الأسبوع أن ينقضي وأصبحت نون تثبت كفاءة في التدريب وقدرة عالية على الاستيعاب..

رغم أن عامر قد زاد لها الحمل التدريبي، إلا أنها ما زالت قادرة على التحمل، ولكن عامر لم يكن الشخص الذي يغير فكرته عن الأشخاص بسهوله.. ثقته ورضاه لا ينالهما إلا من يبذل الجهد الوفير والعمل المتواصل..

كان جالسًا في سيارته عندما رنت ساعته تذكره بموعده، اتجه للداخل وهو يغمغم:

سنرى ماذا ستفعلين اليوم يا نون.. صدقيني إذا نجحتِ في التدريب اليوم ربما تتغير فكرتي عنكِ.

.....

تعدو بسرعة في الغابة تحمل خنجرًا في يمناها لم تكد تتجاوز الخمسين مترًا الأولى حتى لمحت سهمًا ينطلق نحوها بزاوية حادة فانحنت لتتفاداه قبل أن تلتف حول شجرة وتواصل عدوها بنفس السرعة ثم قفزت قفزة عالية لتتفادى جذع شجرة ظهر أمامها فجأة.. زادت من سرعتها في ذات الطريق المستقيم قبل أن تتوقف وهي تعقد حاجبيها..

فطريقها يقطعه بركة من المياه لا تدري ما الذي يوجد بداخلها تلفتت حولها تبحث عن وسيلة تساعدها في عبور تلك البركة أتتها الفكرة في ذات اللحظة..

قفزت تتعلق بغصن شجرة ومنه إلى آخر.. تأرجح جسدها في الهواء لثوان بعد أن حررت إحدى يديها كانت تنظر إلى الغصن الثالث والأخير تقيس المسافة بين الغصنين وبالفعل حررت اليد الأخرى ليطير جسدها في الهواء وقبل أن تلمس الغصن الثالث بجزء من الثانية اخترق قلبها سهم فتاك لم تنتبه له أسقطها أرضًا وسط بركة المياه التي غمرتها لثانيتين قبل أن تختفي البركة والغابة بأسرها وتبقى نون وحدها في كبسولة التدريب الشفافة منزعجة من الصوت الآلي الذي يقول بصرامة:

لقد فشلت المهمة.. تلتحق المتدربة بالمستوى الأدنى.

زفرت نون بقوة وجلست مكانها تنتظر ظهور عامر الذي لم يتأخر كثيرًا وما إن رآها إلا وتحدث غاضبًا:

لقد فشلت في هذا المستوى للمرة الثالثة يا دكتورة.

ظلت على صمتها تستمع لتقريعه وهو يضيف:

أعتقد أن هذه المهمة لا تناسبك.. أنت لا تصلحين سوى للأعمال المكتبية.

قامت من جلستها تنظر له بضيق ثم أغمضت عينيها وهي تحك أرنبة أنفها بظفرها تحاول السيطرة على غضبها وتهدئ من نفسها كما تفعل دائمًا، وضعت يدها بجوارها وهي تقول بتحدٍ:

بل أعتقد أن هذه المهمة تناسبني وبشدة يا سيادة الرائد.. غيري هو الذي لا يصلح لهذه المهمة.

حرك رأسه ثم تحدث ببطء وبصوت خفيض:

ماذا تقصدين؟

لم تكن تتمنى أن تصطدم به قبل أن تبدأ المهمة لذلك زفرت تحاول السيطرة على الحمم التي تشتعل داخلها ثم تحدثت بهدوء:

أقصد أن هذا البرنامج لا يناسب قدراتي البدنية ولا تكويني الجسدي ولا حتى دوري في المهمة.

هتف مستنكرًا:

دورك في المهمة؟!! أنت لا تعلمين شيئًا عما سنواجه.. أنت مـــ.....

قطع حديثهما رنين خافت انطلق من ساعتيهما فنظرا فيهما وقد علما أنه استدعاء من العميد حسن يطلب حضورهما على الفور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غزنة..

ظل يتلوى في وقفته يقطع الساحة ذهابًا وإيابًا غاضبًا بشدة من تصرفها.. لقد حرمته من الحملة بأفعالها الطفولية..

شعر أنه لو قابلها الآن سيهشم رأسها.. غرس نصل سيفه في الأرض مرات عدة ينفس عن غضبه قبل أن يحمله وينطلق إلى إسطبل الخيول..

يحتاج أن ينطلق في الفضاء، يطير في السماء تداعب شعرات رأسه نسمات الهواء..

فك رباط فرسه وقبل أن يعتليه سمعها تناديه بتردد:

مسعود.. هل من الممكن أن أتحدث معك قليلا؟

يعلم أنه ثائر الآن ولن يستطيع كبح جماح غضبه لذلك ركب فرسه وهو يقول بصرامة بها بعض القسوة:

لا.

ودون أن ينتظر منها ردًّا انطلق بفرسه كالسهم باتجاه الغابة. غاظتها فعلته.. لقد احتارت كثيرًا في فك طلاسم مسعود، أحيانًا يعاملها برقة ترسم على إثرها الأحلام الوردية وتتنفس رائحة الياسمين في كل ما حولها..

وأحايين أخرى يقسو عليها، يلومها على كل سقطة يقع فيها منذ الصغر وكأنها تعبث بقدره، لابد وأن يستمع إليها هذه المرة.. فكت فرسها هي الأخرى وانطلقت.. ثوان قليلة ولحقته، زاد من سرعته فزادت هي من سرعتها وكأنهما في سباق كما كانا يفعلان في الصغر.. ورغم دقة الموقف وتأزمه إلا أنها شعرت بشيء يدغدغ داخلها؛ فهما لم يتسابقا منذ أمد عادت إليها ذكريات الصبا والطفولة عندما

تعلمت أول مرة ركوب الخيل على يد السلطان بنفسه، لم تشعر يومًا بيتم في وجود السلطان وزوجته..

كانت تخشى ركوب الخيل ولكن السلطان كان يجعلها تركب خلفه لتسابق مسعود.. يضحك السلطان كثيرًا عندما يراها تصفق بيديها الصغيرتين لأنها انتصرت على مسعود الذي يتذمر ويتهمها بالغش لأن أبوه قد ساعدها وعندما تغضب منه كان يعتذر لها ويقدم لها الحلوى ولا يتركها حتى تعود الابتسامة لثغرها.

وعندما ركبت حصانها وحدها للمرة الأولى خشى مسعود أن تسقط من عليه فتعمد أن يبطئ من عدوه لتفوز هي، يريد أن يرى البسمة على محياها، هذه هي المرة الوحيدة التي فازت بها فما تلاها من سباقات كان الفوز دائمًا حليفه حتى كبر وانشغل بأمور أخرى.. وأصبحت لا تراه إلا لمامًا..

ولكن حبه في قلبها كان ينبت ويترعرع دون أن تدري.. عندما يثور مسعود يفر الجميع من أمامه حتى يهدأ.. إلا هي تخشى عليه من ثورته.. تخشى أن يرتكب حماقة يندم عليها بعد أن ينقشع دخان غضبه، لذلك كانت تفضل أن تبقى جانبه تتلقى لفحات نيرانه وحدها.. تمتصها داخلها ثم تحولها لماء بارد يرطب به قلبه ويعود بعدها إلى رشده.. وهذا ما تريده الآن خاصة أنه غاضب منها..

شعر أنه قد توغل كثيرًا في الغابة وخشي أن يكمل فتلحق به تلك المجنونة ولكن داخله لم يطب بعد.. لقد حاول تجنيبها سخطه ولكنها تصر.. لقد نجحت في إيقاظ مارد الغضب بداخله الذي يبدو أنه لن ينصرف بسهولة.. أوقف فرسه ونزل من عليه بعنف وهدأت هي من ركضها ثم نزلت من على فرسها لتقابله..

ماذا تريدين يا نور شاه؟

لم يخفَ عليها تذمره ولا غضبه البادي في قسمات وجه عندما أطلق سؤاله. لكنها تحدثت بثبات:

أعلم أنك غاضب.. ولكنني أريد أن أوضح لك شيئًا.

قبض على لجام فرسه بقوة واندفع صائحًا:

الأمور كلها واضحة كما الشمس يا أميرة القصر المدللة.. أنتِ ما زلتِ تتصرفين كطفلة.. لن تنضجي أبدًا.. ثرثارة كباقي النساء لا تؤتمنين على سر.

صدمها حديثه فلم تستطع النطق، بينما امتعض وجهه وهو يتابع:

تصرفك هذا لا يليق أبدًا بأميرة غزنوية حرة.. الحر لا ينكث وعدًا قطعه على نفسه.

رغم أن كلامه كان مهينًا إلا أنها تجاوزته باختلاق أعذار له فهي تعلم أهمية تلك الحملة بالنسبة له لذلك ترجته تحاول تهدئته:

مسعود أرجوك فلتسمع مني.. اترك لي فرصة للحديث.

رمى برجائها عرض الحائط وهو يتحدث بقسوة:

بل أنت التي يجب أن تسمع.. أيا كان الدافع الذي دفعك لكي تخبري أبي عن إصابتي وتحرميني من حملة أحلم بها منذ عام كامل.. فإن هذا الدافع يعيش في مخيلتك فقط..

فهمت مقصده فارتعشت شفتاها رغمًا عنها، تمنت ألا يقول المزيد ولكنه سكب ملح كلامه على جرح قلبها فتلظي واشتعل ألمًا وواصل بعثرة ما تبقى من كبريائها:

أنتِ لا يربطك بهذا القصر إلا أبي.. أسمعتِ؟ أبي فقط، بعد رحيله لن يكون هناك مكان لكِ بالقصر.. ستكونين ضيفه حتى تتزوجين..

ثم أشار بسبابته وهو يتابع:

لا تطمحي فيما هو أكثر.

فقدت نور شاه نطقها وتخشبت للحظات نظرت إليه نظرة من فقدت الحياة؛ فلم تكن تعلم أنها ستهون عليه هكذا ولكنها استجمعت قوتها قليلًا لتقول بحشرجة واضحة:

لقد ذهبت خلفك كل تلك المسافة لأخبرك أني لم أخبر السلطان بإصابتك.. لقد تفاجأت مثلك بعلمه.

ثم أضافت بصوت باكٍ:

ولكنك لم ولن تسمعني كعادتك دائمًا.. بل إنك قد تظنني كاذبة.. فمن يظن أنني أفشيت سرًا لا أستبعد أن يتهمني بالكذب.

رق مسعود لحالها وشعر أنه قد تمادى في غضبه وتفوه بما ليس في قلبه، اقترب منها هم أن يعتذر لها معلنًا ندمه ولكنها لم تترك له الفرصة كما تفعل دائمًا.. لقد امتطت حصانها ورحلت من أمامه سريعًا..

رحلت تعلن له أنه قد جرحها هذه المرة جرحًا لن تبرأ منه أبدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوم كامل في طريقهما يسيران كما الأغراب؛ من ينظر إليهما يظن أنهما أبكمان، صاما عن الحديث وهجراه.. وكأن بينهما عقد اتفقا فيه ضمنيًا على ذلك.. كلًا منهما ينعي حاله، منشغل بهمه، عندما أوشك النهار على الرحيل كانا قد وصلا إلى ربوة مستوية فخفف أيوب من سيره ثم توقف متحدثًا:

لابد أن تستريح الخيول.. سنتناول الطعام وسنواصل سيرنا في الصباح إن شاء الله.

هزت ريحانة رأسها متفهمة فترجل من على حصانة وربطه في شجرة قريبة وكذلك فعلت هي..أمسكت قوسها وحملت حقيبة سهامها ومضت ولكنها توقفت عندما ناداها أيوب باسمها ليسألها غاضبًا:

إلى أين؟!

التفتت نحوه لتقول بهدوء:

سأذهب للصيد؛ نحتاج للطعام.

ثم أشارت بيدها للصندوقين القابعين فوق الحصانين:

والصقران أيضًا.

اقترب منها وأخذ منها القوس ليقذف به جانبًا ثم قال وهو ينظر في عينيها:

سأتدبر أنا أمر الطعام.

ثم أضاف بلهجة صارمة:

أشعلي النار حتى أعود.

تركها وذهب للصيد.. ولم تبد هي اعتراضًا.. بدأت في جمع الحطب ثم أشعلت النار وانتظرت دقائق فتوهجت أمامها تذكرها بلهيب يلفح قلبها.. ودون وعي منها تحسست ندبة في ذراعها إثر عقاب قديم من سيدتها..

تذكرت عندما كان الجوع ينهش بطنها وبعد أن تفقد الأمل في إسكاته ويرخي الظلام أستاره كان أيوب يأتي إليها بالطعام سرًا ولا يمضي حتى يتأكد أنها قد أكلت كل الطعام فيأخذ بقاياه ليخفيها خشية أن تعرف أمه فتلحق بها العقاب مرة أخرى..

تتعجب الآن كيف لتلك السيدة القاسية أن تنجب هذا القلب الطيب! كيف للرحمة أن تخرج من بطن القسوة! وكأن أيوب هو قدر الله الطيب الذي أرسله لها في أيام عجاف.. يندي به جفاف حياتها وقسوتها..

خلعت حذاءها عندما شعرت بوخز في قدمها ولكنها انتعلته سريعًا عندما لمحت أيوب يأتي من بعيد.. أحضر معه أرنبين بريين، أطعمت الصقرين الأول، وتقاسما الثاني قبل أن يأوي كلا في ناحية.. يشكي للقمر همه.. ويقص على النجوم سره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجمهورية العربية المتحدة..

خلف حاجز شفاف وقف د/إبراهيم زهران يجاوره العميد حسن فاضل يتابعان التدريبات التي تقوم بها نون..

هز د/ إبراهيم رأسه قائلًا:

إذا سمحت لي يا سيادة العميد.. أن لا أفهم جيدًا في الأمور الحربية ولا التدريبات البدنية ولكني أعتقد أن الرائد عامر يقسو على نون في التدريبات عن عمد.

أجاب العميد حسن:

أعلم.. ولكن الرائد عامر هو الوحيد الذي يستطيع إنجاز هذه المهمة في الوقت المحدد وبالطريقة المحددة.. إنه قائد ممتاز ولكن عيبه الشديد أنه يريد دائمًا أن يكون في المقدمة لا يقبل أن يكون في فريقه عنصر ضعيف من وجه نظره.. التي قد تكون حادة في بعض الأحيان.

احتج د. إبراهيم قائلًا:

وليكن.. ولكني أرى أن نون تحتاج للدعم.. وإلا ستخسر ثقتها بنفسها.

هز العميد حسن رأسه مؤكدًا:

أتفق معك تمامًا.

ثم انطلقا سويًا ليلحقا بعامر ونون في قاعة الاجتماعات، دلفت نون أولًا إلى القاعة ومن خلفها عامر.. جلسا متقابلين يحفهما الصمت، يدعي كلا منهما الانشغال بمراجعة بريده الإليكتروني بينما هما في الحقيقة يحاولان ترتيب أفكارهما والجمل التي سيهاجم كل منهما بها الآخر..

فهما يعلمان أن العميد حسن قد سمع حديثهما ولن يترك الأمر دون تعقيب. عشر دقائق كاملة تركهما فيها العميد حسن عن عمد. ثم دلف إلى القاعة ومعه د/ إبراهيم، وبعد تبادل التحية تحدث حسن قائلًا:

سعيد جدًا يا شباب بتعاونكما.. ولكني أرى أنه من الواجب أن تعرف د/ نون رأي قائدها فيها بصراحة.

قالها ثم ضغط على الجهاز الهيموجلافي الموجود أمامهم ليظهر التقرير الخاص بها الذي رفعه عامر عنها بالأمس..

وعندما شاهدته نون رفعت رأسها لعامر بحدة فما كتبه عنها قد فاق كل توقعاتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بخارى..

في الصباح انطلق أيوب وريحانة بحملهما إلى بخارى ليلتحقا بقافلة السيد شيبان المتجهة إلى غزنة، سيدعيان أنهما صائدا صقور من بخارى سيبيعان حملهما ثم يعودا أدراجهما في ذات القافلة وبنفس خط السير.

بعد الظهيرة كانا قد وصلا بخارى التي تشبه خوارزم كثيرا، اتجها مباشرة إلى منزل كبير التجار في بخارى «السيد شيبان» الذي يسكن في بيت كبير تقل مساحته عن القصر بقليل، ذو بوابة كبيرة وغرف كثيرة وفناء واسع لا يقف فيه سوى خادمان يقومان بالحراسة والأعمال المنزلية في آن واحد.. أيام العبودية قد هدّت داخلهما وزادت من معاناتهما؛ يبدو هذا على قسمات وجهيهما الجامدة وحركتهما التي لا تحمل روحًا أو حماسًا..

أدخلهما أحد الخدم لغرفة استقبال الضيوف ثم قال وهو ينحني لهما:

سيدي سيأتي على الفور.

أومأ إليه أيوب دون أن يتحدث بينما تجولت ريحانة بعينيها في المكان، غرفة واسعة ذات ألوان زاهية تتدلى الستائر من على حوائطها بشكل مبالغ فيه، تنتشر الوسائد على الأرائك بألوان صاخبة غير متناسقة بالمرة، في مقدمة الأرائك يستقر مقعد خشبي كبير وضع علية فرو خروف حديث الذبح؛ ففروه ما زال منتفشا لم ينم بفعل الجلوس المتكرر عليه بعد.. خمنت ريحانة أنه مقعد صاحب الدار كانت لتكمل تخيلها لشكله ولكنه قطع عليها أفكارها بعد أن أتى وهو يحدث جلبة بجسده الضخم، كان يجاهد للتنفس وهو يرحب بأيوب من فرط المجهود الذي بذله وكأنه قد أتى عدوا من مسافة بعيدة رغم

أنه آتى من داخل الدار، قبض على يد أيوب بقوة وربت على كتفه يخبره أنه في مقام عمه هنا، ثم عرفه بولده بهرام الذي صافح أيوب بلا حماس كأنه قد أتى لاستقباله مجبرًا:

هل ما زال عمك يحب المال؟ أم أن الزمن قد غيره؟

قالها شيبان وهو يجلس على فروه ثم أطلق ضحكة صاخبة هزت كرشه المتدلي أمامه أزعجت ريحانة، وبعد أن فرغ من ضحكه أكمل عندما لم يجد جوابًا من أيوب:

إنني أمزح فقط.. لقد تشاركنا أنا وعمك في التجارة في أيام الصبا ولكنه اتجه لتجارة الصقور وتركني فافترقنا.

حاول أيوب تلطيف الوضع وتجاوز مزحته فتحدث بود:

لقد أخبرني عمي كثيرًا عن مآثرك يا سيد شيبان.. من حسن طالعي أن أتشرف بمقابلتك.

أخرج شيبان منديلا من جيبه يمسح عرقه بعد أن هدأت أنفاسه قليلا وهو يقول بود حقيقي:

حفظك الله يا أيوب.. أنت لا تشبه عمك حقًا فأنت حسن الطلة والحديث.

لم يرق لأيوب مدحه المبطن بذم عمه ولكنه ظل صامتًا ليتحدث شيبان:

لكي نتعرف أكثر فإنني أدعوك اليوم لحفل شراب في المساء.

رفع أيوب يده معتذرًا:

أعتذر منك لن أستطيع الحضور فإنني أفضل الراحة قبل الانطلاق في الصباح لغزنة.

تجهم وجه شيبان وتحدث:

لا لن أقبل أعذارًا.. إنها عادتي منذ القدم.. أحرص ليلة تسيير كل قافلة أن أجمع التجار في حفل كبير يأخذون قدرًا جيدًا من اللهو والسمر يعينهم على مشاق الطريق.

كان بهرام ابن شيبان واقفًا يتابع الحديث عندما قال أيوب:

حسنًا سأحاول.

فقال بهرام وهو يرمق ريحانة بنظراته:

لا تنس أن تحضر جاريتك إلى الحفل فسيسعد الرجال بها كثيرًا..

زمت ريحانة شفتيها دون أن تتفوه بكلمة ولكن أيوب رد قائلا:

يسعدني أن ألبي دعوتك سيد شيبان.

ثم حول وجهه إلى بهرام يرمقه بنظرة استخفاف وهو يقول:

ريحانة لا تحضر مثل تلك الحفلات يا... معذرة نسيت اسمك.

بهرام.. اسمي بهرام.

لم يبد على أيوب أنه قد سمعه حتى.. فقد قام من مجلسه يصافح السيد شيبان متجاهلا بهرام عن عمد قبل أن ينصرف وهو يشير لريحانة فتبعته وهي تمتم:

حقيير.. صفيق..

استأجر أيوب بيتًا صغير لليلة واحدة فهما سينطلقان في الصباح وما أن دخلا البيت حتى أشار أيوب بيده محذرًا:

ريحانة لا أريد أية مشاكل مع شيبان.. أنت تعلمين ماذا تعني تلك الصفقة بالنسبة لعمي..

هزت ريحانة رأسها وهي تقول:

لا تقلق سيدي.. ستسير الأمور كما ترغب.

ورغم أن كلمة سيدي التي تعمدت ريحانة قولها قد أزعجته إلا أنه لم يعلق وتركها وانصرف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قصر غزنة..

جلست في غرفتها بنفس محطمة وقلب منكسر وكأن كابوس قد استحوذ عليها تتمنى الفكاك منه.. كانت تبكي بحرقة؛ لقد لفظها مسعود.. بعد أن ظنت أنها سكنت قلبه يومًا، كانت تظن أنها قريبه منه بالقدر الذي لن يعايرها بماضٍ ليس لها دخل فيه، أصبحت دموعها تكوي وجنتيها.. ينبت بداخلها حزن كبير لا تجد من يقطفه، تتذكر كلامه كأنه سهم مسموم اخترق كل النوافذ والحواجز ليتجه إليها، ذهبت خلفه تداويه فسحقها حد الموت، كانت عاصفته هذه المرة عنيفه لم تخلف خلفها إلا الحطام..

تأوهت بألم:

آآآآه.. كم أنت قاسٍ يا مسعود..

ولكن لم يكن خطأه لقد بنت أحلامها على مشاعر الطفولة والصبا.. وتركتها تكبر وتزدهر ونسجت في مخيلتها منها القصص.. بينما كان هو منشغل بسيفه وطموحاته.. تحب الخيل لأن مسعود يحبها.. أمسكت السيف لأن مسعود يفعل ذلك.. عشقت الغابة لأن مسعود يهيم بها..

«كان خطأك أنت يا نور شاه ولابد وأن ترمميه»

قالتها وهي تمسح دموعها بباطن كفيها ثم همست:

إن حبك يا مسعود مرض وسأشفى منه بإذن الله.

ثم أضافت بتحد:

مهما كان الثمن.

عليها أن تطوع مشاعرها وتجعلها لا تسلك سوى الطريق الذي تختاره لها بعد الآن.. ربما يحتاج الأمر بعض الوقت لتستأصل جذوره من داخل قلبها ولكن يكفيها أن تحاول، ليست واثقة من نجاحها، ولكنها واثقة من أنها ستبذل قصارى جهدها لتنجح..

غسلت وجهها عدة مرات بالماء البارد لتخفف من احمراره وبعد أن بدا طبيعيًا نوعًا ما غادرت غرفتها واتجهت صوب جناح السلطانة فهناك أمور لابد وأن تحسم.. وأشياء غائبة لابد وأن توضح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بخارى..

اجتمع الجميع في ساحة المنزل.. الجواري يتراقصن، والمغنون يصدحون بالغناء وكؤوس الشراب تدور..خدم في كل مكان يقطعون الفاكهة ألوانًا يرصونها بجوار أطباق اللحم والثريد وكؤوس الخمر التي ما إن تفرغ إلا ويملؤونها مرة أخرى دون ملل، بذخ في كل شيء؛ الجميع يريدون الاستمتاع لأقصي درجة وكأنهم في حفلهم الأخير التي سيقبلون بعدها على مجاعة طاحنة، دخل أيوب الحفل متأخرًا فلم يكن في نيته أن يمكث كثيرًا، دار بعينيه سريعًا في الحفل، رأى بهرام ولكنه تجاهله وتجول بعينيه بحثًا عن شيبان فوجده متصدرًا المجلس، اقترب منه يصافحه فرحب به وأجلسه بجواره..

لمحه بهرام فاقترب منه سلم عليه وسأله مباشرة:

أين جاريتك؟

عفوًا؟

قالها أيوب بصرامة شديدة ابتلع بهرام ريقه يداري به خوفه.. لا يدري لماذا كلما نظر أيوب إليه تلك النظرة شعر باضطراب ورجفة داخله رغم أنه يفوقه جسدا وحسبا، حاول أن يبدو قويًّا ولكنه تلعثم وهو يتدارك:

أقصد لماذا لم تأت بها للحفل؟

رمقه أيوب بنظرة قاسية قبل أن يقول بخشونة:

ريحانة ليست للحفلات.

ابتسم بهرام ابتسامة صفراء ثم تركه وابتعد قليلًا ينادي للجارية التي تسقي الحضور ليسر إليها أمرًا ويطلب منها أن تنفذه سريعًا..قرر أيوب ألا يطيل المكوث في الحفل وبالفعل ما هي إلا دقائق قليلة واعتذر من شيبان لكي يعود للمنزل.

هم أن ينصرف ولكن بهرام تبعه إلى الخارج قائلًا:

سيد أيوب.. أتمنى ألا تكون غاضبًا مني.. سامحني لم أكن أعلم أن تلك الجارية تعني لك شيئًا.. تقبل عذري مرة أخرى.

كان بالفعل غاضبًا منه ومن تصرفاته ولكن لم يشأ أن يفتعل خلافًا مع ابن كبير التجار فقال بهدوء:

لا عليك لم تكن هناك مشكلة.

هم أن ينصرف ولكن بهرام أمسك ذراعه وهو يقول:

لقد انصرفت باكرًا من الحفل حتى أنك لم تتناول شراب..

ثم أشار للجارية التي كان قد تحدث إليها منذ قليل فاقتربت تحمل كأسًا واحدًا ناولته إياه:

فشكرها متعللًا باحتياجه للراحة ولكن بهرام تناول منها الكأس وناوله له قائلًا:

لا ترد يدي حتى أعلم أننا قد تصافينا.

ثم أردف يطمئنه:

لا تقلق إنه ليس خمرًا.

تناوله أيوب على مضض ولكنه لم يكد يرتشف منه رشفات قليلة حتى سقط أرضًا.

أشار بهرام لخادمين عنده ليحملاه وهو يقول:

يبدو أن السيد أيوب قد أفرط في الشراب.

قال أحدهما:

هل نحمله إلى بيته يا سيدي؟

نعم.. وسأذهب معكما.. لتطمئن جاريته.

قالها بهرام ثم همس وهو يفتل شاربه:

فهي تحتاج لمن يهتم لأمرها هذه الليلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجمهورية العربية المتحدة..

ظنت نون أن عامر لن ينصفها في تقريره وأنه سيبخس مجهودها بعد المعاملة الخشنة التي يعاملها بها، لذا تفاجأت أن عامر يشيد بذكائها وكفائتها التي أهلتها لاجتياز الشق التقني بنجاح.. كانت نون تنظر إليه مشدوهة عندما تحدث قائلًا:

د/نون لم تحتج مني مجهودًا يذكر في الشق التقني.. ولكنها ما زالت تحتاج بعض التدريبات في الشق البدني.

تساءل حسن مباشرة:

إذن هل تصلح للمهمة؟

جف حلق نون وعلت ضربات قلبها فمصيرها معلق بكلمة ستغادر بعد قليل فم من كان يوبخها ويخبرها أنها لا تصلح سوى للأعمال المكتبية..

ولكنها تنفست الصعداء عندما تحدث عامر بحيادية:

نعم تصلح.. فهي تمتلك قدرًا لا بأس به من المهارات التي قد ترتقي للاحتراف.

رائع.. يسرني آن تتعاملا كفريق واحد.. وتنسيا خلافاتكما.

قالها حسن سريعا وكأنه يخشى أن يرجع عامر عن رأيه ثم أشار بيده لإبراهيم الذي كان يتابع في صمت قائلًا:

تفضل سيد إبراهيم.

عدل د/ إبراهيم نظارته الطبية وفتح دفترًا ورقيًا كان الزمن قد عفى عليه ثم تحدث:

منذ أن بدأت مراسلاتنا السرية مع الأميرة مارا حاكمة كوكب بروكسيما ونحن نبحث عن مواصفات الأميرة المنقذة في التاريخ، بحثت وفريقي جيدًا في أميرات الدولة الأموية بالأندلس والعباسية وجميع الدول المعاصرة للفترة التي حددها فريق الخبراء ولكن لم نجدها حتى تملكنا اليأس.. ولقد كان من الصعب أن نسافر عبر الزمن نختبر كل أميرة.

أخذ نفسه قليلا ثم تابع بفخر وهو يشير لنون:

ولكن تلميذتنا النجيبة نون عثرت على وثيقة في أوراق المكتبةالقديمة لم يلتفت لها أحد حتى ونحن نكتب التاريخ من قبل.

اتجهت الأنظار إلى نون فاندفعت قائلة بحماس وقد تغلبت على جميع أفكارها السلبية السابقة:

لقد كانت فكرة مجنونة نوعًا ما.. ولكنها محاولة كنت أظن أن نسبة نجاحها ضئيلة.. فنحن كنا نبحث في التاريخ السياسي للشعوب.. حيث أن هدفنا كانت أميرة من أسرة حاكمة.. ولكن كانت لدي قناعة أنني سأجد ضالتي في ثرثرة العوام..

أطل تساؤل من عيني عامر فأجابت بنفس حماسها وهي تلتفت إليه:

العوام لا قيود على ثرثرتهم وحكاياتهم يا سيادة الرائد.

تحول وجهها إلى ثلاثتهم مرة أخرى وهي تتابع:

وبما أن الفن هو تاريخ العوام في القرون السابقة فكرت أن أحول وجهة بحثي للفن في تلك الدول.

صمتت لحظات تلتقط أنفاسها وتدع لهم فرصة للفهم ثم تابعت:

أسابيع متواصلة عكفت عليها أنا وفريقي الإليكتروني.

قاطعها عامر:

أسابيع؟

نعم فلم نكن نعلم عما نبحث بالضبط، كنا كمن يتحسس في الظلام.. ثم أن التكنولوجيا مهما بلغت من تقدمها تبقى مشوهة بالقصور..

هز عامر رأسه متفهما فأكمل د/ إبراهيم وهو يبتسم:

لقد تركتنا كما نحن نبحث عن صفات تلك الأميرة وأكملت بحثها سرًا.

أطرقت نون برأسها خجلا قائلة:

كنت أخشى الفشل.

ابتسم الجميع ونظر إليها العميد حسن يشجعها على الاسترسال فتابعت:

لقد كانت أسعد لحظاتي عندما عثرت على المفتاح.

ثم قامت بضغط زر على طاولة الاجتماعات فتحول السطح الأملس أمامهم إلى شاشة عرض توسطتها وثيقة قديمة.

أشارت نون إلى جزء منها فتحول للون الأخضر وهي تقول:

جملة كتبها أحد المؤرخين في القرن الثامن عشر عندما عثر على رسالة من أحد الأطباء إلى زوجته يقص عليها سبب تأخره في العودة إليها..

وذلك لأن الأميرة قد أصابها عطب في رأسها فأصبحت تهذي عن شيء اسمه السفر للمستقبل والعوالم الأخرى.

توقفت نون عن الحديث فأكمل د/إبراهيم:

للأسف الشديد منذ أربعين عامًا عندما أعدنا كتابة التاريخ لم نأخذ هذه الوثيقة مأخذ الجد لأن وسائل المواصلات بين العوالم والزمن لم تكن إلا مجرد تجارب فقط ولقد فسرناها حينها كما فسرها المؤرخون سابقًا أن هذه الرسالة قد كتبها مؤلف واسع الخيال وأدرجت تحت الأدب.

ولكن في الحقيقية نون قد قتلت الأمر بحثًا حتى توصلت إلى فكرة.

توقف برهة ثم أضاف ببطء:

تلك الأميرة قد سافرت للمستقبل بالفعل وعندما عادت وتحدثت عما رأت اتهمها الجميع بالجنون.

شعر عامر بالإحباط؛ كيف لمهمة كبيرة أن تكون مبنية على تلك الفكرة التي يراها من وجه نظره حمقاء؟ نظر إليهما ثم نظر للوثيقة مرة أخرى لمح في طرفها تصنيف «أ» الذي يدل على أن هذه الوثيقة صحيحة تمامًا..

فهم حسن ما يدور برأسه فقال:

ما توصلت له د/ نون ماهو إلا طرف خيط ولكن ما تبقى سيكون مجهودكما سويا يا عامر.

هز عامر ونون رأسيهما فتابع حسن:

ولكن استعدا فلابد وأن تصلا إليها قبل اكتمال القمر.

عقدت نون حاجبيها هذه المرة بتساؤل بينما حملت ملامح عامر الغموض..

كل الغموض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٥-

فرغ السلطان محمود من صلاته وتلاوة ورده القرآني ليجد السلطانة فاطمة قد أعدت له الطعام في جناحهما الخاص..

جلس يتناوله بجوارها وهو يقول مازحًا:

إنني جائع جدًا يا سلطانة.. ما أجمل أن أنهي يومي بطعام من صنع يديك.

ابتسمت ابتسامة حانية وهي تقول:

بالهناء والشفاء يا سلطاني.

كان السلطان يرفع لقمة إلى فمه عندما توقفت يده في الطريق وهو ينظر إلى ملامح السلطانة القلقة حتى أنها لم تشاركه الطعام بعد انتقل القلق إليه هو الآخر فوضع الطعام في صحنه وتحدث:

ما الأمر يا سلطانة؟ ملامحك تشي أن هناك خطبًا ما.

نور شاه.

سألها باهتمام:

ماذا بها؟

لقد طلبت مني أن أساعدها في إقناعك لكي تذهب للعيش في القصر الشرقي.

بدأ الضيق على ملامحه وهو يقول:

تريد أن تعيش وحدها؟ ألم أنهِ معها هذا الأمر من قبل؟

وضحت فاطمة:

نعم.. ولكنها هذه المرة تصر.. وأخبرتني أن آسية وحارسي القصر سيكفياها..

ضرب كفيه ببعضهما ثم قال:

لقد جنت بالفعل.. ولكن هذا الأحمق مسعود يبدو أنه أغضبها كثيرًا..

ثم أضاف بعد برهة:

أخبريها أنني سأنظر في هذا الأمر بعد انتهاء السوق ورحيل القوافل.

هزت السلطانة رأسها ولكنها استمرت في فرك يديها تريد أن تقول شيئًا ولكنها مترددة فقال يستحثها على الحديث:

ماذا هناك يا فاطمة؟ تحدثي.

قالت سريعًا كمن يلقي حملًا من على كتفيه:

لقد فتحت نور شاه الموضوع القديم مرة أخرى.. وهذه المرة يبدو أنها لن تكتفي بالإجابات السابقة..

نظر إليها بتساؤل فأكملت ببطء.

ستبحث بنفسها عن الإجابة.. إن لم تجدها عندي..

واتسعت حدقتا السلطان حينما أكملت:

رأيي يا سلطان أن تعلم كل شيء وتسترد أمانتها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وضعت ريحانة رداءها جانبًا وخلعت نعلها ثم رفعت قدمها اليسري لتزيل قطعة من جلد الماعز المدبوغ التي تغطي به باطن قدمها وببطء تمرر أصابعها على حرق محفور بباطن قدمها كأنه وشم وشم للتو..

تنهدت تنهيدة كبيرة وهي ما تزال تداعب ذاك الوشم قبل أن تترقرق عينيها بالدموع وهي تتذكر كتمانها لتلك الدموع قديمًا..

ولكنها الآن بالقرب من هذه الأراضي تريد أن تصرخ من ألم يمزق روحها.. وحنين دائم لشقها.

سمعت صوت طرقات على الباب فمسحت دموعها بباطن كفيها ووضعت الرقعة الجلدية على عجل ثم ارتدت ملابسها دون أن تنتبه أنها تركت خنجرها بجوار فراشها..

فتحت الباب لتجد أيوب مسنودًا على بهرام الذي قال ما إن رآها:

لقد أثقل في الشرب، لا أظنه يستيقظ قبل الصباح.

نظرت إليه نظرة شك قائلة:

ولكن سيدي لا يشرب.

رد بهرام بارتباك:

أنت لا تعلمين كيف يكون الشباب في الحفلات.

أفسحت له الطريق ليمدده على الأريكة ولكنها لم تنس نظراته لذلك قالت باقتضاب وهي تشير إلى الباب:

شكرًا لك سيد بهرام.. عندما يستيقظ السيد أيوب سأخبره بما فعلت.

ولكن بهرام لم يتحرك قيد أنملة بل ظل يصوب نظراته إليها.. فطنت لمغزى نظراته فتحسست جراب خنجرها لتجده خاليًا فضغطت على أسنانها قبل أن تسأل بهدوء:

هل تريد شيئًا آخر سيد بهرام؟

أجابها بوقاحة وما زالت عيناه تتفحصها:

نعم..

أطل تساؤل من عينيها وعقلها يدرس كيف ستردعه دون أن تفسد الصفقة ولكنه أجاب بوقاحة:

أريدك.

ثم خلع عباءته وهجم عليها ولكنها تفادته ثم كورت يديها وضربته في وجهه.. كان بهرام قوي البنية ولكن الخمر قد أثرت على تماسكه فأسقطته الضربة أرضًا وهو يطلق سبابًا ساخطًا:

كيف تجرؤين أيتها اللعينة سأمزقـــ.....

بتر عبارته بغتة عندما استلت خنجرًا من حزامه ثم وضعته على عنقه قائلة:

ألم يخبرك السيد أيوب ألا تقترب مني؟

حاول أن يزحف متراجعًا ولكنه توقف عندما شعر بنصل خنجره في رقبته فصاح خائفًا:

سأخبر والدي الشيباني لكي يعاقبكما.

زادت من غرس النصل في رقبته فسال خيط رفيع من الدماء وهي تقول:

وأنا سأخبر الجميع أنك قد هُزمت أمام امرأة.. بل أمام جارية.. أظنك ستكون أضحوكة في المجالس لوقت ليس بالقليل..

كانت الدماء الساخنة قد سالت على رقبته فانعقد لسانه للحظات ثم بدأ يترجاها:

أرجوكِ يا ريحانة لننهِ هذا الأمر الآن وأنا أعدك ألا أتعرض لكِ مرة أخرى.

ودت أن تترك له علامة في وجهه تذكره بوعده هذا ولكنها تذكرت تحذير أيوب السابق لها أنهما يجب ألا يفتعلا أية مشاكل مع السيد شيبان، لذلك حررته وهي تسحب سيفه من حزامه ليلملم عباءته وينطلق خارجًا ولكنه رماها بنظرة نارية وهو يقول:

لا تظنين أنك ستفلتين بفعلتك هذه يا جارية.. الأيام دول.

أغلقت ريحانة الباب في وجهه وسالت دموعها رغما عنها وهي تنظر لأيوب قائلة:

حتى أنت يا أيوب قد خذلتني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان ضياء الدين طبيب القصر يقوم بخلط بعض الأعشاب في غرفته عندما دخل عليه مسعود وبعد أن رحب به سأله وهو يوصل عمله:

كيف أصبحت اليوم يا مسعود؟

جلس مسعود على أقرب مقعد قابله وهو يقول متبرمًا:

لست بخير يا ضياء الدين.. لم أنم منذ يومين؛ لقد آذيتها كثيرًا وتفوهت بما لا يصح.

انتظر تعليقًا من ضياء على حديثه ولكن ضياء الدين كان يوصل عمله بتركيز شديد كأنه قد انفصل عن عالمه فلم يتفوه بكلمة..

أما مسعود فقد كان يرغب في البوح بما في قلبه لصديقه ويعلم عادة ضياء الدين عندما يركز في عمله فواصل حديثه وهو ينظر للفراغ حوله:

ما يحيرني ويكاد أن يصيبني بالجنون هو.. إن لم تكن نور شاه هي من أخبرت أبي.. فمن يكون؟

رفع ضياء الدين رأسه إليه وهو يقول ببساطة:

أنا.

سأله مسعود باستنكار وهو يتمنى ألا يكون ما فهمه صحيحًا:

أنت ماذا يا ضياء؟

قال ضياء بنفس البساطة السابقة دون أن يرفع عينيه هذه المرة عن عمله:

أنا من أخبرت السلطان بشأن إصابتك.

هب مسعود من جلسته وتوقف برهة يحاول أن يستوعب تلك الكلمات التي تفوه بها ضياء منذ قليل ولكنه لم يستطع..

فكان رده على هيئة لكمة قوية طرحت ضياء الدين أرضًا وبعثرت القارورة التي كان يهزها فانكسرت وانسكبت محتوياتها قبل أن يواصل مسعود لكمه للمرة الثانية ولكن ضياء تفاداها في اللحظة الأخيرة قبل أن يهب واقفًا ثم يكبله بيديه يحاول تهدئته وهو يقول في أذنه:

اهدأ يا مسعود لنتحدث.. والدك كان يعلم قبل أن أخبره.

توقف مسعود عن مقاومته فحرره ضياء وهو يتابع:

السلطان علم بشأن إصابتك وأنت بالساحة لقد لاحظ طريقة ركوبك للفيل حينها.. وأرسل إلي ليسألني عن حجم إصابتك ولقد أخبرته.

هكذا بهذه البساطة.. أخبرته وأفشيت سري بعد أن وعدتني بكتمانه.

رفع ضياء كفه الأيمن وهو يقول:

لم أعدك بشيء يا مسعود.. أنت طلبت ولكني لم أعدك..

ثم أضاف بلهجة حانية:

إنني قد فعلت هذا خوفًا عليك يا صديقي أولًا.. وحرصًا على سلامة دولتنا ثانيًا..

لم تبد أن تلك الكلمات قد أثرت في مسعود فلقد ظل وجهه مكفهرًا فتابع ضياء يسترضيه:

مسعود أرجوك تصرف كرجل دولة سيكون سلطانًا بعد والده.. لا كطفل متهور كلما رأى لعبة أراد الفوز بها..

شعر مسعود بالإحباط وزاد ضيقه عندما أكمل ضياء الدين:

صدقني يا صديقي.. بحالتك هذه لن تستطيع قيادة الحملة.. وأنا لا أقبل أبدًا أن أعرض دولتنا وحدودها للخطر من أجل إرضائك.

في قرارة نفسه يعترف أن ضياء محقًا فيما يقول.. ولكنه لا يقبله ولا يرضيه..

خاصة وأنه قد أفرغ شحنة غضبه في نور شاه وجلدها بسوط كلامه دون رحمة أو شفقة.. لقد أخطأ في حقها كثيرًا.. وعليه أن يعتذر إليها.. وليتها تقبل، ضياء السبب لأنه لم يخبره، ولكنه لن يرمي خطأه هذه المرة على أحد، عليه أن يصلح ما كسره.. هم أن ينصرف ولكنه لم يمنع نفسه من سؤال ضياء:

ولماذا لم تخبرني حينها يا ضياء؟ لماذا تركتني أتهم نور شاه زورًا؟

أجابه ضياء الدين بنفس بروده السابق بعد أن عاد إلى عمله مرة أخرى:

أنت لم تسأل يا صديقي.. ولم أكن أعلم أنك ستنفجر في وجهها هكذا.

هذه المرة لكمه مسعود لكمة قوية تركت علامة زرقاء في وجهه بعد أن رحل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيسان..

نهبت بيسان الأرض نهبًا بعد أن ثبتت طفلتيها النائمتين على الحصان خلفها تحاول أن تبتعد عن اللصوص قدر إمكانها فهي تعلم أن مفعول العشبة لن يطول وأنهم سيتبعونها عما قريب، رأسها بدأت تدور وغمامة سوداء توشك أن تحط رحالها عندها؛ فرغم أنها حرصت على كتم أنفاسها إلا أن رأسها لم تسلم من تلك الأبخرة، قاومت تلك الغمامة باستماتة يساعدها فزعها من التفكير في مصير طفلتيها إذا سقطت الآن..

كان الظلام قد بدأ يحل فقررت الاختباء، فهي لن تواصل المقاومة طويلًا ولا تتمنى أن تسقط هي وطفلتيها ليلًا على قارعة الطريق..

بحثت عن مكان آمن ووجدت ضالتها في مغارة مهجورة فوضعت طفلتيها فيها وأخفت الحصان بعيدًا عن مكانهم..

ورغم أن الإعياء قد نال منها ومن تركيزها إلا أنها لم تنس أن تخفي آثارها كما علمها إدريس من قبل، عادت لطفلتيها وفي طريقها جمعت بعض الأعشاب لتشعل نارًا تدفئهم بها..

عادت الدماء لوجههما بفعل التدفئة فهدأت قليلًا وبدأت ترتخي بينهما تستجيب لآلام جسدها النفسية والجسدية ولتلك المطارق التي تدق في رأسها، ولكنها هبت فجأة كمن لدغها عقرب وهي تهتف:

القارورة.

فتحت حقيبتها سريعًا وقلبها يدق فزعًا..

ولقد هالها ما رأت وتحول فزعها إلى غصة وبكاء..

لقد كانت القارورة مكسورة والعقار مسكوب في الحقيبة وقد جف تمامًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تناول بهرام كأسًا من الشراب ثم تبعه بآخر وهو يزفر بشدة بعد أن حكي لصديقه ما فعلته به ريحانة وزاد من غضبه ضحك صديقه الذي قال:

لم أكن أتصور أنك ضعيف هكذا يا بهرام.. تهزمك جارية؟

ضحك مرة أخر وهو يقول:

جاااااارية..

تبعثرت الكلمات من فم بهرام فخرجت مهتزة:

لقد كنت متناولًا للخمر.

ثم أضاف يبرر ساخطًا:

لقد فاجأتني تلك الملعونة.

نظر إليه صديقه نظرة ساخرة ثم قال:

وهل ستتركها تنتصر عليك هكذا؟

نفى غاضبًا:

لا..

ثم أضاف وهو يحك رأسه بيده:

ولكن ماذا عساي أن أفعل؟ سيسافرون في الصباح.

مال على أذنه وهو يقول:

سأخبرك ماذا تفعل؟ ولكن عليك أن تسافر معهم إلى غزنة أولًا.

ألقى بهرام الكأس الذي في يده وهو يقول:

لا تمازحني يا مأمون.. أنت تعلم أنني لا أطيق هذه القوافل ولا الأعمال التجارية التي يريد أبي أن يورثني إياها.

أعلم هذا.. ولكن عليك أن تقنعه بسفرك وسفري أيضًا.

قال بهرام وهو يشيح بيده:

أنت تهذي يا مأمون.. لن يقبل والدي أبدًا..

تحدث مأمون بعد أن ارتشف رشفة من كأسه:

لابد وأن يوافق فلو سافرنا مع القافلة ستكون ريحانة من نصيبك لتنتقم منها.. وأيوب من نصيب السلطان ليعدمه..

توقف برهة ثم أضاف بشراهة وهو يشير إلى صدره:

وأموالهما من نصيبي لأستمتع بها.. وهذا شرطي الوحيد لأدلك على الخطة.

صب بهرام كأسًا آخر وهو يقول بعد دقيقة من التفكير:

موافق يا مأمون ولكن أخبرني كيف ذلك؟

اقترب منه مأمون أكثر وهو يميل عليه كمن سيفشي سرًا حربيًا:

سأخبرك.

وبرقت أعينهما بنظرة شيطانية فخطة مأمون كانت محكمة حد الموت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الأميرة نور تقوم بتدريباتها اليومية في ساحة القصر الخلفية عندما اقتربت منها جاريتها الخاصة آسية قائلة:

مولاتي لقد أرسل السلطان محمود رسولًا يخبرك أن القافلة القادمة من بخارى ستأتي بعد يومين.. لكي تستعدي.

زمت شفتيها وهي تشعر بالضيق؛ فمعنى أن يبلغها بالقافلة أنه قد رفض رحيلها.. ولكنها لن تيأس ستذهب للسلطانة تستفسر منها.. أشارت للجارية:

حسنًا يا آسية.. اذهبي الآن..

ثم وضعت قوسها في حقيبتها وعلقت سيفها لتغادر ساحة التدريب إلى وجهتها ولكن عينيها الغاضبتين اصطدمت بمسعود عاقدًا ذراعيه أمام صدره مستندًا على شجرة بلوط كبيرة يبدو من هيئته أنه كان يتابعها صامتًا منذ وقت ليس بالقليل..

أشاحت بوجهها للجهة الأخرى ثم تابعت جمع محتويات حقيبتها بعصبية فاقترب منها مسعود ليسألها:

نور.. كيف حالك؟

وضعت يديها في خصرها وهي تقول بغضب:

ما الذي أتى بك إلى ساحة تدريبي؟

شعر مسعود بالضيق فلم يكن يتوقع منها تلك المعاملة الجافة بعد أيام مما دار بينهما ولكنه كتم هذا داخله وهو يقول بابتسامة:

جئت لأدربك كما أمرني السلطان يا نور.

رفعت رأسها شموخًا وهي تقول بكبرياء:

ولكني لا أريدك..

همت أن تتصرف ولكنه استوقفها ممسكًا بذراعها وهو يقول:

نور أرجوكِ اسمعيني.

نظرت باستنكار إلى يديه فسحبها وهو يقول:

عذرًا.

أطلقت ضحكة متهكمة تخفي بها حزنها دون أن تتحرك ولكنه لم يهتم لتهكمها وذبح حزنها صدره فقال بصوت خرج منه مهتزًا:

نور أنا آسف.. لقد تماديت كثيرًا هذه المرة.

ورغم أن هذه هي المرة الأولى التي يعتذر فيها مسعود لها إلا أنها لم تجد السعادة في قلبها بل ظلت كلماته السابقة تنساب في أذنها فتحرق داخلها..

كادت أن تبكي ولكنها أشاحت بوجهها للجهة الأخرى ثم قالت بعد أن تماسكت وبكبرياء أقل من سابقه:

على ماذا تعتذر يا سيد مسعود؟ أنت لم تتفوه سوى بالحقيقة.. هذا القصر لا يربطني به سوى السلطان..

ثم أضافت بتهكم وبنفس منكسرة:

بل إنني محسوبة على السلطان ولست منه.. ولكن لا تقلق سأرحل عن هذا القصر عما قريب.

عقد حاجبيه وهو يسألها:

نور ما هذا الهراء؟ ترحلين إلى أين؟

ردت وهي ترفع إحدى حاجبيها بعد أن استعادت غضبها منه:

ليس هذا من شأنك.

صاح بها:

نووووور.. لا تختبري صبري.

صاحت به هي الأخرى:

بل أنت الذي يجب أن تعلم أن صبري قد نفد.. ولن أسمح لك مرة أخرى أن تحاسبني.. أو حتى ترفع صوتك عندما تحدثني.

ثم حملت حقيبتها ورحلت إلى القصر يتابعها هو بعينيه يعض أنامل الندم متيقنًا أنه قد أخطأ في حق نفسه وحقها خطأ لا يمكن غفرانه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظ أيوب فزعًا عندما سكبت ريحانة عليه دلوًا من الماء وصاح ساخطًا:

ماذا تفعلين يا ريحانة.. خسئت.

قالت بتهكم:

ستفوتك القافلة.. كما فاتتك صلاة الفجر بالمسجد.

جلس فزعًا وهو يقول:

هل أذن الفجر؟ ولماذا لم توقظيني؟

قلبت كفيها وهي تقول:

لقد فعلت ولكن يبدو أنك قد أسرفت في الشراب بالأمس.

انتبه إلى جملتها الأخيرة وإلى الصداع الذي يهاجم مؤخرة رأسه فتحسسها وهو يقول حائرًا:

أنا لم أشرب شيئًا.

لقد جاء بك بهرام محمولًا على الأعناق.

فكر قليلا ثم صاح غاضبًا وهو يعتدل في جلسته:

بهرام اللعين لقد وضع لي شيئًا في كوب العصير الذي تناولته.. لابد وأنه كان يخطط لشيء..

ثم هب واقفًا وهو يكمل باهتمام حقيقي:

هل تعرض لكِ؟ هل آذاكِ؟

لم تشأ ريحانة أن تعقد الأمور فالقافلة ستسير بعد قليل لذلك قبضت على خنجرها قائلة:

لن يستطيع.

ثم أضافت مؤكدة:

دعه يحاول وسيتلقى عقابه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يستغرق بهرام الكثير من الوقت لإقناع أبيه بأنه سيسافر معه بداعي أنه قد تغير وقرر تحمل المسئولية وتعلم التجارة منه ولأن هذه رغبة شيبان فلم يعترض بل رحب بالأمر وأثنى على ولده كثيرًا ولكنه اعترض على سفر مأمون ثم رضخ في نهاية الأمر عندما أخبره بهرام صراحة أنه لن يسافر دونه.

وانطلقت القافلة باتجاه غزنة..

تحمل بهرام وصديقه بخطتهم الشيطانية..

وريحانة بقلب ينزف كلما اقتربت من طريق القوافل..

وأيوب يريد أن يتمم الصفقة ويعود بريحانة سالمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيسان..

أمسكت بضع قطرات تبقت من العقار في الزجاجة المكسورة وجلست تندب حظها، فهي تعلم أن حتى القطرات المتبقية لن تستطيع أن تحتفظ بها فإنها تجف بعد قليل من تعرضها للهواء، خاضت مغامرة غير محسوبة العواقب وها هي الآن تائهة في الطريق بطفلتيها، مطاردة من لصوص لن يترددوا في قتلهن، والعقار الذي فعلت كل هذا من أجله قد ضاع منها..

كانت تتمنى أن يكون لتعريض حياتها وحياة أطفالها ثمنًا.. كانت تتمنى إنقاذ العقار.. وأن تصل إلى ماهيته..

كانت تتمنى أن تخرج أبحاثها للنور ليستفيد منها العالم أجمع.. ولكنها فشلت.. فأصبحت كمن ركبت موجة عارمة فالتهمتها حد الغرق.. عجزت عن التفكير، فقط دموعها هي التي تتحدث تخبرها أنه قد أغلقت أمامها نوافذ الأمل.. وزج بها في منافي من اليأس.. فلا منقذ ولا حبيب..

ولكنه ظهر أمامها ليقول بحنانه المعهود:

بيسان حبيبتي.. لا تستسلمي.

أنت لا تدري يا إدريس ماذا فعلت بزهرتيك.

أنا أعلم أنك لم تفعلي هذا إلا لأمر عظيم.. فأتميه ولا تنهاري في وسط الطريق..

لقد ضاااع كل شيء يا إدريس.. انسكب العقار وانتهى كل شيء قبل أن يبدأ..

اقترب منها ليضع يده على يديها الممسكة بالقارورة قائلًا بهمس:

لا يا حبيبتي العقار لم ينسكب كله..

حولت نظراتها بين القطرات المتبقية وبين إدريس الواقف أمامها ثم تحدثت بحيرة:

وماذا تفعل تلك القطرات؟ لن أستطيع الاحتفاظ بها كثيرًا.. ستجف بعد قليل..

لا أعلم يا بيسان.. ولكنك أكثر من يستطع الاحتفاظ بهذا العقار لأطول فترة ممكنة.. فقط فكري وأنت خارج المشكلة.. ما الشيء الوحيد الذي لا يجف العقار عند مخالطته له؟

اتسعت حدقتا عينيها وتحدثت بذهول:

تقصد!!!!!.

هز رأسه بالإيجاب دون أن يتحدث.نظرت لطفلتيها النائمتين فزعة ثم حولت وجهها إلى حيث يقف إدريس لتوبخه ولكنها لم تجده.. لقد رحل طيفه وترك لها الحل قبل أن يرحل.. هذا الحل الذي أدمى قلبها ومزقه إربًا.. ولكنه الحل الوحيد الذي سيضمن لها المحافظة على طفلتيها أولًا والعقار ثانية.. وتحت أنظار القمر المكتمل بدرًا الذي تخللت أشعته من ثقب في مغارتها لتقف شاهدة على ما تفعل..

سخنت بيسان خاتمها ذا النقش المدبب حتى احمرّ ثم صبت عليه بضع قطرات من بقايا القارورة الفضية.. كانت تبتلع ريقها بصعوبة ودموعها تسبقها بغزارة وبارتجافة شديدة حاولت أن تمسك قدم طفلتها الكبرى ولقد نجحت بعد عدة محاولات أن تسيطر على ألم قلبها وتشيح بوجهها للجهة الأخرى ثم تكوي باطن قدمها وفعلت مع الصغرى كما فعلت مع أختها ورغم أنهما لم تشعرا بشيء إلا أن أنين قلبها كان لا يطاق فانهمرت في بكاء هستيري تحتضنهما وهي تردد:

سامحاني يا زهرتي..

قبلت قدم إحداهما وهي تقول:

سامحيني يا ريحانة..

وقبلت قدم الأخرى وهي تهمس:

سامحيني يا ريانة.

زادت دموعها حتى أنها أعمت عينيها فلم تدرك أن العقار عندما كوت باطن طفلتها الكبرى كان أزرق وعندما كوت الصغرى تحول للون الأحمر القاني..

أو أنها أدركت ولكنها لا تعلم معنى هذا..

لا تعلم معناه على الإطلاق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٦-

جوارٍ متباينة... حيوانات متناثرة... أنواع كثيرة من الأقمشة والبضائع يفيض بها سوق غزنة الكبير الذي يغص بالرجال والنساء والصبية... تزاحم شديد... وتناطح كثير.. أصوات متداخلة وجلبة يحدثها البائعين وضوضاء الزبائن تحدث رجرجة يظن من يسمعها أنها لن تهدأ أبدًا. تخف وطأتها قرب غروب الشمس ثم تنتهي ويعم السكون آناء الليل لتبدأ في مكان آخر حفلات السمر واللهو..

لم يهتم أيوب بكل هذا، أراد الذهاب للقصر في اليوم الأول ولكن شيبان نصحه قائلًا:

لا تتعجل في التخلص من بضاعتك فيرتاب أحد في أمرك، انتظر حتى الغد.

قضى أيوب ليلته يترقب الصباح لا يدري لماذا يشعر بانقباض في صدره؟ إنه القلق الذي ينهش داخله من بقائهما مدة طويلة في غزنة.. كانت ريحانة توليه ظهرها تخلع نعليها ببطء تتحسس باطن قدمها كعادتها دائمًا كلما اقترب القمر من تمامه.. رفع رأسه للسماء يستعلم منه ليجده ما زال أحدبًا... تمنى أن يعلم ماذا تخفي ريحانة تحت القطعة الجلدية التي لا تنزعها أبدًا عن قدمها..

ولكنها لن تفصح ولن تبوح... لقد حاول معها مرات كثيرة وكان الصمت جوابها.. تذكر أول مرة رآها فيها كان بصحبة أبيه في سوق الجواري عندما لمحها طفلة صغيرة بائسة الوجه... متسخة الثياب... دموعها متحجرة في مقلتيها... مستسلمة لرباط يديها الذي يمتد لعمود الخيمة كجرو ضعيف، حزنها قسم قلبه ومزقه.. ذهب لوالده الذي كان يتفاوض مع التاجر لشراء عبد قوي يساعده في أعماله الخاصة..

قال له أيوب وهو يشير لريحانة:

أبي أريد شراء تلك الجارية.

نفر والده منها وتحدث وهو يلتفت للجهة الأخرى يكمل فصاله مع التاجر:

ولكنها طفلة يا أيوب لن تفيدنا في شيء.

لف أيوب للجهة المقابلة يلح وهو يجذب ملابسه:

أبي أريدها بدلًا من الملابس الجديدة التي كنت ستشتريها لي.. ثم إنها ستساعد أمي في أعمال المنزل.

كان التاجر يتابع حديثهما في صمت ووجدها فرصة جيدة للتخلص من تلك الفتاة التي تتمرد دائمًا وتحاول الهرب فقال يغريه:

تلك الفتاة زهيدة الثمن لن تكلفك سوى خمسة دنانير فقط يا سيدي..

ولقد كان الثمن بخسًا حد أنه لا يكفي لشراء ثوب من ثياب ولده فلذلك حسم أمره واشتراها:

فك أيوب وثاقها وهو يقول:

ما اسمك؟

ريحانة

اسمك جميل يا ريحانة.

ولم تحاول ريحانة الهرب بعدها ولكن عند اكتمال القمر كانت تبكي وبشدة كمن فقدت عزيز للتو وعندها حاولت الهرب تذوقت العقاب لأول مرة ببيت سيدها الجديد. ثلاثة أيام مربوطة في السرايا ممنوعة من الطعام..ومع كل اكتمال للقمر كانت تكرر محاولة الهروب وتنال من العقاب ألوانًا.. ومع كل سوط ينال من ظهرها كان أيوب يتألم وكانت ترفض أن تخبره لماذا تحاول الهرب؟ ولماذا دومًا عند اكتمال القمر؟ وبعد خروجها من عقاب جديد فكر أيوب في طريقة لنجدتها، هداه عقله إلى أنها ربما ستكون بأمان مع عمه منصور الذي كان قد بدأ تجارة الصقور منذ أسابيع قليلة.. كان منصور جالسًا في بهو البيت عندما جاءه أيوب مهرولًا:

عمي أريدك أن ترى كيف سأفوز على ريحانة في رمي السهام.

قهقه منصور ثم قال له مجاملًا:

أعلم أنك ستفوز يا أيوب.. أنت رامي سهام رائع يا فتى.

لا يا عمي ستحكم بيننا.

ما زال أيوب به حتى قام صاغرًا يتابعه وهو يرمي، كان يتابع برتابة وأيوب يرمي يحفزه بعبارات تشجعية من آن لآخر ولكن ما إن أمسكت ريحانة القوس إلا وتحول تشجيعه للطفلة إلى انبهار تام..

إنها تقارب الكبار في رميها! موهوبة بحق.. مجهود قليل وبعض التدريبات وستكون صائدة صقوره الأميز.. لم يستغرق الكثير من الوقت حتى قرر شراءها..

ولكن آماله كلها خابت، وأمانيه كلها طاشت.. الجارية لا تستجيب لأي مهارة إضافية في الرمي.. وكأن عقلها الصغير قد فقد الرغبة في التعلم والتدرب..

وما زاد الطين بلة أنها حاولت الهرب عند تمام البدر مما جعل منصور يدرك أنها تعاني مشكلة نفسية، مشكلة إذا استطاع حلها سيجني الذهب من خلفها.. إنها تتوق للحرية..

قرر أن يعقد معها صفقة وجدها كلا الطرفين رابحة..

تصطاد ريحانة الصقور لمنصور لمدة خمسة عشر عامًا ثم تكون بعدها حرة تفعل ما تشاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح ترك أيوب ريحانة في خيمة الشيباني تجاور بضاعته وتحرك في أنحاء غزنة يريد أن ينهي الصفقة على خير وفي أسرع وقت ممكن..

وصل القصر وعلى بابه أوقفه الحراس المدججين بالأسلحة شاهرينها في وجهه وأحدهم يقول بغلظة:

من أنت؟

أجاب أيوب بثبات:

أنا تاجر جئت ببضاعة أوصى بها الأمير مسعود.

تساءل الحارس بعجرفة وهو يرمق الصندوق خلفه بنظرة استخفاف:

أي بضاعة تلك؟

شعر أيوب بالضيق من طريقته فأجاب بعجرفة تضاهيه:

ليس هذا من شأنك..

ثم أضاف وهو يشير للداخل:

هل ستبلغه بقدومي؟ أم أعود من حيث أتيت؟

جز الحارس على أسنانه وهو يقول بغيظ مكتوم:

ولكن الأمير مسعود ليس بالقصر الآن.

حول أيوب وجهته وهو يقول:

حسنًا أخبره أن بضاعته التي ينتظرها سيجدها في خيمة الشيباني.. إن شاء حضر وإن شاء أرسل لي لأحضرها له.

وانطلق إلى خيمة الشيباني ينتظر الأمير مسعود.. وفي الطريق أصبحت الأفكار تتلاعب برأسه.. ماذا لو صرف الأمير رأيه عن الصفقة؟ ماذا لو اكتشف أنهما من خوارزم؟

كان قد وصل إلى الخيمة فلمحته ريحانة وقد أخذ القلق من وجهه فاقتربت منه تستفسر عما حدث فشرح لها في كلمات مقتضبه ما حدث ولأنها تفهمه جيدًا وتعلم حجم القلق الذي بداخله أرادت أن تطمئنه:

أيوب.. لا تقلق قد يكون السلطان حازمًا قويًا مع خصومه ومعارضيه.. ولكني علمت أنه لا يظلم أبدًا، اطمأن.. ما يريده الله سيكون.

رد سريعًا:

لن أطمأن إلا عندما... تعـ

كاد أن يقول تعودين سالمة ولكنه عدل جملته في اللحظة الأخيرة قائلًا:

عندما نبيع الصقور ونعود بثمنها لعمي.

ثم تركها وانصرف ينشغل ببضاعة شيبان علها تلهيه عما في رأسه ولكنه بقي حبيس معاناته وإن كان يظهر غير ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتهت نون من الكتاب الذي تقرأه لجدها « حبيب « فتحدث بروح شاب ثلاثيني قائلًا:

أعشق التاريخ بصوتك يا نون.. تذكرني نبراته بدفء حديث جدتك.

قهقهت نون ثم عقدت حاجبيها متصنعة الغضب وهي تقول:

مممممممممم.. حسنًا يا جدي... لقد كشفت عن نفسك.. أنت تجعلني أقرأ لك كل يوم لتتذكر حبيبة القلب.. وأنا التي خلت أن صوتي مميزًا حتى أنني فكرت في تقديم برنامج هوائي..

ضحك على طريقتها ثم أضاف:

جدتك الأصل يا نون.. ولكنك فرع كما الأصل.. فرع يستحق أن يحمل ميراث القلب.

أتعلم يا جدي يقتلني الفضول يوم بعد يوم لأعرف ما هو ميراث القلب هذا.. إنك تتحدث دومًا عنه.. أما آن الآوان لأعرفه؟

تجاهل حديثها وقال وهو ينظر إليها:

سأفتقدك يا بنيتي.. سأفتقد صوتك وروحك حولي..

ورغم علمها أنه يريد تغيير الموضوع إلا أنها تأثرت فقالت وهي تقاوم دمعة حنين كادت أن تغلبها:

وأنا أيضًا يا جدي.. سأفتقدك كثيرًا.. سأفتقد الحكايا معك.. سأفتقد حبك لجدتي في حديثك.. ولكن عزائي أني أؤدي واجبي.

تنهدت وابتلعت ريقها قبل أن تضيف بروح مرحة مشيرة لإنسان آلي يقف صامتًا في نهاية الردهة:

سيتدبر جوكي أمرك.

ثم غمزت بطرف عينيها متابعة:

لا تقلق سيقرأ ما يحلو لك حتى أعود.

قطب حبيب جبينه متحدثًا بضيق وهو يلوح بيده:

لا يوجد في العالم من يعوض بهاء صوتك يا صغيرتي.

ثم أضاف بجدية:

صوتك غير قابل للتقليد.. مهما حاول هؤلاء الآليون سيظل يخرج بلا روح أو حياة.

قال جملته الأخيرة وهو يشير لجوكي فابتسمت بعرفان ثم اعتدلت في جلستها وهي تقول بجدية:

جدي لماذا رفضت أن أخبر القيادة أنك من وجدت المفتاح الذي دلنا على الأميرة؟

صمت لثوان ثم تحدث:

نون لقد كان هذا مجهودك... أنت من قرأت لي هذه الفقرة منذ سنوات.. أنا فقط ذكرتك بها.. لكل منا دوره.

نظرت إليه بعدم تصديق فتابع:

ثم أنني لا أحب أن أختلط بالناس منذ الحادثة.

قالها وهو يمسك جانبي الكرسي المتحرك الذي يجلس عليه.فركت نون يديها وقالت بعد تردد:

جدي..

نعم.

هل من الممكن أن تحكي لي عن تلك الحادثة؟

نظر إليها صامتًا فتابعت بخفوت:

أنا لا أعلم عنها سوى أن والداي قد ماتا فيها وأصبحت أنت قعيدًا.

بدا لها أنه لن يتحدث أبدًا حتى أنها شعرت بالإحباط ككل مرة تسأله فيها ولكنه قال بعد دقيقة كاملة:

عندما تعودين من مهمتك ستعرفين كل شيء يا صغيرتي.. لن أتأخر عليك أكثر من هذا.. ولكن الآن لابد وأن أذهب للنوم.. وكذلك أنتِ فأمامك يوم شاق غدًا.

تعانقا كفيها قبل أن تضمهما إلى صدرها وهي تهمس:

أنا خائفة يا جدي.. تتأرجح مشاعري كثيرًا بين الرهبة والحماسة ولا أدري أيهما ستنتصر.

ربت على يديها وهو يقول بحنان شديد:

لا تقلقي يا بنيتي.. ستنجحين بإذن الله..أنا أثق بكِ.

نظرت إليه بامتنان ثم ساعدته في الذهاب لغرفته، طبعت قبله رقيقة على يده قبل أن تطبع مثلها على رأسه الخالية من الشعر... توقفت عيناها عند حفر صغير فوق أذنه خط متعرج ينتهي بوشم يشبه زهرة برية تستقر خلف أذنه تظن أن له علاقة وثيقة بالحادثة، يقتلها الفضول دومًا لمعرفة كنهه ولكنها تشبثت هذه المرة بالصمت واكتفت بوعده لها أنه سيقص عليها كل شيء عند عودتها.

وبعد أن اطمأنت أنه خلد للنوم تركته وذهبت لغرفتها، انتظر الجد قليلًا بعد ذهابها ثم فتح عينيه وجلس في فراشه ومد يده إلى درج بجواره، أخرج منه علبة مخملية الشكل، فتحها يلقي نظرة مشبعة بالحنين على خاتم عتيق يقبع بداخلها..

خاتم ذي زخرفة مميزة..

زخرفة مدببة تعود لأميرة من أميرات الدولة العباسية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظل أيوب ينتظر الأمير مسعود على أحر من الجمر، وبعد الظهيرة حضر مسعود وحارساه ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يقابل فيها الشيباني لذلك صافحه بحرارة ثم صافح أيوب وهو يسأله:

مرحبًا بك سيد أيوب.. سمعت أنك قد أحضرت البضاعة التي طلبتها من الشيباني.

نعم يا مولاي.. صقران تختار منهما ما تشاء.

ابتسم مسعود وقال بحماس:

حسنًا أرني إياهما..

ثم أردف يحفزه:

إذا كانا كما أتمنى فلن أتردد في منحك ما تريد أبدًا.

ضحك شيبان ضحكة متقطعة سمجة وهو يقول لريحانة التي كانت تتابع حديثهم في صمت:

ارفعي الحجاب عن صقريك يا ريحانة.

نظرت ريحانة إلى أيوب فأشار إليها بطرف عينيه فاستجابت على الفور وأخرجت الصقر الأول فوقف متشبثًا بذراعها ليقف مسعود مبهوتًا، ثبتت عيناه في محجريهما مأخوذًا من طوله الشاهق وجماله الرائع ثم تمتم مبهورًا:

سبحان من أبدع.

مد يده يتناوله منها ثم يتحسسه ببطء وسعادة كطفل يجد ضالته بعد طول عناء..

ولكن ما إن رفع عنق الصقر ونظر لمنقاره إلا وقال:

صقر فارسي حر؟!

تابع شيبان ابتسامته السمجة وهو يقول:

نعم إنه من أفضل الأنواع وأجودها على الإطلاق يا سيدي.

بينما تبادل أيوب وريحانة نظرة حذرة دون أن يعلقا فسألهما مسعود وهو يتفحصهما:

لم تخبراني من أي البلدان أنتما؟

تبادل ثلاثتهم نظرة قلقة لم تخف أبدًا على مسعود الذي كان يواصل محاصرتهما بنظراته المتوجسة يحدق فيهما يحاول أن يفتش عن أسرارهما..

لم تكن ريحانة تتوقع أن يسألها مثل هذا السؤال لذلك انعقد لسانها فإن تفوهت فلن تجيب بغير الصدق.. ورغم يقينها أن السلطان لا يظلم كما سمعت إلا أن ابنه الواقف أمامهم لا يبدو هينًا..

بينما انعقد حاجبا أيوب ومد يده إلى سيفه يتشبث بمقبضه تحسبًا لما هو آت.. احتمال وحيد برز أمامه ستفشل الصفقة قبل أن تبدأ ولكن ليت الأمر ينتهي عند هذا ولكن الأسواء هو أن يعرف الأمير كل شيء ولا يترك لهما فرصة للتوضيح.

صمت الجميع، امتلأ المكان بنظراتهم المترقبة وأنفاسهم الثقيلة التي ظنوا أنها أوقفت الضجيج من حولهم كل منهم يدور في فلك أفكاره

لحظات صمت بدت طويلة رغم قصرها قطعها شيبان قائلًا بابتسامة مرتبكة:

إنهما من قرية بجوار بخارى يا مولاي.

ابتسم مسعود ابتسامة ساخرة لم تستغرق ثوانٍ قليلة على فمه ثم تحدث:

أمر غريب.. لقد تخيلت أنكما من خوارزم فأنا أعلم أن أفضل صائدي الصقور على وجه البسيطة في خوارزم..

أجاب أيوب هذه المرة بهدوء حذر:

أنت تعلم يا مولاي أن هذه الحرفة قد انتشرت كثيرًا وتعلمها الجميع.

هز مسعود رأسه وهو يقول وما زالت عيناه مركزة عليه يسبر أغباره:

نعم.. نعم.

لاذ الجميع بالصمت بعد قوله قبل أن يتحدث مسعود وهو ينظر لريحانة هذه المرة:

أين الصقر الآخر.

كشفت ريحانة الصندوق الثاني لتخرج منه صقر شاهين لا يقل بهاءً عن الصقر السابق.. ودون أن يمسكه في يده قال مسعود:

حسنًا يا سيد أيوب.. سأشتريهما..

ودون أن يدخل معه في نقاش ناوله القطع الذهبية التي يريدها.. ثم انصرف..

ورغم أن القطع الذهبية بين يده تنبئه أن الصفقة التي خشي من فشلها قد تمت بنجاح باهر إلا أن القلق زاد بداخل أيوب فهو يدرك أنهما ما زالا في فوهة الخطر..

بعد أن ابتعد مسعود بقليل مال على خادمه قائلًا:

يعقوب.. أريد أن أعرف حقيقة هاذين الشخصين.. لا تجعلهما يغيبان عن ناظريك أبدًا.

أطاعه الخادم قائلًا:

بأمرك يا مولاي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت نور شاه تتمشى بموكبها في السوق تشتري بعض الأقمشة والمنسوجات عندما لمحت فتاة قوية البنية تقف وفوق يديها صقر بجوار مسعود الذي يبدو سعيدًا حد البلاهة في رأيها.. همست نور لجاريتها التي كانت تجاورها:

آسية.. من هذه الفتاة التي تمسك الصقر؟

أجابت وهي تقلب شفتيها:

لا أعلم يا مولاتي.. قليل من الوقت وآتي لك بالخبر اليقين.

هزت نور شاه رأسها علامة الموفقة فتركتها آسية ورحلت وتظاهرت نور بالانشغال بينما كانت ترمي نظراتها التي اشتعلت بالغيرة نحوهما من آن لآخر حتى شاهدت مسعود يغادر.. لم تنتظر بعدها كثيرًا فقد عادت آسية ثم مالت عليها قائلة:

إنها صائدة صقور يا مولاتي تدعى ريحانة.

مممممم صائدة صقور.

فكرت لحظات ثم قالت باهتمام:

اسمعي.. هل تستطيعين إحضارها لي في القصر اليوم.. أريد الحديث معها في أمر هام.

من السهل إحضارها لك هنا يا سيدتي.

لا.. أفضل ألا يعلم مسعود بما سأطلبه منها.

قالت آسية بحيرة:

لقد رحل مولاي الأمير يا مولاتي.

أشارت بطرف عينيها إلى بقعة بعيدة ثم همست:

ولكن عيونه لم ترحل يا آسية.

نظرت آسية ببطء إلى حيث تشير سيدتها لتجد يعقوب يقف متظاهرا بشراء ثياب من دكان مقابل بينما عينية مركزة على خيمة الشيباني وفرشته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقعت أن تكون أكثر تماسكًا فهذا حلمها الذي سعت له، ولكنها منذ بداية يومها وهي مضطربة قلقة ربما لأنها المرة الأولى التي ستسافر عبر الأزمان.. ربما لأن وداعها لجدها كان يفوق قدرتها على الاحتمال..

دموعه لم تكن دموع شخص يفارق عزيز لأيام.. لقد كان يبكي كمن لن يراها ثانية.. ولقد انتقلت عدوى أنينه إلى قلبها فأصبحت هكذا..

ورغم حرصها على أن تخفي مشاعرها داخلها إلا أن عامر قد لاحظ ذلك فمنحها ابتسامة يطمئنها وهز رأسه دون أن يتفوه بكلمة فبادلته مثلها ثم أخذت نفسًا عميقًا تهدئ نفسها قبل أن تستمع مع عامر إلى الخبير الذي قال بروتينيته المعهودة وهو يشير إلي كبسولة دائرية الشكل ذات باب بيضاوي ذو إطار أنيق به تجويف يحتوي قبضة اليد الواحدة وضع قبضته به لتنفتح بوابة الكبسولة بسلاسة:

هذه الكبسولة هي الأعظم في اختراعاتنا الحديثة تستطيع السفر عبر الزمن والأكوان أيضًا.. لقد تدربتما عليها كثيرًا.. وتدربتما على البرنامج الاحتياطي.

كانت نون أول مرة تسمع عن البرنامج الاحتياطي لذلك نظرت إلى عامر متسائلة فجاوبها العميد حسن:

البرنامج الاحتياطي يا نون هو أن تسافرا مباشرة بالأميرة إلى كوكب بروكسيما سيكون الحل عند تأزم الظروف ونفاد الوقت منكما.. ولكنني أظن أنكما لن تلجئا إليه.. فالأميرة تحتاج لفحوصات هامة.

همت أن تعترض ولكنه رفع كف يده وهو يكمل:

عامر يعرفه سابقًا.. الوقت قصير فلم نستطع تدريبك عليه.. عموما المركبة مبرمجة علية ما عليكما إلا ضغطة واحدة.

هزت رأسها متفهمة فتحدث الخبير مرة أخرى وهو يناولهما حقيبة صغيرة فتحها عامر فأشار الخبير لزجاجتين تستقران في يمين الحقيبة قائلًا:

هذه الحقيبة تحتوي على عقار العودة لكما وللأميرة ومعه زجاجة احتياطية..

ثم أضاف وهو يشير إلى جهاز بحجم الكف:

وأيضا جهاز الاختبار الأولي للأميرة.. ولا تنسيا أن العقار ينشط في دمائها عند اكتمال القمر.. نقطتين من دمائها على فوهته ستحسم الأمر.. إذا كانت الأميرة ستحضرانها علي الفور فسيكون أمامكما ثلاث ساعات فقط.. وإلا ستعودان أدراجكما دون أن ينتبه لأمركما أحد.

صمت الخبير ليتحدث العميد حسن بحنو قائلًا:

أتمنى لكما التوفيق يا شباب.. هيا بنا.. على بركة الله.

تبادلت نون نظرة قلقة مع عامر وهما يدخلان غرفة التعقيم قبل أن يرتديا ملابس السفر عبر الزمن.. لم تسترخ إلا عندما تسلل إلى عروقها عقارًا منومًا ذهبت على إثره في سبات عميق.. ساعة كاملة استغرقتها عملية التعقيم التي كانت تتم بإشراف آلي تمامًا.. ارتدى عامر ونون بزتيهما ووقفا للحظات ينظران إلى عالمهما يتمنيا من قلبيهما أن تنجح مهمتهما ويعودا سالمين بأميرتهما.. ثوان قليلة ودلفا إلى الداخل ينطلقا في رحلتهما إلى حيث الإشارة.

إلى مدينة غزنة قاصدين قصر السلطان محمود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رغم ما بينهما من خلاف على إثر مشكلة الإصابة الأخيرة إلا أن ضياء الدين يبقى هو صندوق أسرار مسعود لا يأتمن غيره ولا يبوح لسواه لذلك ذهب إليه يقص عليه ما حدث في السوق فقال ضياء بعد تفكير:

وهل تشك في أنهما يكذبان يا مسعود؟

أكد وهو يومئ برأسه:

نعم.

ولكن ضياء أشاح بيده قائلًا:

أنت تغالي في شكوكك يا مسعود دائمًا.

حرك رأسه نافيًا:

لا يا ضياء.. اسمعني جيدًا.. هذا الصقر تم تقليم منقاره حديثًا..

لم يفهم ضياء الدين ماذا يريد أن يقول مسعود لذلك ظل على صمته فتابع مسعود:

نحن الآن في الشتاء يا ضياء.. أفهمت؟

مط ضياء الدين شفتيه قبل أن يحرك رأسه نافيًا ثم تساءل في حيرة حقيقية:

وماذا يعني هذا؟

وقبل أن يجيبه مسعود قال بنفاد صبر:

أنا طبيب ولست محاربًا لا أفهم شيئًا مما تلمح به.. اشرح بالتفصيل يا صديقي..

قال جملته الأخيرة وهو يضم أصابع يده في وضعية العنقود ويحركهم من أعلى لأسفل بهدوء.. فابتسم مسعود ثم شرح:

الصقر الفارسي الحر لا يحلق في الشتاء في سماء بخارى أبدًا.. بل في خوارزم.. وهذا صقر تم تقليم منقاره ومخالبه ولم يتجددا حتى الآن.. إذن فقد تم اصطياد هذا الصقر حديثًا في سماء خوارزم.

فغر ضياء الدين فاهه ثم قال:

نعم لقد استوعبت الآن.. أنت تشك أنهما جاسوسان قد أتيا من خوارزم.

حرك مسعود رأسه نافيًا ثم قال وهو يضيق حدقتي عينيه:

أنا متأكد أنهما قد أتيا من خوارزم.. ولكن جاسوسان أم لا.. دعنا نرَ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اقتربت آسية من ريحانة وبعد إلقاء التحية طلبت منها أن تأتي معها لمقابلة الأميرة نور شاه لأمر هام بهتت ريحانة ولكن آسية طمأنتها قائلة بابتسامة هادئة:

لا تقلقي الأميرة لا تريدك في شر أبدًا.. إنها ستعرض عليكِ عرضًا لن تستطيعين رفضه أبدًا.

قالت ريحانة بعد تردد:

حسنًا انتظريني هنا حتى أستأذن سيدي.

كاد أيوب أن يرفض ولكن ريحانة أخبرته أنه لابد وأن يوافق وإلا سيثيران الشكوك فكر أيوب للحظات ثم قال بحسم:

حسنًا.. ولكن سنعود إلي خوارزم الليلة لن ننتظر القافلة.

ورغم خطورة عودتهما وحدهما في هذا الطرق دون قافلة إلا أن ريحانة لم تعترض واكتفت بإيماءة صغيرة من رأسها وانصرفت.

ولم تدرك أن بهرام كان يتنصت عليهما وما أن افترقا حتى خرج من مخبأه إلى مأمون قائلا:

لابد وأن نتحرك الآن.

وانطلقا لتنفيذ خطتهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخلت ريحانة القصر بصحبة آسية لأول مرة.. قصر واسع فسيح ذو زخارف جذابة وأعمدة براقة، خطت بقدمها على الحصى الملون الذي فرشت أرضيته به، رصت الحصوات بجوار بعضها لتخلق نسقا بديعا وأعطت مشهدًا يخطف القلب قبل العين، لم تهتم ريحانة لكل هذا ففي النهاية هي مجرد ألوان خادعة حولها لا يحق لها الاستمتاع بها ولو للحظات خاطفة.. اعتادت على ألا تستمتع بما لن تستطيع ملكه، وصلت للحديقة الخلفية التي يطل عليها جناح الأميرة، حديقة غناء تنساب خلالها جداول رقراقة.. تنتشر على جانبيها أشجار صغيرة وعلي بعد مترين منها تقف شجرة الياسمين الكبيرة التي يتدلى جذع منها في مياهها فتزهر المياه بياضًا بلون ياسمينها..

بهجة تملكت قلبها أخيرا، فشلت في منعها، وراحة انصبت في فؤادها وعيناها معلقة بالياسمين الذي يكسو الأرض من حولها..ابتسمت ريحانة من قلبها لا تدري متى كانت آخر مرة ابتسم قلبها هكذا ولكنه ها هو قد فعل.. تعشق الياسمين وملمسه.. رائحته تثير بداخلها ذكريات هادئة ومشاعر دافئة.. جلست على ركبتيها وأمسكت ببعض الزهرات المترامية وبلا وعي منها رفعتها إلى عنقها تصنع عقدًا صغيرًا كما كان يفعل والدها معها ومع أختها الصغرى.. أغلقت عينيها وقد اشتعل الحنين بقلبها فغادرت دمعة وليدة مقلتيها.. انزعجت آسية وهي تتابعها فأرادت أن تخرجها من ذكرياتها التي ظنت أنها أليمة فقالت بحنو شديد:

أنا أيضًا أعشق الياسمين.. هل أعجبك؟

ابتسمت ريحانة وهي تهز رأسها بالإيجاب فتحدثت آسية وهي تشير للجداول والشجيرات حولها:

أنا من زرعت تلك الشجيرات ووزعتها هكذا.

اتسعت ابتسامة ريحانة واقتربت منها تربت على خدها قبل أن تتحدث بحنين أشعله الشوق للأيام الخوالي:

ذوقك رائع يا آسية.. لا يعيش الياسمين إلا للنبلاء..

ورغم أن آسية تعلم أن ريحانة تجاملها بعبارتها الأخيرة إلا أنها نالت من قلبها فضمت يدها إلى صدرها في سعادة كطفلة صغيرة دغدغ إطراء أمها كيانها.. ولكنها فكت يديها سريعًا فبرغم الابتسامة التي كانت ترتسم على شفتي ريحانة إلا أنها كانت تجد في عينيها كثير من الآلم فقالت بأسف حقيقي:

أنا آسفة.

علامَ؟

يبدو أن زهرة الياسمين قد أثارت الآلام بداخلك..

لا عليك يا حبيبتي.

كادت أن تكتفي بهذا الرد المقتضب ولكنها وجدت روحها تأنس لآسية فاسترسلت:

ذكرني الياسمين بأبي.. كان رجلًا لم ولن تنجب النساء مثله.

فغرت آسية فاها ثم سألت:

هل أنت.....؟

هزت ريحانة رأسها ثم زفرت بحرقة قبل أن تجيب:

نعم أُسرت صغيرة بعد أن فقدت أمي وأختي..

صمتت آسية تعاطفًا معها ولكن ريحانة سألتها:

وأنت؟

أجابت بسلاسة:

أنا أبي السلطان وأمي السلطانة وأختي الأميرة نور شاه لا أعلم لي أهلًا غيرهم.. أنا وصيفة الأميرة منذ الصغر.

ثم قالت كمن تذكر شيئًا:

هيا بنا لقد تأخرنا كثيرًا عليها.

صعدا سويًا الدرج حتي جناح الأميرة، طرقت آسية الباب فأذنت لها الأميرة بالدخول.. كانت نور شاه تصفف شعرها المتدلي على عينيها عندما دخلت الفتاتان فوقفت ريحانة بينما تقدمت آسية منها وهي تقول:

مولاتي لقد حضرت ريحانة.

رفعت نور شاه رأسها وهي تمد يدها لريحانة بابتسامة عريضة ترحب بها عندما هبت نسمة هواء باردة من النافذة المفتوحة فتطايرت شعرات رأسها الحريرية تنساب على وجهها وتعمي عينيها مرة أخرى فسحبت يديها تعدلها.. ولكن ريحانة لم تأبه لهذا فلقد تصلبت مكانها وعلت دقات قلبها وتهدجت أنفاسها فأمام عينيها أميرة شابة تصغرها بسنوات قليلة يزين رأسها شعر حريري يتطاير مع الهواء..

يتطاير كما كان يفعل شعر أمها دومًا..

وقبل أن تتفوه نور شاه بعرضها الذي أرسلت لها من أجله كانت ريحانة توقن أن في هذا القصر بعض من قلبها وقطعة من روحها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٧-

توتر كبير يعصف بكيانها.. رجفات خفيفة تجتاحها.. ترى نور شاه أمامها.. لا تدري لماذا تذكرت أمها عندما رأت شعر الأميرة الحريري؟ أهي حقًا تشبهها؟ أم أن هذه مجرد خيالات تسكن برأسها؟

كادت أن تتفوه بسؤال ما ولكنها تراجعت مترددة عندما نظرت في عيني الأميرة.. عندها قررت ألا تتعجل الأمور فلن تبرح هذه الأرض حتى تعثر على شقيقتها..

ثم أصغت إلى الأميرة التي كانت تقول:

ريحانة.. أنا أقدم لكِ عرضًا مغريًا لن ترفضيه.

نظرت إليها ريحانة بتساؤل فانتظرت نور شاه دقيقة كاملة قبل أن تجيب تريد أن تثير فضول ريحانة لأقصى درجة ثم تحدثت وهي تشير بيديها:

تعلميني الرمي وصيد الصقور.. مقابل حريتك.

لم تعجب ريحانة الطريقة التي تحدثت بها نور شاه لا تدري لماذا شعرت أنها أمام فتاة مدللة اعتادت أن تلقي بالأوامر لا تعلم شيئًا عن شظف العيش أو عرق الجبين.. حتى أن طريقتها في المقايضة كانت فاشلة مستعلية ورغم أن العرض مغريا جدًا إلا أنها ردت بكبرياء وهي تعقد حاجبيها:

حريتي سأحصل عليها بعد بضعة أشهر أيتها الأميرة.. أنا مكاتبة.

شعرت نور ببعض الإحباط ولكنها واصلت التشبث بلعبتها قائلة:

إذن سأدفع لسيدك وتكونين حرة منذ اليوم.

ثم أضافت تريد أن تسيل لعابها:

سأستضيفك بالقصر حتى تحصلين على عمل مناسب لكِ.

كادت ريحانة أن ترفض ولكنها تراجعت بعد تفكير عندما شعرت أنها فرصة جيدة لتكون بالقرب من الأميرة حتى تستطيع الوصول لمبتغاها فقالت:

ولكن سيدي لن يقبل بسهولة.

ردت نور وقد أحست بالظفر:

لا تقلقي بشأن سيدك المبلغ الذي سأعرضه عليه سيعمي عينيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف السلطان محمود أمام نافذة جناحه الخاص عاقدًا يديه خلف ظهره مادًا بصره في أرجاء مملكته المتسعة والتي لن يحصيها من موقعه هذا رغم أن قصره يقع فوق ربوة عالية وجناحه يعلو الأسوار الشاهقة، كان مستغرقًا في تفكيره حد أنه لم يشعر بالسلطانة وهي تقترب، نادته فلم يأتها رد فوضعت يدها على كتفه وهي تقول بحنان:

فيمَ تفكر يا مولاي؟

زفر زفرة حارة تاهت في صوت الرياح الذي كان يهب في الخارج، صمت فتخيلت أنه لن يفصح ولكنه أجاب ونظره ما زال معلقًا بالفضاء أمامه:

هموم الدولة التي لا تنتهي يا سلطانة.

تمتمت وهي تخشى الجواب:

أهي الحرب يا مولاي؟

أجاب وهو يقلب شفتيه ثم يهز رأسه أسفًا:

لقد فعلت كل ما بوسعي لكي أتجنبها ولكن يبدو أنها قادمة لا مفر.

صمت دقائق حتى ظنت أنه سيكتفي بهذا الرد ولكنه تحدث وهو يلتفت إليها قائلًا بغضب:

هم لا يعلمون في خوارزم أنهم إذا خرجوا من تبعيتي سيصبحون لقمة سائغة للكفار، الرجبوت يكفون أيديهم عنهم لأنهم يعلمون قدر قوتي وعقاب غضبي ولكن إن ضعفت سيتخطفني ويتخطفهم الطير..

طمأنته قائلة:

ولكنك يا مولاي قادر على أن تحمي حدودك جيدًا.. لا يستطيع كلب من كلاب الرجبوت الاقتراب منها.

نظر في عينيها وهو يقول ببطء:

أنا أطمح فيما هو أكثر يا فاطمة.. أريد فتح معقل الهند ذاتها.

ثم أردف بحسم:

أنا أرغب في فتح «صومنت»و هدم معبد شيفا ونشر الإسلام في ربوع الهند بأسرها.

ثم أضاف وهو يعتصر قبضته:

وحتى هذه اللحظة لا بد من إخماد كل نار تستعر تريد التهام قطعة من أرضنا.

أمسكت بقبضته المضمومة تقبلها ثم تحدثت:

سيكون لك ما أردت يا مولاي إن شاء الله.

إن شاء الله.

صمتت برهة فسألها:

خيرًا.. ما الذي تريدين قوله؟

شعرت بتفاهة ما تريد التحدث به أمام مايشغله ولكن نظرته المحفزة لها جعلتها تتحدث:

نور شاه تريد الذهاب للقصر الشرقي غدًا.

نور شاه.. نور شاه.. يبدو أنني قد أفسدتها بتدليلي الزائد لها.

قالها غاضبا وهو يبتعد بضع خطوات فحركت كفيها وهي تقترب منه قائلة:

إنها عنيدة كأبيها ولن تبرح حتى تفعل ما برأسها..

تحدث مقرًا:

أعلم هذا.

بعد تفكير نظر إليها وقد هدأت حدة غضبه قليلًا فأضاف:

حسنًا يا فاطمة.. دعيها تفعل ما تشاء وأنا سأرسل إليها حراسة مسائية.

تساءلت بحذر:

وأمانتها؟

نور ستكمل الثمانية عشر الشهر القادم.. لقد أصبحت من حقها الآن.. عرفيها ما ترغب في معرفته.. وإذا أرادت الحديث معي فلتنتظر حتى أنتهي من أمر خوارزم.

هزت السلطانة رأسها ثم ذهبت إلى حجرتها لتخرج من صندوقها الخاص رسالة كتبت منذ خمسة عشر عامًا، وخاتمًا بنقش مميز.. نقش مدبب يعود لأميرة من أميرات الدولة العباسية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نزلت إلى حديقة الياسمين، جلست تحت شجرة الياسمين الكبيرة تفكر في عرض الأميرة عليها منذ قليل.. تعلم يقينًا أن منصور سيجدها فرصة عمره.. ربح كثير في بضاعة بالية من يرفض عرضًا كهذا..ولكن أيوب لن يقبل.. رغم أنه يعلم أنها سترحل بعد شهور قليلة ولكن ليس الآن.. سيتألم قلبه كثيرًا.. لقد ظنت أنها بجرحها له سيبتعد عنها ويكرهها.. ولكن كل نظرة من عينيه تخبرها أنها ما زالت تمتلك روحه.. لن يستطيع فهم أنها لا تصلح للحب ولا لتلك المشاعر.. لقد انتزع منها قلبها أو ما تبقى منه يوم فقدت شقيقتها..

تنهدت وهي تمسك زهرة سقطت على يديها حركتها بنعومة على وجهها ثم قربتها من أنفها.. من داخلها تتمنى أن تتحرر اليوم قبل الغد.. فتحررها الآن سيجعلها تعجل بالوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسها.. اعتصرت الزهرة في قبضتها فذبلت سريعًا قبل أن تقذف بها بعيدًا.. أسندت رأسها على الشجرة مستسلمة لذكريات لا تبرح رأسها منذ كانت على طريق غزنة، أطلقت زفرة حارة ثم عادت للوراء أعوام كثيرة.

فتحت عينيها بصعوبة بعد أن زال أثر المخدر عن رأسها ورغم المطارق التي تطرق رأسها إلا أنها تلفتت حولها تبحث عن أمها وأختها لتجد الثانية بجوارها غارقة في نوم عميق بينما الأولى نائمة في وضعية الجلوس على مدخل المغارة وبيديها سيف كبير.. انتبهت الآن إلى تلك الآلام التي تنهش باطن قدمها، تحسستها لتجد رقعة من جلد الماعز المدبوغ يغطيها رفعتها لتصدم بحرق دائري بنقش لا

تعرفه.. ظنت أنه من فعل اللصوص فصرخت باسم أمها التي قامت فزعة نحوها تحتضنها وبيد مرتعشة مسحت دموع طفلتها ثم وضعت الرقعة الجلدية عليها مرة أخرى قبل أن تضمها إلى صدرها بقوة أكبر وتشاركها البكاء وهي تعتذر:

سامحيني.. سامحيني يا شق روحي.. سامحيني يا بنيتي.

ثم ساد صمت مهيب يلفهما لم يقطعه إلا صوت نحيبهما.. زادت الفتاة من التصاقها بأمها تستمد أمانًا مفقودًا منذ خرجن للطريق ولكن الأم قالت بعد برهة وهي تبعدها عنها قليلًا:

اسمعيني جيدًا يا ريحانة.. لا تنزعي هذه القطعة عن قدميك ولا عن قدم أختك.. أعلم أن ما سأقوله كبير على سنك ولكن عقلك أوسع.. ستختفي آلام قدميك بعد ساعات قليلة.. ولكنها ستتجدد كل قمر لتدلكما على بعضكما إذا افترقنا..

قالت جملتها الأخيرة وهي تقاوم غصة تحرق حلقها فهزت الصغيرة رأسها علامة الإيجاب فتابعت محذرة:

لا تخبري أحدًا من نكون إلا السلطان محمود.. أعلم أن هذا الأمر كبير عليك ولكـ.....

أمييييي.

كان الصراخ يأتي من طفلتها الصغرى فاحتضنتها لتهدئها عبثت بشعرها الناعم حتى هدأت قليلًا.. ناولتهما بعض الطعام ثم قررت أن تذهب إلى السلطان.. فهي تعلم أن قطاع الطرق لن يترددوا في اللحاق بهن.. امتطت الحصان ووضعت الصغرى أمامها والكبرى خلفها.. ثم انطلقت في طريقها.. لم يدم سيرها على الطريق طويلا حتى سمعت صهيل خيول قادمة من بعيد.. تمنت أن تكون خيول دورية السلطان ولكن عقلها نبهها أنها قد تكون خيول اللصوص.. لم ترد المجازفة بطفلتيها فانحرفت قليلًا عن الطريق حتى قابلها نتوء في باطن الأرض وضعت طفلتيها فيه وهي تقول لريحانة التي كانت تحتضن أختها:

عاهديني على أن تحافظي على نفسكِ وعلى أختكِ وتحميها..

فقالت الفتاة بثبات عجيب:

أعاهدكِ يا أمي.

فتحدثت بيسان محذرة:

لا تخرجا من مخبأكما حتى أعود.. أو تمر دورية السلطان.. اذهبا معهما وأنا سألحق بكما..

قبلتهما قبلة طويلة بين عينيهما وهي تحتضن وجههما براحتيها.. تمنت أن لو تستطيع تقديم روحها قربانًا لنجاتهما.. ولكن العجز الذي ينبش مخالبه بقلبها جعلها تمتم قهرًا:

سامحاني يا حبتي قلبي.

خبأتهما في النتوء ثم وضعت عليهما بعض الأعشاب.. وابتعدت تتلصص على الأحصنة.. خرجت للطريق لتجد قطاع الطرق في مقابلتها انطلقت بحصانها تبعدهم عن مخبأ طفلتيها وهي تدعو الله من

قلبها أن يحفظهما ويتولاهما.. كانت تريد أن تقربهم من دورية السلطان في تعلم أنهم يمرون من هنا، تظن أن هذا هو السبيل لنجدة طفلتيها من هؤلاء اللصوص فلا طاقة لها بقتالهم.. انطلق اللصوص خلفها ولأنهم أعلم منها بالطرق لحقو بها سريعًا بعد أن فطنوا إلى خطتها..

شعرت بنار حارقة تكوي ظهرها عندما اخترق سهم أعلى ظهرها ولكنها تجاهلت تلك الآلام ولم تتوقف ظلت تضرب باطن حصانها بقدمها فتوقفها الآن معناه خطر شديد على طفلتيها.. اخترق سهم ثاني قدمها وثالث كتفها ولكنها لم تتوقف رغم الدماء التي كانت تغرق ملابسها وجسد الحصان تحتها.. حتى اخترق سهم غاضب مؤخرة حصانها فانتفض صائحًا ثم سقط وأسقطها معه..عندها اقترب اللصوص منها وقد أحاطوا بها من جميع الجهات..

تحاملت على نفسها فخوفها من مصير مؤلم لطفلتيها دفع في روحها إرادة الحياة فتشبثت بسيفها ثم تحاملت علية لتستقيم واقفة تشهر في وجوههم سيفها الذي لا تكاد تحمله.. لم يستغرق الأمر كثيرًا فمع أول ضربة سيف خارت قواها الضعيفة وسقطت أرضًا وهي تتجرع مراره الألم خوفًا على مصير حبتيها.. رفع اللص يديه ليطعنها طعنة أخرى عندما اخترق سهم قلبه فسقط صريعًا وما هي إلا ثوان قليلة والتحمت دورية السلطان بهم ليقتلوهم جميعًا..

تأوهت ببطء والدماء تنزف من جسدها وفمها حاول أحد الجنود إسعافها وهو يهز رأسه أسفًا فالدماء المتفجرة من جميع جسدها تعلن أنها في طريقها إلى الحياة الأخرى.. كانت تمتم بكلمات غير مفهومة تنظر إليها نظرة تستجديه أن يسمعها.. قرب الجندي أذنه من فمها ليسمع منها كلمات قصيرة مقتضبة وهو ينظر إلى حيث تشير بوهن قبل أن تفيض روحها إلى بارئها.. فحمل الجندي جسدها على فرسة وذهب مع باقي الجنود إلى كبير المحاربين ليخبروه بما حدث.. ساعات مرت وريحانة تحتضن أختها تهمس في أذنها أن أمهما ستأتي قريبًا، تصبرها بأمل واهٍ علها تكف عن البكاء ولكنها لم تكف وتحول بكاؤها لصراخ وهي تقول:

إنني جائعة.

لم تجد ريحانة بدًا من تحمل مسئوليتها تجاه أختها فتركتها وهي تحذرها ألا تتحرك من مكانها حتى تعود.. وبخفة وهدوء تحركت الصغيرة لتجمع بعض الثمار وهي تتوارى عن الأعين خلف الأشجار لتعود سالمة كما عاهدت أمها.. وبالفعل عادت بعد قليل لتجد مخبأهما خاليا.. ولا أثر لشقيقتها على الإطلاق.. رمت الثمار وانطلقت كالمجنونة تبحث عنها متخلية عن حذرها الذي علمه لها والدها.. ليلة كاملة تخترق بعينيها الصغيرتين حجب الظلام علها تعثر عليها..

وحيدة في غابة شاسعة تنظر للأشجار حولها تستعطفها ألا تخبئ عنها شقيقتها.. كانت تنادي عليها وتصرخ باسمها علها تسمعها حتى بح صوتها وانعدمت حيلتها وأضناها التعب وأصبحت ظلمات الليل قضبانًا عليها أوغلتها في اليأس ومكث الخواء بين جوانحها فسقطت غائبة عن الوعي لتستيقظ تجد نفسها محبوسة مع صغار آخرين في قفص يملكه تاجر للعبيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخل مسعود على ضياء الدين ليجده منهمكًا في كتابة رسالة يبدو من تركيزه فيها أنها هامة حتى أنه أشار لمسعود أن يجلس صامتًا حتى ينتهي.. أطاعة مسعود وهو يظن أن في تلك الرسالة اكتشافًا طبيًا

فريدًا أو ربما سرًا حربيًا سيساعدهم في القضاء على الهنود.. وكرد فعل طبيعي قبض مسعود على مقبض سيفه عاقدًا حاجبيه وهو ينتظر أن يخبره صديقه عن هذا السر الخطير..

ولكن عيناه اتسعت حدقتيهما عندما رأى ضياء ينتهي من كتابة رسالته ثم يقبلها قبل أن يربطها بخيط مميز وينثر عليها بضع قطرات من عطره المفضل.. كاد مسعود أن ينفجر غيظًا ولكنه تمالك نفسه وهو يقول:

لا تخبرني أن هذه رسالة غرامية.

أجاب ضياء ببساطة وهو يضع الرسالة في مكان خاص:

نعم إنها إلى زوجتي الحبيبة لقد أضناني الشوق إليها حد أني فكرت في السفر إليها مبكرًا وليحترق العالم أجمع.

قال جملته الأخير بشوقٍ بين مما جعل مسعود يجز على أسنانة وهو يقول:

سأموت كمدًا من برودك هذا يا ضياء.

أجاب ضياء وهو يشير لقلب مسعود:

أنت فقط لم تجرب الشوق يا صديقي.. لقد أخذ السيف من قلبك.. حتى أنك لا تستطيع التعبير عما به لأقرب الناس إليك.

قال مسعود بصرامة بدت لضياء مصطنعة:

ماذا تقصد يا ضياء؟

أقصد أن الأميرة نور شاه عندما تستقر في القصر الشرقي ستعلم معنى الشوق وستجري على لسانك كلمات الحب.

زمجر غاضبًا:

ضياء الدين...

كاد ضياء أن يرد عليه ولكن يعقوب طرق الباب ثم دخل قائلًا:

سيدي يبدو أن هناك أخبار غير سارة بشأن أيوب هذا لقد أتى بهرام وصديقه يريدان مقابلتك:

أجابه مسعود على الفور:

دعه ينتظر.. سآتي له.

انتظر بهرام ومأمون قليلًا حتى حضر الأمير مسعود ليجريا يقبلا يده ولكنه سحبها وهو ينظر إليهما شذرًا ثم يقول بصرامة:

هات ما عندك يا بهرام أنا لا أملك الكثير من الوقت.

أجاب بهرام يتملقه:

مولاي الأمير.. وجدت أنه من واجبي عندما أعلم أن هناك من يهدد أمن الدولة أن أعلمك به..

صمت قليلًا ينتظر وقع كلماته على مسعود ولكن مسعود كان جامد الملامح ينظر إليه بصرامة مما جعله يقول سريعًا وهو يبتلع ريقه:

أيـ.. أيوب.. إنه من خوارزم.. أردت أن أخبرك لتقبض عليه.

نهره مسعود قائلًا وهو يجذبه من ثيابه:

وهل وجدتنا حمقى لنقبض على كل خوارزمي.

تراجع بهرام للخلف خطوة وقد ألجمته الكلمات مما جعل مأمون يتحدث بهدوء:

نحن نشك في أنه جاسوس وما جعل شكنا يقينًا أننا سمعناه يحدث جاريته أنه سينهي مهمته الليلة وسيهرب معها في الصباح.

ظلت ملامح مسعود جامدة ثم ترك ملابس بهرام وقال بنفس نظرته الثاقبة:

نشكركما على معلوماتكما.. سنرى ماذا نفعل.

انصرف بهرام ومأمون وقد شعر الأول بالإحباط فمال على الثاني قائلًا وهما يخرجان:

يبدو أننا أخطأنا التقدير.. هذا الأمير المتعجرف لن يفعل شيئًا.

أجابه مأمون:

لا تقلق.. هذا المتعجرف سيفعل كل شيء.. إنه فقط لا يريد أن نكون أصحاب يد عليه.

وما إن ابتعدا حتى قال يعقوب الذي كان واقفًا يتابع في صمت:

ماذا نفعل يا مولاي.. هل نقبض عليه؟

أجابه مسعود بعد تفكير:

هذان الشخصان لا يشيان بأيوب خوفًا على مصلحة الدولة كما يدعيان.. إن لهما مآرب أخرى.. ولكن لا بأس، الآن أصبحت لديّ حجة لأعلم منه ما يخفي.. انتظر حتى المساء وأحضره لي في القصر الشرقي..

أطاعه يعقوب فرفع مسعود سبابته محذرًا:

إياك أن يعرف السلطان أي شيء عن هذا الأمر.

لا تقلق سيدي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بقيت ريحانة على حالها تحت شجرة الياسمين حتى جاورتها آسية صامتة ثم سألتها:

فيما تفكرين يا ريحانة؟ لو كنت مكانكِ لقبلت العرض فورًا.

نظرت إليها مليًا ثم قالت:

آسية.. أما تتوقين إلى الحرية؟

ضحكت آسية ضحكة بلهاء وهي تردد:

ا ل ح ر ي ة.

تفوهت الكلمة ببطء تتذوق معناها كطعام جديد على لسانها.. مما جعل ريحانة تبتسم وهي تنظر إليها تتابعها تنظر لطائر يحلق في السماء ثم تقول:

أنا لا أعرف معنى الحرية يا ريحانة.. لم أتذوق طعمها من قبل.. ولم أتنفس عبيرها يومًا.. أنا أمة منذ ولدت.. ما أعرفه أني جارية أبًا عن جد.. ميراث كُتب على من هم مثلي.. أنت تتحدثين عن شيء عشتيه قبل ذلك.. لذلك فحنينك إليه يشتعل.. أما أنا..

بترت حديثها فلأول مرة تشعر أن هناك من يهتم بها وينصت لها.. أرادت أن تشارك ريحانة ذكرياتها ولكنها لم تجد فلقد كانت حياتها كلها منذ نعومة أظافرها هي «نور شاه» تفعل لها ما تريد وتكف عنها ما يضايقها.. ربما تكتشف للمرة الأولى أنها لا تملك ذكريات خاصة بها.. ربما لأن المعاملة الطيبة التي تتلقاها في قصر السلطان من سيدتها هي ما جعلتها لا تهتم طوال تلك السنوات لمثل هذه الأمور.. فلم تتمرد أو تتمنى يومًا أن تكون حرة..

ولكنها تذكرت طيف أمها فنظرت في عيني ريحانة وهي تتحدث بعد أن رفعت إحدى كتفيها وقلبت شفتيها قليلًا:

أمي كانت جارية ماتت وأنا طفلة.. أنا حتى لا أتذكر منها سوى خيال.. أتعلمين عيناك تشبهانها..

قالت جملتها الأخير وهي تشير لعيني ريحانة ثم ضحكت قبل أن تضيف باشتياق:

ولكن عينيها أكثر جمالًا ونعومة..

ضحكت ريحانة على جملتها وفي داخلها قررت أن تستعين بآسية في بحثها عن مصير أختها وأمها فتلك الفتاة النقية ستكون مرشدها فهي خير من يعرف دهاليز وربوع غزنة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ورغم أنهما قد تناولا جرعتهما التي تقلل من تأثير الرحلة على جسديهما إلا أنهما كانا يشعران بدوار عنيف يلف رأسيهما..

كانت وطأته أخف شدة على عامر الذي تجاهل آلام رأسه وجسده وتحرك سريعًا ناحية الشاشة التي تتوسط الكبسولة ينظر لما حوله؛ كانت الغابة الشاسعة تحيط بهما من كل مكان ورغم أنهما اختارا مكانًا ذو أشجار عالية، إلا أن الكبسولة ما زالت محل أنظار من يقترب منها..

ضغط عامر بمهارة وسرعة عدة أزرار ثم قال وهو يشير لنون التي جاورته تمسك رأسها:

هذه منطقة وهمية تحيط بالكبسولة من جميع الجهات من يراها سيظن أنها منطقة متشابكة الأغصان..

قالت بعد أن زمت شفتيها قليلا وقد استعادت نشاطها:

ولكن من يخترق المنطقة الوهمية سيري الكبسولة بوضوح أليس كذلك..

هز عامر رأسه بأسف وهو يقول:

نعم ولكن نأمل أننا لن نستمر طويلًا هنا.

ثم أضاف بجدية:

على العموم هذا الجزء من الغابة قريب من القصر الصغير الذي يعد مهجورًا منذ فترة كبيرة لذلك أظن أننا لن نواجه صعوبات في هذه المنطقة.

قالت نون وهي تنظر في ساعتها:

حسنًا..

ثم أضافت وهي تشير لضوء أحمر خافت يأتي من ساعتها

يبدو أننا قريبين بشدة من الأميرة نور شاه.

نظر في ساعته ليقول:

نعم إنها تعطي عندي نفس الإشارة..

ثم تابع بجدية وهو يشير إلى ملابسهما المعلقة:

هيا بنا سنأخذ جولة في مدينة غزنة.

ثم هز كتفيه وهو يضيف ببساطة وبابتسامة غامضة:

ربما نحتاج أن نتفقد قصر السلطان أيضًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عادت ريحانة إلى خيمتها لتجد أيوب واقفًا أمامها وما إن رآها حتى انفجر فيها صائحًا:

أين كنتِ كل هذا الوقت؟

تلفتت ريحانة حولها فأدركت أنها تأخرت كثيرًا تحت شجرة الياسمين حتى أن الظلام قد حل فقالت معتذرة:

معذرة سيدي.. لن يتكرر هذا الأمر مرة أخرى..

تضايق أيوب عندما لقبته بسيدها ولكنه تجاهل ذلك وأشاح أيوب بيده متحدثًا:

فيمَ كانت تحتاجكِ الأميرة؟

تريد أن أعلمها الرمي والصيد.. مقابل حريتي... ستشتريني من سيدي وتعتقني اليوم.

اعتصر أيوب قبضته وهو يصيح غاضبًا:

ولكنكِ لستِ للبيع يا ريحانة.. لن أبيعك مهما كان الثمن.

كادت أن تصيح به وما شأنك أنت ولكنها تراجعت ثم قالت:

ما رأيك أن تستمع إلى عرضها.

صاح بها صيحة هادرة وهو يعتصر ذراعها حتى ظنته سيكسر عظامها في يديه:

لقد انتهى النقاش يا جارية.. لن ترحلي حتى تنتهي مدتكِ.

ثم أضاف بحسم وهو يقذف بذراعها فترتمي أرضًا من شدة دفعته:

احزمي الحقائب سنرحل الآن.

وتركها يجهز الخيل..

لم تكد تستفيق من وقعتها حتى قامت تتحضر للسفر وهي تشعر بالخواء والعجز بين جوانحها يدفعها للاستسلام لمصيرها كما كانت تفعل منذ سنوات..

لم تحاول إيجاد تفسير لما فعله أيوب معها منذ قليل فهي تعلم التفسير الوحيد ولكن العجيب أنها لم تغضب أو تتذمر كما كانت تفعل كلما تناقشا في أمر ما.. سمعت جلبة تأتي من الخارج.. فخرجت تستعلم عما يحدث لتجد الجنود الغزنويين قد أحاطو بأيوب ثم اقتادوه إلى السجن..

علمت من السيد شيبان أن هناك من وشى به..

وآخر ما رأت هما عيني أيوب وهو يخبرها أن تنجو بنفسها ولا تنتظره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جن عليها الليل فجلست تفكر في مصيره ماذا تفعل له؟

لم تجد سبيلًا لنجاته سوى عدل السلطان ولكن من أخذوه هم جنود الأمير الذي لا تطمئن له أبدًا.. ضربت عمود الخمية بقبضتها حتى ظنت أنها ستقتلعه فالعجز يقتلها، خرجت خارج الخيمة تبحث عن هواء في الفضاء يداوي اختناقها..

ثمة ازدحام بداخلها تبحث عن تنفيس له.. وثمة بوح لم تعتد عليه تريد أن ينفك عن لسانها.. تلفتت حولها، لم تجد سوى ليل ظلماته بعضها فوق بعض وسماء غاب عنها قمرها واندثر..

ظلت تدور في مكانها كالرحى حتى بزوغ الفجر..

حملت قوسها وعلقت سيفها وانطلقت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت اللحظات على مهل وتراخٍ حتى اختلت نور شاه بنفسها في جناحها الخاص، طلبت من الخدم ألا يزعجها أحد..

وضعت الرسالة التي آخذتها من السلطانة منذ قليل على فراشها.. ورغم آن السلطانة روت الكثير من ظمأ أسئلتها إلا أنها تضطرب بمجرد لمس تلك الرسالة فهي تظن أن بها الكثير..

عبثت بالخاتم بين أصابعها..

النقش الذي يعلوه ليس غريبًا عنها.. تظن أنها رأته من قبل ولكن أين لا تتذكر؟ وضعت الخاتم جانبًا وأمسكت بالرسالة..

إنها اللحظة التي انتظرتها منذ سنوات..

أمسكت الرسالة وقلبها يرتجف ولكن ما إن فضتها والتهمت حروفها بعينها إلا واتسعت حدقتاها فلم تكن الرسالة تخصها على الإطلاق..

كانت تخص آخر شخص تتوقعه..

هجرها النوم طوال الليل ومع أول خيوط الصباح كانت قد قررت أن تذهب للقصر الشرقي..

فلابد وأن يكون هذا القصر شاهدًا على ما انتوت فعله..

القصر الذي سكنته وترعرعت به وهي صغيرة..

القصر الذي أصبح مهجورًا منذ الحادثة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٨-

وصل عامر ونون إلى مشارف مدينة غزنة، وقفا ينظران لبابها المفتوح والذي يمتد على جانبيه أسوار شاهقة الارتفاع تبعث في النفس الرهبة، تعلوها أبراج على مسافات متساوية يتناوب عليها حراس المراقبة المتحفزين والمجهزين بالسيوف والنبال والرماح القوية تشتعل النيران بجوارهم ليلًا لتضيء المكان حولهم.

تنهدت نون وهي تنظر للأسوار ثم تمتمت:

كما وصفتها تمامًا يا جدي.. لولا علمي أن هذا من وحي خيالك وكثرة اطلاعك لشككت أنك قد سافرت إلى الماضي قبلي..

تقدما في المدينة؛ شوارع فسيحة كما وصفها جدها لها بالضبط تنتشر على جانبي الطرق دور العلم وحلقات الذكر، أقبية كثيرة مرفوعة على عمدان أربعة مزينة بالنقوش والآيات القرآنية أغلبها كتب بالخط الكوفي، معلق على كل عمود من هذه العمدان مصباح زيتي كبير من الواضح أنه يستخدم في الإضاءة ليلًا فالدروس تستمر لما بعد العشاء وتبدأ بعد صلاة الفجر. تحت القبة مجلس متسع من الخشب يعلو عن الأرض بعدة درجات تتناثر علية التكايات والحاشيات لتصنع دائرة حول المقعد الوحيد الذي يجلس عليه شيخ العمود ويتناوب الطلاب عليه لتلقي العلم مجموعات مجموعات..

أقبية كثيرة فشلت نون في إحصائها؛ بعضها يجلس تحتها شيوخ بعمائمهم وعباءتهم المختلفة يتناقشون فيما بينهم وبعضها يجلس تحتها غلمان يرتدون زيًا موحدًا يرددون خلف شيخهم وبعضها يجلس تحتها شبان ينشدون علمًا من عالم من علماء غزنة المشهورين.

كل قبة تسمي باسم العلم الذي تشتهر به فهذه قبة الحديث وتلك الطب وتلك الحساب وهذه الفقه وهكذا..

يتعهد السلطان محمود تلك الأقبية ودور العلم من ماله الخاص، يوقن أن دولته ما دامت تمتلك العلم وتستطيع الدفاع عن نفسها فلن يطالها الظلمة أبدًا..

يتوسط هذه الأقبية جامع كبير كانت نون قد رأت صورا له من قبل ولكنها لم تكن تتخيله بهذه العظمة؛ زخارف هندسية متداخلة وآيات قرآنية منقوشة على جوانبه ومئذنة كبيرة مبنية على الخطة النجمية الشهيرة في ذلك الوقت.

غزنة مدينة باردة يغطي الثلج جزءًا كبير من أراضيها أثناء الشتاء ولكن اليوم ترى الشمس تظهر على استحياء ورغم ذلك يحرص الأهالي على ارتداء العباءات والعمائم التي تقيهم البرد وكأنهم يدركون أن الأمطار عندما تأتي فلن تعود.

تقدما للداخل.. بيوت من حجارة عتيقة أغلبها يمتلك فناءً واسعًا مفتوح بابه؛ فالأمن سمة سائدة في المدينة فقلما تجد سارقًا أو فقيرًا في غزنة.. على جوانب الجدران علقت المصابيح التي تضيء الطرقات حتى ساعات متأخرة.

حوانيت غزنة متجاورة تغلق مع الغروب ثم يجتمع الأهالي في الساحات لسماع التواشيح والأناشيد، تكثر مجالس السمر بغزنة يتصدرها دائمًا العلماء فهم أهل الرفعة في غزنة.

وقف عامر ليشتري بعض الفاكهة فرمقه البائع بنظرة حذرة وهو يقلب القطعة الفضية التي ناوله إيها عامر منذ قليل ثم قال:

أنتما غريبان أليس كذلك؟

لم يرد عامر أن ينفي فهو يعلم أن ملامحهما تشي بكل شيء لكن لا بأس من بعض المناورة لذلك رد عليه سائلًا بحذر:

ماذا تعتقد أنت؟

أجاب التاجر على الفور:

غريبان بالتأكيد.. ملامحك تقول أنك من الغرب..

صمت لحظة قبل أن يكمل وهو يحك ذقنه ثم يشير لنون:

ولكن جاريتك السوداء هذه ربما تكون من بلدة قريبة من هنا.

ابتسمت نون وكذلك فعل عامر وهو يستمع لثرثرة البائع الذي قال وهو يناوله كيس الفاكهة ويعيد إليه أمواله:

على كل مرحبا بكما في غزنة.. تقبلا مني هذه الهدية.

شكره عامر على لطفه وقبل أن ينصرف مال عليه التاجر ناصحًا:

لا تنفق كل أموالك في الأكل ما دمت غريبًا.. بدلًا من هذا احرص على حضور تكية المساء تحت القبة الكبرى فالطعام سيكون وفيرًا وبلا مقابل.

وصلا إلى ربوة عالية في منتصف المدينة يقبع عليها قصر السلطان، كانت الحراسة عليه قوية ملحق به فناء على مايبدو أنه قد اتخذ للتدريب حتى أنهما سمعا صوت حمحمة الخيول وقعقعة السيوف من الخارج فقالت نون في يأس وهي تنظر لأسواره وأبراجه المرتفعة:

إنه أشبه بثكنة عسكرية.

لم يستمع عامر لتمتمتها فقد كان يركز جيدًا في إحصاء تحصينات القصر ولكنه انتبه جيدًا عندما قالت نون بأسف:

التحصينات قوية جدًا يستحيل أن نقتحمه على العصر القديم.. لا بد وأن نستخدم بعض التكنولوجيا.

رد عامر بهدوء:

استخدامنا للتكنولوجيا سيكون في أضيق الحدود.. ولا تنسي أننا نعمل في نفس الصف.. سنجد وسيلة إن شاء الله لدخولك..

ردت بذهول:

دخولي؟!!

نعم.. أنتِ أنسب من يدخل جناح النساء وغرفة الأميرة دون أن يرتاب بكِ أحد.

ثم أضاف بصرامة دون أن يدع لها فرصة للرد وهو ينظر لبقعة خلفها:

انتظريني هنا.

تابعته بنظرها وهو يبتعد لتجده يقف مع أحد السقايين، ناوله كيسًا به بعض القطع الذهبية ثم تحدث معه قليلًا وعاد إليها متحدثًا ببساطة:

لقد عرفت موعد تبديل الوردية.. منتصف الليل استعدي..

سارا صامتين في الطرقات حتى قالت نون تستوضح منه..

معنى ذلك أنني سأذهب لجناح الأميرة سرًا أحصل منها على عينة دماء لأحللها؟

هذا صحيح.. سيكون الليلة القادمة..

نظرت إلى السماء الملبدة بالغيوم ثم قالت:

عند اكتمال القمر.

تحدث يطمئنها:

لا تقلقي سأكون بالقرب منكِ لتأمينك.

دلفا إلى بيت يستأجرانه في غزنه ليقضيا فيه ليلتهما، عاد عامر من صلاة العشاء ليجد نون تجلس على أريكة جانبية وهي تعبث في ساعتها واجمة..

فقال:

ما الأمر؟

يبدو أن ساعتي قد أصابها عطب ما.. إنها تعطي إشارة ذات اليمين مرة وذات اليسار أخرى..

عقد حاجبيه قبل أن يقترب منها لينظر في ساعتها، تجمدت ملامحه للحظات يفكر في كيفية إصلاحها ثم التفت إلى ساعته بحدة عندما هتفت نون بفزع:

عامر... أنت أيضًا ساعتك قد أصابها نفس العطب إنها تتحرك تارة يسارًا وتارة يمينًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس في زنزانته يفكر في مصيرها، تمنى أن تنفذ أمره وتنجو بنفسها، لم يشغله مصيره فمصيرها هي أهم.. من داخله لعن تلك التعقيدات السياسية وخلافات الحكام التي تتحكم في مصير البشر..

لم يطل انتظاره فلقد دخل عليه مسعود وقال مباشرة بعد أن صوب إليه نظرة نارية:

لمَ كذبت عليّ يا أيوب؟

فهم أيوب أن الأمير قد علم أنه من خوارزم ولكنه أراد المراوغة فقال بهدوء:

حاشاي أن أكذب يا مولاي.. أنا حر لا أكذب قط.

جذبه مسعود من ملابسه وهو يقول:

لا تدعِ الذكاء يا هذا.. وأخبرني هل أنت من خوارزم؟

أجابه أيوب بصوت مختنق:

نعم.

ترك مسعود ياقته ثم قال بهدوء وهو يهندم ملابسه:

الآن ستخبرني لمَ جئت إلى غزنة..

رد أيوب بهدوء:

أنا تاجر صقور جئت إلى سوق غزنة لبيعها.. ولكن لا علاقة لي بالخلاف الدائر بين خوارزم وغزنة.

تحرك مسعود خطوتين لجانب الغرفة يستند على عمود ثم قال ببطء مستفز:

لا علاقة لك؟ مممم.. كيف إذن كنت ستفر وجاريتك غدًا؟

تجاهل أيوب استفزازه ثم قال بهدوء:

مولاي لقد حضرت لبيع الصقور وقد انتهيت فما الداعي لبقائي هنا؟ ثم إن هذا ليس جرمًا أعاقب عليه.. أرحل متى شئت وأعود متى شئت.. أنا لم أرتكب مخالفة تستوجب إلقائي بالسجن.

نظر إليه مسعود طويلًا يفكر في حديثه دون أن يتفوه بكلمة، شعر أنه ارتكب جرمًا في حقه دون دليل لم يكن هو ذاك الرجل الذي يظلم أبناء جلدته ورغم علمه أن بهرام هذا لا يشي بأيوب إلا لغرض دنيء إلا أنه استمع له لأن وشايته وافقت هواه.. ولكن يبدو أن شكه هذا مبالغ فيه كما يقول ضياء الدين دائمًا.. الآن هو أخطأ ولابد وأن يكفر عن خطأه ويعترف به.. ولكنه عدل عن رأيه وترك لوم نفسه ليشعل الغضب بداخله عندما أكمل أيوب حديثه وهو ينظر إليه بغضب مكتوم:

الذي أعلمه عن مولاي السلطان أنه لا يجر الرعية للسجن بالظن.. ولكن يبدو أن أبناء السلطان لم يرثوا منه نفس خصاله الحميدة..

التفت إليه بحدة ثم قال بتحدٍ:

سنرى يا أيوب.. ولكن أعدك إن كنتَ مخطئًا فعقابك سيكون بيدي..

وبعد أن رحل مال على خادمه يعقوب قائلًا:

في الصباح أحضر لي جاريته للقصر الكبير.. لن يهدأ لي بال حتى أعلم ما يدبرانه.

كاد أن ينصرف ولكنه استوقفه قائلا:

وأحضر لي بهرام أيضًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبأت صدرها بالهواء وهي تسير قبل شروق الشمس، أكملت طريقها بين الطرقات المظلمة التي بدت لها ساكنة حد الموت، لم يقطع هذا السكون سوى صوت إمام الفجر في المسجد يدعو للخليفة، وجدت نفسها تبتسم بسخرية قبل أن تضرب حصانها بقوة في بطنه ليصل إلى أذنها صوت الإمام يصدح بالدعاء للسلطان فزمت شفتيها ثم تمتمت وهي تواصل ابتعادها:

لنرى يا سلطان أأنت عادل كما يدَّعون أم.....؟

قطع تمتمتها صوت رعد انطلق من السماء كأنه يعلن احتجاجه على سخطها من عدل السلطان قبل أن تبرق السماء فتضيء الأرض من حولها تتبعها زخات متعاقبة من المطر ولكن ريحانة لم تتوقف، ظلت تدور في مكانها بعصبية عل قطرات المطر تطفئ لهيب روحها ولكنه اشتعل أكثر حينما قفزت إلى ذاكرتها ليالي الشتاء القارصة التي كانت تُعاقب فيها، تبيت في صحن الدار، تضم ركبتيها إلى صدرها، تلتصق بعمود خشبي تنشد منه دفئًا فما يزيدها إلا برودة..

نجاتها دومًا كانت في غطاءٍ دافئ يحضره لها أيوب بعد نوم الجميع تتدثر به، كانت كلما اختلست نظرة من تحت غطائها إلى نافذته تجده جالسًا خلفها يتابعها ساهرًا حتى بزوغ الفجر ثم يأتي إليها معتذرًا فلابد أن يأخذ الغطاء قبل أن تستيقظ أمه.. وجدت نفسها تزفر الصهد الذي يكوي قلبها وهي تحرك شفتيها:

آآآآه يا أيووب..

ابتلت ملابسها كلها وتمسكت بسرج حصانها تقاوم الرياح التي تهب بقوة تزيد برودة الطقس من حولها.. ولكنها لم تشعر بأي برودة تمتد لداخلها فقلبها ثائر يغلي حممًا..

كانت قد وصلت منتصف المدينة حيث قصر السلطان بطوله الشاهق، تجولت حوله قليلًا تجمع المعلومات، علمت أن السلطان ليس بالقصر وربما يمتد غيابه لأيام..

علمت أيضًا أن أيوب ليس بسجن القصر بل تم اقتياده إلى القصر القابع على الجانب الشرقي خارج أسوار المدينة..

لم يحتج الأمر منها لكثير من الذكاء لتدرك أن هذا الأمر تم دون علم السلطان.. اعتقال أيوب تم بتدبير وتخطيط من الأمير مسعود.. الذي يبدو أنه لن يستمع إليهما بسهولة..

عليها فقط أن تسعى لدخول القصر الشرقي تقابل أيوب ثم بعدها يقرران ماذا سيفعلان..

كانت الشمس قد بدأت تعلن عن مولدها على استحياء تغطيها بعض السحب التي تجوب السماء في هذا الوقت المبكر..

اقتربت ريحانة من أحد الحراس لتطلب منه مقابلة آسية وبعد جدال بسيط وبنظرة مشفقة على ملابسها المبللة في هذا البرد القارص وافق الحارس وأرسل أحدهم كي يصطحبها إلى حيث آسية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت آسية ترتب بعض الأمتعة لتصحب سيدتها للقصر الشرقي عندما طرق أحدهم باب حجرتها ففتحت بابها بتكاسل لتجد الحارس أمامها فنظرت إليه بتساؤل فأجاب:

هذه الجارية تريدك.

أطلت برأسها من الباب لتجد ريحانة بملابسها المبللة ووجها الشاحب وشفتيها المائلتين للزرقة فجذبتها سريعًا للداخل وهي تقول بإشفاق حقيقي:

ريحانة حبيبتي.. هل قضيتِ الليلة تحت الأمطار؟

ودون أن تتفوه بكلمة إضافية أغلقت الباب في وجه الحارس الذي رحل ممتعضًا..

تحركت آسية في الغرفة بانزعاج وأحضرت لها بعض الملابس لكي تبدل ثيابها المبللة ولكن ريحانة أبعدتها جانبًا وهي تقول:

لا وقت لكل هذا يا آسية أريد مساعدتك في أمر هام.

اعترضت آسية وقالت بإصرار وهي تنزع عن ريحانة غطاء رأسها:

لن أستمع إليكِ قبل أن تعود الدماء إلى وجهكِ مرة أخرى..

ابتسمت ريحانة فنظرتها في آسية لم تخيب تلك الفتاة نقية القلب والسريرة حقًا اعتادت على خدمة الآخرين واحتوائهم دون مبرر أو مصلحة..

أطاعتها صامتة وبدلت ثيابها وهي تتابعها تشعل المقود وتقربه من فراشها وتضع عليه قدر به ماء وعندما انتهت نظرت إليها آسية قائلة بإعجاب:

أنت رائعة يا ريحانة بثياب الوصيفات.. لماذا تخفين جمالكِ بتلك الثياب القاسية؟

قالت جملتها الأخيرة وهي تشير لثياب ريحانة التي اكتفت بابتسامة خجلة فقالت آسية وهي تنظر لوجهها بانزعاج:

هيا اصعدي للفراش.. دقيقة وتحصلي على مشروب دافئ.

وكأنها مخدرة أطاعتها دون اعتراض وتدثرت بفراش آسية الدافئ التي أحضرت لها كوبًا به بعض الأعشاب الدافئة وبابتسامة حانية قالت:

بالهناء والشفاء يا حبيبتي.. سيسري الدفء في جسدكِ بعد قليل.

استرخت ريحانة قليلًا في الفراش وأمسكت الكوب بيمناها ترتشف منها ببطء..

بينما جلست آسية تحت قدميها المثلجتين تدلكهما لتبعث فيهما بعض الدفء..

وعندما بدأ الدفء يسري في جسدها أغلقت عينيها المجهدتين لتحصل على دقائق قليلة من الراحة.. ولكنها انتفضت كمن لدغها عقرب وسحبت قدمها سريعًا عندما حاولت آسية نزع قطعة الجلد المبللة

بالماء والتي تغطي باطن قدمها ثم هتفت:

لا تفعلي يا آسية.. أرجوكِ.

تعجبت آسية من ردة فعلها ولكنها لم تعلق واكتفت بنظرة حائرة ثم قالت:

حسنًا.. الآن أستمع إليكِ..

قصت عليها ريحانة سريعًا ما حدث مع أيوب ففكرت آسية ثم قالت:

هل أنتما حقًا من خوارزم؟

وماذا في هذا؟ أليست بلاد سنية مسلمة تتبع نفس الخلافة التي تتبعها غزنة؟

نعم ولكنها تلك التعقيدات السياسية التي يعرفها السادة.

قامت ريحانة من مكانها وقالت وهي تعقد حاجبيها:

هل ستساعدينني في الوصول لأيوب؟ أم لا؟

ردت آسية على الفور:

نعم سأساعدكِ بكل تأكيد.

ثم أضافت بعد ثوانٍ من الصمت وهي تتجه للباب:

هيا بنا.

تبعتها ريحانة في صمت حتى وصلا إلى جناح الأميرة التي قصت عليها ريحانة الحكاية بهدوء دون أن تشير إلى أن أيوب كان عازمًا على الرحيل قبل أن يقابلها..

فكرت نور شاه في كلامها قليلًا ثم قالت:

حسنًا يا ريحانة استعدي ستأتي معي للقصر الشرقي.. سأجعلكِ تقابليه ولكن دون علم مسعود.. أنا لا أريد احتكاكًا به الآن.. ولكن أعدكِ عندما يأتي السلطان سأجعله ينهي هذه المهزلة ولو كان سيدكِ مظلومًا فحتمًا سيطلق سراحه.

ثم نظرت لآسية قائلة:

سنرحل الآن يا آسية.. لن ننتظر استيقاظ السلطانة.. لا أريد أن يعلم مسعود أنني ذهبت مبكرًا لكي لا يرسل لي حراسة تقيدني.

والأمتعة يا مولاتي.

دعيها نحن سنعود بعد الظهيرة إن شاء الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظت نون فزعة عندما دق عامر باب غرفتها بقوة لتهب من فراشها وهي تقول:

حسنَا حسنَا يا سيادة الرائد ثواني وآكون بالأسفل.

استغرقت نون عشر دقائق كاملة حتى خرجت لردهة المنزل فوجدت عامر يكاد أن ينفجر غيظًا وهو يقول:

كل هذا الوقت يا نون ماذا كنتِ تفعلين؟

ردت ببساطة:

كنت أبدل ثيابي..

صاح بها مستنكرًا.

تبدلين ثيابك وأنت في مهمة قد نحتاج التحرك فيها في أي لحظة؟!

ردت بنفس البساطة:

وماذا في هذا؟

ثم أضافت بأسى:

أنا أرتدي ملابسي سريعًا ولكن الحجاب هو الذي يعطلني فهو يستغرق أكثر الوقت.

شعر أنه ربما يصاب بذبحة صدرية إذا دخل معها في جدال عقيم ومن داخله أقسم أن تكون هذه هي المهمة الأولى والأخيرة مع امرأة..

ضم قبضة يده غيظًا ثم بسطها ليتحدث وهو يضغط على أسنانه:

حسنًا يا نون لن نتناقش في مؤامرة حجابك عليك الآن، لدينا ماهو أهم.

نظرت إليه باهتمام وهو يقول:

ساعتكِ؟

تحول نظرها إلى ساعتها لتتسع عيناها؛ فلقد كانت الساعة تتحرك في اتجاه واحد فقط، فضرب عامر مقدمة رأسه ثم حك ذقنه وهو يقول:

صدق حدسي أنا أيضًا ساعتي تعمل.. في هذا الأمر سر لابد وأن نكتشفه.

ثم أضاف بعد تفكير قليل:

هيا بنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثلاثة خيول متجاورة تعرف طريقها جيدًا كانوا أول الخارجين من غزنة عندما فتحت أبوابها..

الأول تعتليه نور شاه التي تبغي البعد عن ضغوطات القصر لتفكر فيما تحويه الرسالة بهدوء..

والثاني يخص ريحانة التي تريد الاطمئنان على سيدها.. وإن لزم الأمر إنقاذه..

تتبعهما آسية على الحصان الثالث.. تفكر تارة في صديقتها الجديدة والتي تشك أن اهتمامها بسيدها ليس اهتمامًا عاديًا.. وتفكر في سيدتها التي تبدو متغيرة عن ليلتها السابقة..

وعلى مدخل الغابة هدأت نور شاه من سيرها؛ خشيت على ريحانة وآسية ألا تستطيعا التحكم في حصانيهما على تلك الأرض الزلقة.. كانت الرطوبة خانقة والأشجار متدلية تجبرهن على الانحناء والسير في صمت وبعد أن ابتعدن وتعمقن بالغابة قطعت الأميرة الصمت قائلة وهي تنظر لريحانة:

لا تقلقي يا ريحانة لن يقع عليكما ظلم ما دام السلطان على رأس دولتنا.

هزت ريحانة رأسها وهي تقول:

هذا ظني بكِ وبمولاي السلطان.

لم تكد تنهي عبارتها حتى انطلق سهم انغرس في فرسها ليسقط أرضًا ولكن الأميرة نور شاه جذبتها لتحميها من السقوط قبل أن يحتميا الثلاثة في الحصانين الباقين..

صرخت الأميرة نور شاه:

منذ متى وقطاع الطرق في حدود الدولة الغزنوية؟

لتجيبها آسية وهي تخرج خنجرها:

يبدو أن الثعالب توغلت بيننا كثيرًا يا مولاتي.

بينما بقيت ريحانة صامته تتابع اتجاه السهام وهي تتمنى ألا يسوء الأمر أكثر من هذا..

فرغت السهام ثم خرج لهن من بين الأشجار خمسة من الرجال الأشداء يحيطون بهن وأولهن يقول:

استسلمن وأنقذن أنفسكن من الموت.

تحدثت نور شاه:

أنت لا تعلم شيئًا عن النساء الغزنويات؛ نحن رضعنا القتال كما رضعت أنت الحليب.

قالت جملتها وهجمت عليه لتتبعها ريحانة التي تكفلت بأقرب اثنين إليها كما فعلت هي بينما اختار أضعفهم أن يهاجم آسية التي كانت تتشبث بخنجرها ورغم فارق القوة بينهما إلا أنها ضربته في قدمه عندما اقترب منها ليتراجع ممسكًا بقدمه المصابة..

كانت كفة ريحانة مع اللصين متكافئة ولقد نجحت في إصابة أحدهما لتبعده مؤقتًا عن القتال..

بينما نور شاه تجاهد لصيها الذي نجح أحدهما في إصابتها لتلتفت آسية لها وهي تصرخ باسمها.. عندها انتهز اللص الذي أصابته الفرصة ليهجم عليها من الخلف يكبل يديها ثم وضع السيف على رقبتها قائلًا بوحشية:

ألقيا سيفيكما وإلا سأقطع رأسها.

عقدت ريحانة حاجبيها عندما تعرفت على صوته ثم قالت بامتعاض:

بهرام.. أهذا أنت يا خسيس؟

نظرت إليها نور شاه متساءلة فتابعت:

إنه حقير يرتدي ثوب الشرف.

قال بهرام بتشفّ:

أخبرتكِ أنكِ لن تفري من بين يديّ يا جارية..

ثم صرخ وهو يضغط على عنق آسية بسيفه:

هيا ألقيا سيفيكما الآن..

أطاعتاه مرغمتان ليتكفل أحد اللصوص بإحكام وثاقهن قبل أن تقول نور شاه وهي تمسك ذراعها المصابة:

أنت لا تدري أي مصيبة أوقعت نفسك فيها أيها التعس؟ أنا أميرة قصر السلطان.. ستقلب الدنيا فوق رأسك ولن تجد جحرًا لتختبئ به.

أجابها لص آخر ملثم والذي لم يكن سوى مأمون:

دعي هذه المسألة لنا.

كانت آسية قد بدأت تبكي وترتجف بينهما.. أرادت ريحانة أن تواسيها ولكن الكلمات هربت منها، كل ما كان يجول برأسها أن الزمن يعيد نفسه وها هي تسقط مع حبيبتيها أسيرة بين يدي الذئاب..

ولكن نور شاه التي بدت متماسكة نظرت إلى آسية ثم قالت من بين ألمها:

لا تبكي يا آسية أرجوكِ هؤلاء المجرمون سيلقون عقابهم.

ثم أضافت تريد أن تسري عنها:

آسية.. سواء نجونا من هذا الموقف أم لا فأنت حرة ليس لي عليكِ سلطان بعد اليوم..

ورغم أن هذا الخبر كان سعيدًا لآسية إلا أنها واصلت البكاء كأنها تتذكر شيئًا بعيدًا يدفعها للبكاء بحرقة..

أما ريحانة كانت لتسعد بهذه البشرى في الظروف العادية.. أما الآن فهناك ماهو أهم من تلك المشاعر.

قطع تفكيرهن مأمون الذي فرغ من حديثه الجانبي مع بهرام ليقترب منهن ثم ينظر لريحانة نظرة نارية قبل أن يضرب وجهها قائلًا بوحشية:

أين أموال الصقور يا جارية؟

تلقت ريحانة اللطمة فاشتعلت عيناها غضبًا ولكنها ظلت صامتة وهي تضغط على أسنانها وتنتفخ عروقها ليزيد هذا من سخطه فيهوي على وجهها مرة أخرى بلطمة مماثلة وهو يصيح بها:

إذ لم تتحدثي فسأجبركِ على التحدث.

ولكن بهرام الذي كان قد تخلى عن لثامه قال وهو ينظر إليها بنظرة ماكرة:

تلك الجارية لن يثنيها اللطم يا مأمون.

ثم جذب آسية التي قاومته بشدة ليمزق جزءًا من لباسها ثم يقول بتهديد:

ستخبرينا أو أكمل ما فعلته.

زفرت ريحانة من فمها ليخرج دخانًا كثيفًا يعلن عن فوران وغضب يجتاح داخلها ولكنها تعلم أنهم سيقتلونهن عندما يحصلون على الأموال لذلك حاولت المراوغة وكسب مزيدًا من الوقت فقالت:

إنها مع سيدي أيوب.

صرخ بهرام في أحد الرجال:

أحضر الأميرة.

عندها انهارت ريحانة وقالت تبتلع ريقها تقاوم رغبة عارمة في البكاء:

سأخبرك ولكن دعهما تذهبان أولًا.

صرخت نور شاه بهستيريا ومأمون يمزق جزءًا من ملابسها وهو يزمجر قائلًا بغضب:

يبدو أنكِ تتلاعبين بنا.

قالت ريحانة على الفور:

الذهب في حقيبتي

دفع مأمون بالأميرة لترتمي في حضن ريحانة المكبلة بالقيود وهما تبكيان قبل أن تنضم إليهما آسية تشاركهما البكاء..

بينما أمسك مأمون وبهرام بالحقيبة يفتشانها قبل أن تلتمع أعينهما وبهرام يقول:

الآن حان دور الرجال قبل أن نقتلهن.

لم يكد يكمل جملته حتى اندفع عامر ونون بينهم يحدثان عاصفة قوية ومهارة فائقة في القتال بالسيف دقائق قليلة وكان اللصوص جميعهم ممددين تحت أقدامهما وقد فارقوا الحياة..

اندفعت نون نحوهن تفك وثاقهن وهي تتساءل من بين أنفاسها المتلاحقة:

أنتن بخير؟

تعجبت الفتيات الثلاث، ثم تساءلت نور:

من أنتما؟

رد عامر هذه المرة:

لا تقلقن نحن نعمل في الصف ذاته.. أدام الله لنا السلطان.

كان جوابه غير شافيًا، إلا أن نون لم تدع لهما فرصة للتفكير فقد جثت على ركبتيها تفحص جرح الأميرة لتقول:

إنه سطحي الحمد لله ولكنها نزفت الكثير من الدماء..

قالت جملتها الأخيرة وهي تتبادل نظرة قلقة مع عامر

الذي قال:

يجب أن نعود للقصر ليتم إسعاف الأميرة.

قالت آسية نحن قريبين من القصر الشرقي أقترح أن نذهب إليه:

ردت الأميرة بفزع:

كلاااا.

انتبه الجميع إليها فأكملت على استحياء:

لا أستطيع السير بملابسي الممزقة تلك.

قالت آسية على الفور وقد تناست ملابسها الممزقة:

سأذهب لأحضر لكِ الملابس من القصر الشرقي يا مولاتي.

ولكن نور شاه ردت تذكرها:

أنت حرة الآن يا آسية لا تستطيعين المضي بملابسكِ الممزقة تلك.

ثم نظرت نحو ريحانة قائلة:

أعتقد أن ريحانة تستطيع دخول القصر من الممر السري وتجلب لنا ما نحتاجه.

ثم نظر ت لعامر تضيف:

هل من الممكن أن تذهب معها يا سيد....

اسمي عامر.. وهذه نون.

لم يكن عامر يريد أن يبتعد عن الأميرة ولكنه لم يشأ أن يفقد ثقتها التي حصل عليها منذ قليل لذلك وافق وانطلق مع ريحانة الذي جاورته بحذر..

تابعتهما نون ثم قالت وهي تشير لبعض الأشجار:

سأذهب لأحضر بعض الأعشاب لأداوي جرحكِ.

حسنًا.

قالتها نور شاه وتابعتها آسية حتى اختفت خلف مجموعة من الأشجار المتشابكة ثم التفتت نحو نور شاه لتقول بلوم:

مولاتي كيف تثقين في عامر هذا وتدعينه يذهب مع ريحانة من الممر السري للقصر..

ردت الأميرة ببساطة:

أنا لا أثق به.

عقدت آسية حاجبيها بتساؤل لتجيب نور شاه بهدوء:

هذا القصر الذي جعل مسعود قبوه سجنًا لأيوب هو ملك لوالدي وليس له ولا لأبيه السلطان.. ولقد تعدى عليه فأردت أن يلقن عامر هذا حراس مسعود درسًا.. وأيضًا أترك لريحانة فرصة لتهريب سيدها إذا أرادت.. حتى يتعلم مسعود هذا احترام ممتلكاتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تسلل عامر وريحانة لداخل القصر بسهولة من الممر السري، كان وصف الأميرة دقيقًا حتى أنهما وصلا للغرفة العلوية التي تحتوي متعلقات الأميرة دون أن ينتبه إليهما أي من الحراس الذين يحرسون البوابة الخارجية..

جمعت ريحانة ملابس تكفي نور وآسية وعادا بنفس الطريقة ولكن عندما وصلا للقبو توقفت ريحانة لينظر عامر إليها متسائلًا فأجابت:

سيدي يقبع بنهاية هذا الممر.. لقد سجن ظلمًا إن هذا في الأساس سبب مجيئنا إلى هنا..

نظر عامر للممر ثم قال:

حسنًا نتفقد الأميرة ونعود مرة أخرى.. دعينا ننطلق الآن..

ابتعد خطوتين ولكنها لم تتبعه فعاد إليها وهو يزم شفتيه تأففًا لتقول بحسم وهي تناوله الملابس:

اذهب أنت وسألحق بك.

هز كتفيه وهو يقول بلا مبالاة:

كما تشاءين.

لم تسمع جملته فلقد ابتعدت بخفة إلى حيث هدفها وقد اختمرت برأسها فكرة تهريبه، لن تدخل غزنة مرة أخرى سيمضيان سويًا من الطريق الشرقي حتى بخارى..

كان الطريق للسجن سهلًا فلم يكن هناك غير حارس تعاملت معه ريحانة بسهولة ليسقط فاقدًا للوعي ثم ظهرت لأيوب الذي وجدها أمامه ليهتف غير مصدق:

ريحانة.. كيف وصلتِ إلى هنا؟

فتحت له الباب بعد أن حصلت على المفتاح من الحارس، اقتربت منه سريعًا وهي تقول بلهفة حقيقية:

أأنت بخير؟

رد وما زال غير مصدق أنها جاءت من أجله:

نعم أنا بخير..

ثم سألها يتمنى منها جوابًا واحدًا:

لماذا لم ترحلي؟

ردت على الفور تسمعه ما جعل قلبه يرقص طربًا، وابتسامة عذبة تزين ثغره:

لم أستطع أن أرحل دونك.

وأد ابتسامته بغتة وهو يجذبها خلفه عندما ظهر عامر أمامهما فشهر أيوب السيف في وجهه ولكن ريحانة قالت:

لا تقلق إنه السيد عامر.

فنظر إليها مستوضحًا لتجيبه دون أن يسأل:

هو من ساعدني للوصول إليك.

رمقه أيوب بنظره عدائية وهو يسأل:

كيف ذلك؟

تنحنح عامر وهو يقول:

إنه أمر يطول الحديث عنه ولكن ليس هذا المكان المناسب لذلك.

فهما ما يقصده وهمّا ليتبعاه قبل أن يتوقف الجميع عندما انطلق أزيز مميز من ساعة عامر التي يخفيها تحت كمه.

أزيز جعل عامر يعقد حاجبيه بشده..

أزيز يعلن أن كبسولة المستقبل على وشك الإقلاع..

ستقلع دونه ودون ريحانة التي أصبح واثقًا الآن أنها هي الفتاة المختارة..

ستقلع وسيبقى هو عالقًا دون رابط يربطه بزمنه على الإطلاق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مملكة بروكسيما

في قاعة واسعة تكتسي كلها باللون الرمادي القاتم يرتفع سقفها كثيرًا على عمدان بيضاء تمتد على جانبي القاعة متساوية المسافة ذات نقوش جذابة تصنع نصفي دائرة متباعدتين يقبع على نهايتهما كرسي فاخر على هيئة زهرة برية مدببة الأطراف، مزخرف بنقوش تشبه النقوش التي ترتسم على عمدان القاعة يبدو أنه نحت من قطعة واحدة.. جلست عليه الأميرة مارا وهي تتطلع بأسى لعمدان خمس قصيرة الطول ذات لون أحمر ناري بلون الدم تصطف على الجانب الأيسر لكرسي العرش...

عمدان تحكي قصة خيانة وطن ولعنة حلت منذ زمن..

تلك الخيانة التي اشتعلت ثم صارت نارًا هادئة وبعد أن أتت على وطنها والتهمته ظن الجميع أنها غدت جذوة تكاد تخبو سيخمدها الهواء لكنها توهجت وأصبحت لعنة طالت الجميع..

لعنة الدم.. التي لم ينجُ منها أحد..

قطع تفكيرها صوت خادمها المخلص بادو الذي قال وهو ينحني باحترام:

سيدتي لقد حضر كايو.

اعتدلت الأميرة مارا في جلستها ثم قالت بلهفة واضحة:

أدخله على الفور.

ثوان قليلة بدت لها دهرًا حتى دخل إليها القزم الذي بادرته بالسؤال وقلبها يدق:

هل من جديد؟

هز رأسه قبل أن يتلفت حوله يمينًا ويسارًا ثم دنا منها ليقول هامسًا كمن يلقي سرًا حربيًا:

لقد تلقينا الإشارة.. الأرضيون في الطريق.

لم تستطع إخفاء قلقها عندما قالت:

أتمنى أن يصلوا قبل مراسم التتويج.

هز كتفيه الصغيرين وحك أنفه المفلطح قبل أن يقول:

أعتقد أن هذا سيحدث.

ابتسمت مارا ابتسامة منتشية وهي تقوم من مقعدها ثم تقترب من العمدان الخمس على يسارها تتحسس ببطء الوجوه المحفورة في منتصف كل عمود ثم تهمس وهي تستعيد ذكريات قديمة:

لقد اقتربنا.. لن تضيع تضحيتكم هباءً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-٩-

ترك عامر ريحانة وابتعد قليلًا بنفس حذره السابق في الدخول، كان يلتصق بأحد الأعمدة، حرك طرف كمه يلقي نظرة على ساعته المخبأة تحته، ولكنه لم يكد يفعل حتى تسمر في مكانه فساعته تشير إلى حيث ذهبت ريحانة عقد حاجبيه وهو يتمتم:

أيعقل أن تكون ريحانة هي....؟!

لم يكمل جملته وعاد يتبعها حيث ذهبت... ليجدها تخلصت في طريقها من حارس السجن الذي قد غاب عن الوعي...

ومن النظرة العدائية التي رمقه بها أيوب شعر عامر أنه سيكون أكبر عائق في طريقه لإقناع ريحانة ولكن لا بأس من تحمل حماقات أيوب هذا لبعض الوقت من أجل التأكد من إذا كانت ريحانة هي المقصودة أم نور شاه...

كل ما يحتاجه هو بعض الوقت بصحبتهما فالليلة سيكتمل القمر، بضع قطرات من دمائهما ستحسم الأمر.

لم يكد يبتعد خطوات قليلة حتى ارتفع أزيز ساعته التي يخفيها حول معصمه ينبئه أن كبسولة الزمن على وشك الإقلاع زم شفتيه وهو يقول بسخط:

سحقًا.

نظرت ريحانة لمصدر الصوت بحدة بينما هتف أيوب:

ما هذا؟

ولأن الوقت ينفد ولا مجال للشرح ولأنه حريص على وجود ريحانة معه أجاب على الفور بلهجة مدروسة تدرب عليها كثيرًا:

نون والأميرة في خطر...

ثم تابع قبل أن يدع لهما فرصة للتفكير:

الوقت لن يسعفنا لنخرج من الممر السري ونلتف حول القصر.. لابد وأن نخرج من بوابة القصر.. هيا بنا.

اللهجة الواثقة والطريقة الآمرة التي تحدث بها عامر جعلتهما يتبعاه دون مناقشة..

وعندما وصلوا لنهاية الممر ظهر أمامهم جنديان تعامل عامر مع أولهما وأيوب مع الآخر ليسقطا في نوم عميق..

تجاوزوهما حتى وصلوا لساحة القصر التي كانت صغيرة مقارنة بقصر السلطان، اجتازوها بسرعة وخفة قبل أن ينقضوا على ثلاثة جنود يحرسون البوابة مستغلين عامل المفاجأة فهم كانوا مستعدين لهجوم يأتي من خارج القصر المهجور لا من داخله..

وبسرعة رهيبة كان ثلاثتهم في مكان الأميرة التي لم يجدو لها أثرًا آو لآسية آو نون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تركت نون الأميرة وذهبت باتجاه المركبة الخاصة بهم لقد رأت أنها فرصة جيدة للحصول على عينة من دماء الأميرة ورغم أن القمر لن يكتمل سوى مساءً ولكن لا بأس من أخذ الحيطة والاحتفاظ بتلك العينة..

جمعت أدواتها في حقيبتها وغادرت الكبسولة ولم تنس أن تغلقها ولكنها ابتعدت سريعًا لتخرج من المنطقة الوهمية دون أن تنتبه أن هناك من كان يتربص بها.. وبخفة وقبل اكتمال غلق الباب كان قد دلف للداخل..

عادت نون إلى الأميرة لتجدها وحدها فسألتها بحيرة:

أين آسية؟

لقد ذهبت لقضاء حاجتها.

رأت نون أنها الفرصة المثلى لكي تنفرد بالأميرة فطلبت منها أن تستلقي على ظهرها ودون أن تنتبه أخذت العينة التي تريدها ولكنها لم تكد تفعل حتى ارتفع أزيز مميز من ساعتها لتقول نون على الفور:

مولاتي لقد أصبحنا في خطر هيا بنا سنختفي خلف تلك الأشجار.

ساعدت الأميرة على النهوض ولكنها توقفت وهي تسألها:

وآسية؟

لا تقلقي سأؤمن حمايتك وأعود للبحث عنها.

ولكنهما لم تكد تتجاوزان كومة الأشجار حتى وقفتا متسمرتين فأمامهما كانت الكبسولة مفتوحة على مصراعيها وبها آخر شخص يتوقعان وجوده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقفت ريحانة تلتقط أنفاسها وهي تقول:

أين آسية والأميرة نور شاه.

إن لم أكن مخطئًا فنون قد أخفتهم خلف تلك الأشجار.

قالها عامر وهو يشير إلى الأشجار الوهمية الممتدة أمامهم التي صنعها من قبل. واندفع باتجاهها ولكن أيوب لحق به ثم أمسكه من تلابيبه وهو يقول بغضب:

لماذا علينا تصديقك؟ من أنت يا هذا؟

خلص عامر ملابسه من يديه ثم قال بهدوء:

لم أطلب منك تصديقي ولا اتباعي سأبحث عنهن وحدي.

قالها وابتعد باتجاه الأشجار يراهن على ردود أفعال ريحانة التي استنبطها عندما كان يراقبها وهي تشتبك مع بهرام ولصوصه لقد طلبت منه نون التدخل سريعًا ولكنه رفض وواصل المراقبة يريد أن يدرس ردود أفعال الفتيات الثلاث قبل أن يتدخلا في اللحظة الحاسمة..

أما أيوب فيبدو أنه متيم بتلك الجارية.. الصب تفضحه عيونه ولغة جسده التي يحاول أن يداريها ولكنه لم ينجح مع خبير في قراءة لغة الجسد كعامر.. قال عامر جملته تلك يدعي أنه لا يجبرهما على شيء فكل الأمور بين أيديهما ولكنه كان واثقًا من أن ريحانة لن تتردد في اتباعه لتبحث عن الفتاتين ولو كان عليها اقتحام المجهول ذاته وأيوب لن يصمد كثيرًا أمام رغبتها، لذلك ارتسمت على شفتيه ابتسامة ظافرة وهو يسمع ريحانة تقول برجاء:

أيوب أرجوك.. إنهما صديقتاي لن أدعهما وحدهما.. وأنت ما علمت عنك أبدًا أنك تترك من يحتاج مساعدتك.

زفر أيوب بقوة وضم قبضته ثم بسطها وهو يحول نظره بين عامر الذي يبتعد عنهما وبين ريحانة التي تكاد أن تبكي رجاء لأول مرة في حياتها، ولكن ورغم أنه لا يثق في هذا الغريب الذي يبدو أنه يمتلئ بالأسرار إلا أنه انصاع لرغبتها قائلًا بضيق:

حسنًا.. هيا بنا..

لحقا بعامر الذي كان قد تجاوز الأشجار المتشابكة واقترب من الكبسولة، كانت الكبسولة مفتوحة على مصراعيها فدخل عامر سريعًا وتبعه أيوب وريحانة التي تسمرت في مكانها لحظات عندما رأت آسية ممدة على الأرض وبجوارها نور شاه تنتحب بصوت مسموع..

اقتربت ببطء منها، جثت على ركبتيها تتحسس وجهها تقاوم دموعها التي توشك على الفرار هل ستفقد الصديقة الوحيدة التي منَّ عليها بها الله بهذه السرعة وبتلك البساطة؟

هل ستضن عليها الحياة مرة أخرى وستظل تسقيها جرعات من المرارة والعلقم؟ هل ســـ.....

إنها فاقد الوعي.

قالها عامر بعد أن فحصها

أعلم.

ردت عليه نون وهي تبحث عن شيء ما ثم أضافت تجيب عامر قبل أن يسأل:

لقد اجتازت آسية منطقة الأشجار الوهمية بينما كنت أداوي الأميرة قبل أن ينطلق أزيز ساعتي وعندما دخلنا كانت آسية فاقدة الوعي في وسط الكبسولة ثم لحقتم بنا.

كانت قد مسكت ذراع آسية لتحقنها بدواء سيجعها تستعيد وعيها سريعًا ولكن أيوب الذي كان يحدق بما حوله يحاول تمرير الأمر على رأسه واستيعاب ما هم فيه دفع يديها جانبًا فسقطت الجرعة منها ليسحقها تحت قدمه وهو يقول بغلظة:

لن تعطيها هذا الشيء قبل أن نفهم من أنتما؟

ارتجفت نون قليلا ليس بسبب ما فعله أيوب بها ولكن لأن وجهه يبدو مألوفا لديها تظن أنها رأته من قبل ولكن لا تتذكر أين، تركت هذا التفكير جانبًا عندما تحدث عامر بهدوئه المعهود:

أنت محق يا سيد أيوب ولكن دعها توقظ آسية أولًا ونطمئن عليها.

شهر أيوب سيفه ثم وضع نصله على رقبته وهو يقول بصرامة قاسية:

لا.. تحدث وإلا قطعت رأسك بلا دية.

عم الصمت المكان ونظرات الكل معلقة بسيف أيوب الذي حاول أن يبدو واثقًا ولكن رغمًا عنه كان حديثه يحمل كل الحيرة وهو يتابع:

أسمع كثيرًا أن الأندلس بها نهضة كبيرة الآن يقودها كثير من العلماء، هل ما أراه هنا حيلة من حكامها للسيطرة على دولتنا العباسية والدول التابعة لها؟ أم أن هذا من تخطيط كفار لا نعلم عنهم شيئًا؟

انتبهت نور شاه وريحانة لما حولهما لأول مرة فلقد انشغلتا بآسية الفاقدة الوعي بين أيديهما فركت الأولى عينيها ثم قامت ببطء وهي تتأمل المكان حولها فما تراه أمامها لا تستطيع استعيابه أبدًا بينما تشبثت الثانية بيد آسية بيسراها وقبضت يمناها على سيفها وهي تزن كل كلمة تُنطق أمامها..

ثبت عامر نظره على الفتاتين اللتان يبدو أن عقد ثقتهم الوليدة به قد أوشك على الانفراط ثم قال وهو يشير لهما:

أعتقد أن دماء الأميرة نور شاه وريحانة تحتوي شيئًا يخصنا.

غرس أيوب نصل سيفه في رقبته ثم قال بغضب:

أنت ما زلت تهذي.. وأنا أصبحت قليل الصبر بعد أن رأيتك..

فزعت نون لمرأى الدماء التي بدأت تسيل من رقبة عامر فهمت بالاقتراب منه ولكنها توقفت عندما أشار لها عامر ألا تفعل قبل أن يتحدث بثبات:

أنا لا أقول إلا الصدق.. وإذا أردت دليلًا على صدق كلامي فها هو..

تبع جملته بتحريك رأسه للخلف بسرعة ليتخلص من نصل سيف أيوب وبسرعة البرق كان يلوي معصمه ليجبره على إفلات سيفه قبل أن يمسكه بيده ويضع نصله على رقبة أيوب وهو يكبله باليد الأخرى..

كانت ريحانة ونور شاه تحاولان سحب سيفيهما، ولكن عامر قال بصرامة:

لا تفعلا.. أدرت فقط أن أن يعلم أنني قادر على أذيته.. ولكنني لن أفعل.

استعادت ريحانة ونور تلك المشاهد الخارقة التي استطاع عامر ونون التغلب فيها بسهولة على بهرام وعصابته ولكنهما لم يتركا سيفيهما حتى عندما رفع عامر السيف عن رقبة أيوب قبل أن يقذفه تحت قدمه وهو يقول بحسم:

يجب أن نتحدث بهدوء ثم بعد ذلك افعلوا ما يحلو لكم، لن نجبركم على شيء.

مسك أيوب سيفه ووضعه في حزامه غاضبًا يعلن موافقته على اقتراح عامر وفعلت نور وريحانة الأمر ذاته.

تحدثت نون هذه المرة قائلة:

نحن نعلم جيدًا أن الأمر قد يبدو غريبًا ولكن كل ما نحتاجة منكم أن تثقوا أننا لن نفعل أبدًا ما يؤذيكم وسنحميكم بكل طاقتنا ولو حتى تطلب الأمر أن نضحي بأنفسنا.

هزت ريحانة ونور رأسيهما دون تعليق بينما رمقها أيوب بنظرة متحفزة دون أن يتحدث فأكملت نون حديثها:

أعلم أن ما سأقوله أمر يصعب تصديقه ولكن نحن نشك أن دماء الأميرة نور شاه وريحانة..

نطقت اسم ريحانة مترددة وهي تنظر لعامر الذي هز رأسه علامة الموافقة على حديثها فأكملت:

دماؤهما ليست دماءً عادية، إنها تحوي عقارًا هامًا لا ندري كيف وصل إليهما.. ولكنه قد وصل.. كل ما نحتاجة بضع قطرات من دمائهما نمررها على أحد الأجهزة لنعلم أيهما المقصودة.

نظر أيوب باتجاه ريحانة ليجدها ترفع كلتا يديها إلى رأسها تضغط عليها بقوة تحاول أن تبعد ذكريات صاخبة حاولت الفرار منها قبلًا ولكنها تأبى كأنها غارة تدك روحها تصر على البزوغ لتصبح دوامة هادرة لا تنفك عن الدوران تستنزف ما تبقى من صمود لديها فكل ما حولها ينبئها أنها ربما تهذي، أصبحت لا تميز حقًا إن كانت في حقيقية أم خيال؟ كادت أن تسقط ولكنها استندت على كرسي بجوارها تسترجع تلك الذكرى التي تعلم يقينًا أنها حقيقية عندما همست بيسان في أذنها تلك الليلة المشئومة:

دماؤك وريانة تحتوي شيئًا ثمينًا.. لقد حقنتكما بعقار أعلم يقينًا أنه لن يؤذيكما ولكنه سيكون فيه خلاص لكثير من الناس.

كان عامر أيضًا يتابع انفعالات ريحانة التي يبدو أمامه أنها تصارع شيئًا ما، بينما نون كانت تركز بصرها على نور شاه التي تحسست طرف رسالة بادٍ من حزامها، كادت أن تتقوه ثم تراجعت مرة ومرات.. قبل أن تنفض عنها غبار التردد لتقول بحسم:

إنهما صادقان.

تنفست نون الصعداء بينما نظر الجميع إليها ينتظرون التوضيح لتجيب وهي تستخرج خاتم بيسان من حزامها ثم تقول وهي ترفعه في وجه ريحانة:

هل يعني لكِ هذا شيئًا؟

تجمدت ريحانة في مكانها قبل أن تتلق الخاتم منها بلهفة وهي تنظر إليه بشوق تتأمله قليلًا ثم بصوت مبحوح..

ريـــانـــة !!!!!

لم ترد نور شاه ولكن دموعها سالت أنهارًا وبارتجافة واضحة بدت لعامر مصطنعة قالت وهي تنظر لهم:

أنا أخت ريحانة تجري في عروقنا نفس الدماء.. لقد حرمنا من بعض منذ الصغر..

ثم اقتربت منها تمسك يديها قبل أن تحتضنها بقوة تعانقت الفتاتان ودموعهما تسيل أنهارًا وكأن الزمن قد توقف بهما بعد أن وجدتا ضالتهما..

أغمضت ريحانة عينها غير مصدقة بأنها مع أختها وأنها قد عادت إليها بهذه البساطة.. أي معجزة تلك؟ ما زالت غير قادرة على التفكير، عجزت عن الحديث فقط همهمات غير مفهومة وبصوت متحشرج وحروف متكسرة همست:

حمدًا لله.. حمدًا لله.

لم أكن أعلم عنك شيئًا سوى الأمس عندما حصلت من السلطانة على الخاتم.. كنت أنوي البحث عنك.. كنت ســـ.....

وضعت ريحانة يديها على فم أختها وهي تهمس بنفس الصوت المبحوح:

فيما بعد.. سنتحدث عن كل شيء فيما بعد.

لاحت في عيني نور فرحة كبيرة وتحولت دموعها الغزيرة لضحكات متقطعة..

شاركتهما نون البكاء قبل أن تقترب منهما تربت عليهما.

أشاح أيوب برأسه تأثرًا وهو يقاوم دموعه، يذكر جيدًا المرة الوحيدة التي تحدثت معه بتلقائية عندما سألها عن أول شيء ستفعله عندما تصبح حرة.. فأخبرته أن لها أختًا فقدتها منذ زمن ستبحث عنها.. ولكنها لم تتحدث في هذا الأمر مرة أخرى.. كان هذا منذ زمن.. زمن بعيد حتى أنه قد نسى واعتقد أنها أيضًا قد نسيت.. ولكن ما يراه أمامه الآن ينبئه أنها كانت تتقلب في نار الشوق والحنين يدهسها الألم والهم وحدها بينما العالم من حولها يدور في دورته..

تنحنح عامر ثم قال بجدية وهو ينظر لساعته:

أخشى أنني سأقطع عليكما تلك اللحظة ولكن الوقت ينفد وستغلق المركبة تلقائيًا بعد قليل ولن نستطيع فتحها مرة أخرى ثم ستقلع بنا حيث مهمتنا.. أريد أن أعلم ردكما يا مولاتي الأميرة.

لم يكن قد استوثق من رد ريحانة التي يبدو أن عقلها قد انشغل بملاقاة أختها لذلك قصد أن يذكر نور شاه أولًا فيبدو من لغة جسدها أنها تتوق لمغامرة تبعث في دمائها التجدد ولم يخب ظنه فلقد قالت على الفور وهي تجفف دموعها ثم تقف باعتداد:

أنا موافقة.. سأذهب معكما.

وبالفعل نطق أيوب بما يخشاه عامر عندما قال بإصرار:

ولكن ريحانة لن تذهب.

نظر عامر في ساعته ثم قال موجها حديثه لأيوب:

لماذا يا سيد أيوب؟ إنها بالكاد قابلت أختها التي فارقتها منذ سنوات.. ضع نفسك مكانها

رد أيوب بخشونة:

ليس هذا من شأنك.. إنها جاريتي أنا.

أعلم أنه ليس شأني ولكن أريد أن أسمع رد ريحانة.

ريحانة لن تناقشني فيما أقول.

كانت نون تتابع الحوار وقد بدا لها أن عامر يهرتل.. فليست هذه أبدًا طريقته في الإقناع.. إلا إذا.. ألقت نظرة خاطفة على ساعة يدها قبل أن تدرك خطة عامر؛ إنه لم يكن يقنع أيوب، إنه يسعى لإضاعة الوقت.. قال عامر بأسى وبدا لهما مذعنًا:

حسنًا يا سيد أيوب لن أجبرك على شيء فلتذهب بصحبة ريحانة.. وآسية.. وسنكتفي نحن بصحبة الأميرة.. أعتقد أن مهمتنا ستنجح بها..

مسك أيوب يد ريحانة وهو يقول:

هيا يا ريحانة.

ولكنها تملصت من يده ثم قالت:

لن أدع أختي وحدها بعد أن وجدتها..

لم تكد تنتهي من جملتها حتى أغلق باب الكبسولة بانسيابية فرفع عامر كتفيه ومط شفتيه متصنعًا الأسف وهو يتحدث:

يبدو أننا سنذهب جميعًا.. لن يرحل أحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مملكة بروكسيما

لعنة الدم التي لم ينجُ منها أحد..

جلست مارا على كرسي عرشها المدبب بعد أن رحل كايو وفي نهاية القاعة وقف سادن قابضًا على سلاحه لا يرمش يتابع سيدته وهي تتأمل العمدان الخمسة بتأثر..

يعلم سادن جيدًا حجم المعاناة التي تعانيها سيدته.. فهي تعيش في مملكتها مقهورة لا تقوى على التحكم في شيء.. تريد أن ترسم لشعبها مستقبلًا أفضل ولكن هذا القهر صنع بأعماقها وحشًا عملاقًا يلتهم الأمان والمستقبل كأنهما وجبة دسمة يملأ بها معدته غير عابئ بروحها التي يدعها مكفهرة خاوية.. ولأنه يوقن أن مولاته صادقة في نواياها فلقد ساندها دون أن يبالي ماذا سيكون مصيره إذا كشف أمره.. فحتما لن يكون مصيرًا أسوأ من تلك الحياة التي يعيشها شعبه منذ أن قُتل الملك سنمار.. هذا الملك الذي ملأ المملكة عدلًا وأمانًا حتى أصبح ملاذ المستضعفين من الكواكب المجاورة..

ولكن يبدو أنه قد تمادى في عدله حتى خرجت الأفاعي من جحورها.. ليستيقظ شعب المملكة ذات صباح فيجدوه غارقًا في دمائه وسط النهر الذي تحول لونه للون الدم منذ تلك اللحظة.. وحلت عليهم اللعنة..

إنه يذكر جيدًا تلك الليلة التي ظل أهالي المملكة يبكون وينتحبون على شاطئ النهر.. ليعلن حكيم المملكة أن الملك سنمار قتل ظلمًا ولابد وأن تروي دماء القاتل النهر لتنفك اللعنة..

وتم تنصيب ولده طراد ملكًا جديدًا قبل تشييع جثمان أبيه فوقف يخطب في الجموع الغفيرة يخبرهم أنه سيسير على طريق أبيه سيقيم العدل ويعلي من شأن المملكة.. ثم سالت دموعه وهو يقسم أن أول شيء سيفعله هو إيجاد الجاني وقتله على ضفاف النهر..

وبعد أن هاجت مشاعرهم وعلت حناجرهم يرددون بهيستيريا وهم يتذكرون مناقب ملكهم السابق:

«القصاص.. القصاص»

انتظر طِراد حتى هدأوا ثم أخبرهم أن هذا الأمر قد يتطلب بعض الوقت.. ولكن لا بديل عن القصاص..

ثم دعاهم للعمل وأخبرهم أنهم لابد وأن يتحلوا بالصبر ويقتصدوا في المياه التي يحتفظون بها في الصهاريج..

انصرف الجمع عائدين إلى بيوتهم فصهاريجهم الممتلئة بالمياه فوق بيوتهم ستكفيهم لشهور قادمة حتى يتم البت في الأمر..

ولم يلتفتوا لكلام حكيمهم الذي أخبرهم أنها لعنة حلت ولن ينجو منها أحد..

شهور قليلة وامتد الجفاف إلى البيوت، تشققت حناجرهم وتمزقت أوصالهم عطشًا فزادت احتجاجاتهم..

ولكن وزير الملك خرج عليهم بقنية سوداء قاتمة اللون قال إن فيها الحل، ستحجب لون الدم.. فالقاضي ما زال يحتاج وقتًا ليبت في الأمر..

صرخ الحكيم فيهم يخبرهم أن الدم لا يمحوه إلا الدم.. وحذرهم من الشرب من مياه النهر..

انصرفوا عنه يتزاحمون على شراء تلك القنية وهم يرددون كلام وزيرهم؛ لابد من الصبر..

أغلقوا عيونهم وشربوا من فوهات قنيناتهم ورغم أنهم يعلمون جيدًا أنهم يشربون من نهر الدم إلا أنهم استمروا في خداع أنفسهم.. ولكن زروعهم أبت فأجدبت الأرض.. وماتت حيواناتهم وهزلت أجسادهم وولدت أجنتهم مشوهة.. وباتو مهددين بقطع النسل..

ولكن الملك أخبرهم هذه المرة أن التحقيقات أثبتت أن الملك سنمار قد قتل نفسه ومن الظلم أن نقتل أحدًا لنرضي ذاك النهر..

ثم خطب فيهم خطبة عصماء يدعوهم مرة أخرى للصبر حتى يعم الاستقرار والأمن..

قطع سيل تفكيره جلبة بالخارج قبل أن يدخل عليه أحد الحراس وهو يقول:

سيدي قائد الجيوش يطلب الإذن بالدخول.

رفع سادن رأسه إلى سيدته التي أشارت بالإيجاب فقال للحارس:

دعه يدخل.

انصرف الحارس ثوان قليلة ثم دلف جيساو الذي رمق سادن بنظرة محتقرة وهو يتوقف أمامه قائلًا بسخرية:

كيف حالك يا سادن؟ أرى أنك ما زلت تستمتع بحراستك للأميرة.

رد سادن بخشونة:

ليس هذا من شأنك يا قائد الجيوش.

كيف لا يكون من شأني يا سادن، لقد خسرنا قائدًا فذًا كان سيكون من كبار قادة الجيوش ولكنه فضل علينا عملًا متواضعًا يستطيع أن يقوم به خادم من خدام الأميرة..

اعتصر سادن قبضته ثم قال محاولًا رد الاستفزاز بمثله:

أنت تعلم أنه لن يستطيع أحد غيري في هذه المملكة حماية الأميرة كما أحميها أنا.. المهام الصعاب لا يقوم بها إلا الأشداء..

صمت برهة ثم تابع والسخرية تقطر من حروفه:

أنا أعلم ملكًا قد قتل لأن حراسه فشلوا في حمايته.. بل إن قائد جيوشه كان بجواره ولم يستطع منعهم..

ثم مال على أذنه قائلًا بلهجة ممتلئة بالتشفي:

الشائعات تقول أن قائد الجيوش هذا قد ابتلت ملابسه من الخوف.

اشتعلت ملامح جيساو غضبًا وتحول وجهه للون الأزرق وارتفع صدره وهبط سخطًا وهم أن يتفوه بسباب ساخط ولكنه امتنع في آخر لحظة وعدل هندامه ليتجه صوب الأميرة تتبعه نظرات سادن الساخرة..

اقترب جيساو من الأميرة ثم ركع أمامها وهو يقول:

مولاتي الأميرة.

أشارت له ليستقيم ثم قالت:

ماذا هناك ياجيساو؟

أردت أن أخبرك أن القواد العشر قد تم اختيارهم.. ولم يتبق سوى إعلان مراسم التتويج منك كما يقول كتاب المواثيق..

ثم أضاف بلهجة ذات مغزى:

لن نستطيع التأخير أكثر من هذا.. إنه ليس في صالحك.

كانت تعلم أنه يتمنى من داخله أن تتلكأ في الإعلان ليفوت الموعد لتخالف الأميرة كتاب المواثيق وتصبح له فرصة في الجلوس مكانها.. ولكنه دومًا لا يكف عن لعب دور الناصح الأمين الذي لا يجيده.. لذلك قالت بهدوء:

حسنًا يا قائد الجيوش، في اجتماع الغد سأعلن عن بدء مراسم التتويج.

ضحك ضحكة صفراء ثم قال:

كما تشاءين يا مولاتي.

ثم تغيرت ملامحه فجأة للغضب فقالت الأميرة مارا:

ماذا هناك يا جيساو.

أجاب ساخطًا وهو يشير للعمدان الخمس:

لا أدري ما سر احتفاظك بوجوه هؤلاء القتلة على تلك العمدان يا مولاتي؟

أجابته بصرامة:

أخبرتك من قبل يا جيساو ولكنك لا تمل ترديد نفس السؤال كلما أتيت إلى قاعة العرش.

أجاب ممتعضًا وهو يلوح بكفيه:

حسنًا يا مولاتي.. ولكني لا أستطيع منع نفسي من تمني تمزيقهم مرة أخرى على فعلتهم تلك.

ابتلعت الأميرة غصة حارقة ثم قالت وهي تخفي تلك الرجفة التي مست شفتيها:

حسنا يا جيساو هل هناك أمر آخر؟

لا، سأذهب لترتيب اجتماع الغد.

وبعد أن ذهب أشاحت بوجهها للعمدان الخمس وبطرف يديها مسحت دمعة فرت منها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أسقط في يد الجميع ورغم أنهم غير قادرين على استيعاب ما حولهم إلا أنهم انصاعوا لأوامر عامر الذي قال:

الآن ليس أمامنا سوى أن نتعاون.. أعدكم أنني سأبذل قصارى جهدي لتعودوا سالمين.

حاولت نون تهيئتهم نفسيًا لما هو آت.. شرحت لهم الأمر بطريقة مبسطة في البداية ثم بالتفصيل مرة أخرى..

أما عامر فقد دربهم على استخدام الآلات والأجهزة الحديثة خاصة تلك التي سيستخدمونها في الفضاء..

كان الأمر صعبًا في بادئ الأمر على الأختين وأيوب ولكنه كان شديد الصعوبة على آسية التي ظلت منطوية منذ استيقظت من إغماءتها وأخبرتهم كيف تسللت في الكبسولة قبل غلقها ثم تفاجأت بهذا العالم الغريب وضغطت دون قصد على زر أمامها لترتج المركبة لثوان ولم تشعر بشيء بعدها..

ولكنها في نهاية الأمر تقوم بما يطلب منها تحضر جلستها التعليمية ثم تعود لفراشها لا تغادره إلا عندما يطلب منها.

صور وفيديوهات كثيرة عرضتها نون عليهم لكوكب بيروكسيما، كان الكوكب يشبه الأرض كثيرًا وكذلك سكانه باستثناء أن لونهم يميل للون الرمادي أو الأخضر الفاتح بعض الشيء..

أبدى الجميع انزعاجًا من صورة هذه المخلوقات كما يسميها أيوب دائمًا، العجيب في الأمر أن آسية كانت أقلهن انفعالًا..

بل إن عامر أقسم لنون أن آسية لم يرمش لها جفن كأنها رأتهم من قبل..

ولكن نون أخبرته أنها لم تخرج من صدمتها بعد، شعرت أنهم لم يعبأوا بها وقرروا مصيرها بدلًا منها فأصبحت تعيش فترة لامبالاة واضحة..

أتمت آسية جلستها التدريبية مع عامر لهذا اليوم وكعادتها الدائمة اتجهت لغرفتها لتمر في طريقها بطاولة الطعام لتجد نون وريحانة ونور شاه يجلسون يثرثرون منحتهم ابتسامة باهتة وواصلت طريقها لغرفتها بعد أن رفضت مجالستهم بحجة أنه تشعر ببعض الدوار..

نظرت الفتيات الثلاثة لبعضهن ثم قالت ريحانة:

أرى أن آسية قد ذبلت كثيرًا.

جاوبتها نور شاه وهي تنظر باتجاه الرواق الذي دخلت فيه آسية..

نعم.. ربما ما زالت متأثرة نفسيًا بما حدث لقد أتت لمكان لا ناقة لها فيه ولا جمل..

تنحنحت نون قليلًا ثم أفصحت:

أعتقد أن آسية تفتقد نور شاه بجوارها.

شردت نور شاه للحظات ثم همست كمن تحدث نفسها:

ربما كنا شديدتي الالتصاق ببعضنا ولكن آسية لم تكن تلك الفتاة التي تحب التملك.. لقد كانت تعلم حدودها جيدًا.

ولأنها تعلم حدودها خشيت من تجاوزها ففضلت العزلة... سأذهب إليها.

قالتها ريحانة بحسم ثم قامت باتجاه الغرفة وبعد لحظات تردد وهي تقف أمام بابها طرقته قبل أن تدلف إليه عندما لم تتلق ردًا لتجد آسية مستلقية على فراشها متدثرة بغطائها فأغلقت الباب بهدوء.. ووقفت مكانها.

لم تكن تجيد كلمات المواساة أو تستطيع التعبير عما بداخلها ولكنها تشعر بألم شديد نحو آسية، تحمل نفسها وزر كسر قلبها لذلك اقتربت منها وجلست بجوار رأسها لتقول بحنان:

آسية أنا أعلم جيدًا أنك تسمعينني.. أنا لا أجيد الحديث ولا حلو الكلام ولكن أردت أن أخبرك أنني منذ صغري لم أحظ بصديقة رقيقة مثلك، بل لم أحظ بأصدقاء طوال حياتي..

صمتت برهة ثم قالت بخفوت بعد تنهيدة كبيرة:

لقد عانيت كثيرًا بعد فقد ريانة.. لقد كانت أمانة أمي التي ضيعتها.. لم يكن الأمر هينًا على الإطلاق..

تنهدت مرة أخرى ثم اغرورقت عيناها بالدموع وهي تتابع

وأزعم أنه لم يكن هينًا على ريانة، لقد شاهدت جثة أمي أمامها.. كنت أجن كلما فكرت فيها كيف تحيا تلك الصغيرة، من يهتم بشئونها..

مسحت دموعها بباطن كفيها ثم ابتسمت وهي تتابع:

ولكن ما أثلج صدري حقًا أنها كانت معك لم أكن لأخاف عليها مثلك أو أهتم بشئونها كما فعلت رغم أنكما متماثلتان في العمر تقريبًا إلا أن بداخلك مخزون كبير من العطاء جعلك لها نعم الصديقة الوفية الأمينة.. صدقيني لن أوفيك حقك مهما حييت.. ولن أستطيع أبدًا أن أعوض مكانك، أنت لها ولي أخت وصديقة.

التفتت إليها آسية بعينيها الزيتيتين وقد اشتعلتا احمرارًا من أثر البكاء ليتعانقا وكلاهما تهمس بكلمات غير مفهومة من أثر البكاء..

بدأت آسية في الاندماج مرة أخرى معهم بعد جلسة ريحانة معها، لم تكن كما كانت من قبل ولكنهم قنعوا بما حصلوا عليه منها.. آملون أن ينسيها الوقت الخطأ الذي اقترفوه في حقها وتعود كما كانت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل وفاة الملك سنمار

تحركت مارا في ثوبها الفضفاض بمحاذاة النهر، كانت تنظر إلى صورتها على صفحة المياه الرائقة تبتسم لنفسها من آن لآخر فهي جميلة جميلات المملكة التي تقدم لخطبتها الكثير ولكنها رفضتهم جميعًا من أجل جلوان القائد الشجاع الذي أغرمت به منذ أن تفتح قلبها على الحب وما إن علم والدها الملك سنمار برغبته في الزواج منها حتى وافق على الفور.. وتمت الخطبة وتحدد يوم المراسم موعدًا لزفافهما..

كانت قد وصلت للمكان الذي اعتادت أن تقابل فيه جلوان فوجدت المكان خاليًا، تمنت من داخلها ألا يتأخر كعادته دائمًا في الفترة الأخيرة ولكنها على كل حال ليس أمامها سوى الانتظار، رفعت طرف ثيابها ثم جلست على صخرة عالية وجعلت وجهها مقابلًا للطريق الذي سيأتي منه جلوان لكي تستطيع أن تراه من بعيد..

ولكنها لم تكد تستقر في جلستها حتى سمعت صوتًا يأتي من خلفها فالتفتت بحدة وراءها ولكنها لم تجد شيئًا..

ظنت آنه جلوان يريد إخافتها كعادته فقالت بضيق وهي تستقيم واقفة:

جلوان.. كف عن عبثك هذا.

ولكنها لم تجد ردًا فانقلب الضيق بداخلها لتوتر ثم تحول لهلع عندما سمعت صوتًا يأتي من يمينها فتراجعت للخلف خطوتين فزلت قدمها لتهوي من على تلك الصخرة وهي تصرخ رعبًا ولكن قبل أن ترتطم بالأرض كانت هناك يدان قويتان تلقفتها وصاحبها يقول بانتشاء:

هل أعجبتك المزحة؟!

ضربته مارا على صدره ثم تخلصت من يده وابتعدت غاضبة دون أن تتفوه بكلمة قطع جلوان الطريق عليها وهو يقول معتذراً:

سامحيني يا حبيبتي.. لا أجد غيرك تحتوي عبثي الطفولي هذا.

زمجرت معترضة وعيناها تلقي حممًا:

هذا ليس عبثًا.. لقد كدت أموت رعبًا.. خاصة وأنك تصر على أن نلتقي بالقرب من هذا الكهف الملعون.

آسف مرة أخرى..

ثم تابع وهو يرفع كفه معترضًا بطريقة مسرحية:

لا تقولي على كهف بيتوس ملعون، إنه المكان الذي شهد أروع قصة حب في تاريخ المملكة « مارا وجلوان»

ابتسمت مارا لدعابته ولكنها قطبت جبينها لتقول مرة أخرى بجدية:

جلوان أنا فعلا أخشى هذا الكهف الملعون.. تدور حوله الكثير من القصص التي ذكرها كفيل على بث الرعب في قلوب من يسمعها..

اقترب منها ليضمها إليه ويجلسها بجواره وهو يقول:

كهف بيتوس ليس له سوى أسطورة واحدة صحيحة.. يقولون أن ملوكنا قديمًا كانوا يبدلون قوانين المملكة كلٌ تبع هواه حتى جاء الملك الأعظم وجمع كبار العلماء والحكماء والمستشارين وقام بوضع قوانين دائمة للمملكة ولقد عكفوا على كتابتها سنوات وبعد أن انتهوا من كتابتها جمعوها بين دفتي كتاب أسموه «كتاب المواثيق»، ولكي يضمنوا استمرارها وعدم تبديلها حفظوها في هذا الكهف الذي يحرسه وحش عملاق يسمى بيتوس.. تقول الأسطورة أن هناك أميرة حسناء نقية القلب ستأتي يومًا ما تستطيع دخول هذا الكهف وترويض بيتوس والحصول على كتاب المواثيق وعندها يحق لها أن تحذف منه تلك القوانين الجائرة.

ورغم أن مارا تحفظ تلك الأسطورة إلا أنها كانت مستمتعة جدا بحديث جلوان حتى أنها قالت:

أكثر ما يعجبني فيك يا جلوان حماستك التي لا تنطفئ أبدًا.. صدقًا أتمنى أن أرى بعيني تحقيق تلك الأسطورة..

وأنا أيضًا يا مارا أحلم بهذا اليوم التي نستطيع فيها تغيير بعض من تلك القوانين التي بها ظلم بين.. أتعلمين؟

مممممم.

لا أرى غيرك قادرة على فعلها.

ردت بانزعاج وهي ترتد للخلف:

أنا!!!!

نعم أنت أنقى من قابلتها قلبًا يا مارا.. يكفي أن قلبك اختارني

ضحكت ضحكة طويلة على إطرائه ثم قالت بجدية:

أنا لا أفقه شيئًا في أمور المملكة، أنا لا أصلح سوى لشيء واحد.

سألها بجدية

ما هو؟

ردت بدلال وهي تلتصق بصدره:

أن أكون حبيبتك.

زاد من احتضانها قبل أن يبعدها قليلًا ليتحسس وشمًا محببًا إلى قلبه يستقر بين عينيها ثم قبله هامسًا:

أنت حبيبتي يا مارا، لم يرَ القلب غيرك وقريبًا جدًا ستصبحين زوجتي.

استقرت في حضنه مرة أخرى تستمتع بأنفاسه الدافئة وكلماته الحانية ولكنها اغتاظت حينما أضاف يستفزها:

عندما نشيخ ونعجز سآتي بك إلى هنا حيث الراحة والسكون بعيدًا عن ضوضاء المملكة.

فابتعدت عنه وهو تقول بغضب:

لا يا جلوان لن آتي إلى هنا مرة أخرى، أنا حقًا أخشى هذا الكهف وتلك المنطقة النائية.

قالتها ولم تكن تدرك أنها ستكون زيارتها الأخيرة لساحة كهف بيتوس، فما حدث بعدها قلب أمورهما رأسًا على عقب..

فلقد قتل أبوها بعد لقائهما بأيام قليلة.. وأصبحت هي حبيسة القصر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أسبوعان مرا، وأصبح عامر راضيًا بنسبة جيدة عن تدريبهم بينما كانت نون منبهرة حقًا بالنتيجة التي وصلوا لها.. كانوا قد اخترقوا الغلاف الجوي لكوكب بيروكسيما فتوترت ملامح عامر وهو يلقي عليهم التعليمات النهائية، احتلت الفتيات أماكنهن بينما اقترب منه أيوب قائلًا بجدية:

أهناك ما يزعجك يا عامر؟

ابتسم عامر ابتسامة باهتة ثم قال:

لا شيء.. نحن فقط قد اقتربنا.. ولم أكن أخطط أبدًا أن أتكفل بحماية فتيات أربع.

وأين أنا إذن؟ حمايتهن وظيفتي معك.

شكرًا لك يا أيوب أنك نحيت خلافاتنا جانبًا.. ان شاء الله لن نتعرض لمكروه.

ظل الجميع صامتًا يترقبون ما حولهم وقد انتقلت إليهم عدوى التوتر حتى استوت المركبة على سطح كوكب بروكسيما وفتح عامر باب المركبة بهدوء ليخرج الجميع يتطلعون بذهول لسطح الكوكب الرمادي؛ فالكوكب كان عبارة عن أرض جرداء وأطلال لا أثر فيه للحياة.. تعلقت عيون الجميع بعامر الذي عقد حاجبيه ونون تسأله بريبة:

عامر هل هبطنا على الكوكب الصحيح؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٠-

عادت مارا للقصر منتشية بعد لقائها بجلوان وكأن النظر إلى وجهه والحديث معه كفيلان بدفع الحياة إلى وجنتيها والسعادة لقلبها.. ولكنها عقدت حاجبيها عندما سمعت أصواتًا متداخلة في غرفة أبيها، طرقت الباب ثم دخلت سريعًا لتجد أخاها طراد يصيح بأبيها:

لقد شِخت يا أبي وأصبحت تهذي، لابد أن تتراجع عما برأسك.. وتكف عن تقديم مصلحة هؤلاء الرعاع على مستقبل أسرتنا الحاكمة.

رد سنمار بإصرار:

ولكنني لن أتراجع.. أنت تنظر تحت قدميك يا ولدي..

تحولت عيناه لكتلة من الدم وهو يقول بفحيح غاضب:

أنت من اخترت إذن يا أبي..

ثم رمقه بنظرة تحدي قبل أن يتوعده قائلًا:

ستقف عند حدك أيها الملك العجوز.

ألقى جملته ثم رحل وهو يشتعل غضبًا حتى أنها أفسحت له الطريق خشية أن يحرقها لهيبه، تقدمت من أبيها مهرولة وهي تسأله بذهول:

أبي ما الذي حدث ليغضب أخي هكذا؟

رد سنمار وهو يحتضنها:

لا شيء يا بنيتي لا شيء..

ولكن ما أثار ريبتها أن أبوها قد أتاها في الليلة التالية يطرق بابها، كان يتحدث معها حديثًا شعرت أنه حديث وداع، يذكرها بليالي طفولتها الرائعة وذكرياتهما الجميلة التي صنعتها معهما أمهما وأخاها، ثم عرج على أحوال المملكة يوصيها بها قبل أن يضمها إليه وهو يقول:

أنت الأمل يا بنيتي.. أنت المستقبل..

لم تفهم ماذا يعني ولكن قلبها اضطرب وهي تسأله بصوت تمنت أن يخرج متماسكًا ولكنه خرج رغما عنها مهتزًا:

ماذا بك يا أبي؟ أهناك ما يقلقك؟

تجاهل سؤالها وأمسك وجهها براحتي يده وهو يقول بحكمة أب واجه الكثير من الصعاب:

لا تهني أبدًا فأنا أعلم أن بداخلك نفس أبية ما خلقت إلا لتقاتل من أجل العدل وستصبر حتى النصر.. ما عليك إلا أن تضربي بجذورك حتى العمق ولا تتعجلي قطف الزهر..

لم تكن تدرك ماذا يعني ولكنه تابع هامسًا:

بنيتي.. قد تسوء الأمور كثيرًا الفترة القادمة وتختلط الحقائق.

صمت برهة ليبتلع غصة تفسد عليه حروفه ثم واصل:

حينها ربما لن أكون بجوارك.. ولكن كل ما أطلبه منك أن تتبعي قلبك الطاهر واستمعي لجلوان.. لا تثقي في غيره ولا تجعلي أحدًا موضع سرك سواه.

كانت دموعها قد أعجزت لسانها عن الكلام فهزت رأسها ثم ارتمت في حضنه وهي تتمنى ألا يكون ما استقر في رأسها صحيحًا..

بعد زيارته تلك بأيام قليلة قتل والدها وأصبح طراد ملكًا وأضحت حوادث المملكة تدور حولها بسرعة متزايدة ولكنها ما زالت عاجزة عن استيعاب ما حولها؛ ما زالت واقفه عند اليوم الذي قتل فيه والدها.. جلوان هو الآخر أصبح يتغيب كثيرًا منذ تلك الحادثة وعندما عاتبته أخبرها أنه كلف بمهام جسام في الفترة السابقة لذلك عليه أن ينهيها وعندها سيتفرغ لها إلى الأبد.. وطلب منها الصبر ولكنه هذه المرة طال غيابه حتى ظنت أنه لن يعود أبدًا..

أسابيع قليلة وأعلن أخوها الملك أن أبوها قد مات منتحرًا ولم يستمع لتوسلاتها ولم يلن لدموعها كي يفتح التحقيق مرة أخرى فأبوهما لا يمكن أن يكون قد مات منتحرًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متدثرة في فراشها تتلفت بين أروقة قلبها بأعين زائغة وقلب منهك وروح مسلوبة.. تريد أن تهرب من واقعها لذكرى جميلة عاشتها مع أبيها وأمها أو مع جلوان الذي لا تعلم عنه شيئا.. ولكن عقلها تآمر عليها ووقع عقدًا مع ذكرياتها الحزينة التي اتخذت من رأسها ساحة لحرب ضارية أبت أن تضع أوزارها حتى تظفر بما تبقى من روحها.. اعتصرت جانبي رأسها بقبضتي يدها تمنعها من الانفجار عندما انتبهت على صوت يأتي من خلف شرفتها وكأن هذا الصوت هو طوق النجاة التي ستهرب به من تلك الحرب الدائرة، هبت من فراشها تفتح الشرفة بحذر، تقدمت للأمام خطوتين تتلفت في حديقة القصر ولكنها عادت لغرفتها تهز رأسها أسفًا على تخيلاتها التي أصبحت كثيرة في الفترة السابقة، أغلقت الباب ثم التفتت لتجد جلوان يقف خلفها تسمرت لحظات قليلة تحاول أن تتأكد أنه حقيقة ولكنه ابتسم وهو يفتح لها ذراعيه بشوق فاندفعت ترتمي بينهما ليحتضنها بقوة وهو يهمس بكلمات لا تعلم ماهيتها..

ابتعدت قليلًا عن حضنه تتأمل ملامحه على الضوء الخافت الذي يتسلل من شرفتها..

تحسست وجهه بأناملها ثم قالت بانزعاج:

جلوان ما الذي حدث لك؟ تبدو كأن عمرك قد تضاعف.. أين اختفيت؟

أنا لم أختفِ، لقد كنت مسجونًا.

ردت بفزع:

مسجون!!!

انفرجت شفتاه ليجيب ولكنه سمع صوت عصفور خافت فعلا التوتر وجهه ثم ابتلع ريقه وهو يقول:

دعك من كل هذا الآن.. إنه أمر يطول شرحه.. لا أستطيع المكوث هنا كثيرًا فأنا هارب من السجن.. أريد أن أقابلك غدًا بعد شروق الشمس، سأرسل لك من يدلك على الطريق..أعطني هذه.

قالها ثم اندفع مغادرا من الشرفة في لمح البصر بعد أن أخذ منها أسوره كان قد صنعها لها من الخيط الرفيع عند كهف بيتوس.

لحقت به مارا تنظر من حيث فر ولكنها لم تجد له أدنى أثر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحركت مارا لخارج المملكة بحذر ولكنها لم تجرؤ على الاقتراب من الطريق المؤدي لكهف بيتوس، ما زالت الأفكار السيئة تتلاعب بها عندما تقترب منه، الأسلم أن تظل واقفة على أول الطريق المؤدي له..

لم يدم انتظارها كثيرًا فلقد أتى إليها قزم ناولها أسورتها ثم قال بعد أن تأمل ملامحها:

سيدي ينتظرك.

ارتبكت وهي تنظر للقزم ، كانت المرة الأولى التي ترى فيها أحد من قوم الجعسوس..

تذكرت أنها عندما كانت صغيرة وضعت خادمة أمها طفلًا صغيرًا وأصرت على الذهاب مع أمها لترى الطفل الصغير، تحركت بجوار أمها على الدرج وهما يحملان الهدايا للصغير وأمه بسعادة، تحب هي الأطفال واللهو معهم، منحتها أمها ابتسامة عذبة ما زالت تتذكرها إلى الآن ولكنهما ما إن دلفا لحجرة الخادمة حتى وجدتها تبكي بحرقة وهي تضم صغيرها إلى صدرها وتتمتم بكلمة واحدة «إنه جعسوسي» كانت المرأة ترددها مرارا وتكرارا.. حولت مارا نظرها بين أمها وبين الخادمة تريد أن تفهم ما سر حزنها وقد جاءها طفل حديث. رددت المرأة الجملة مرة أخرى بحرقة أشد:

«إنه جعسوسي يا مولاتي»

لم تفهم معنى الكلمة ولكن وقعها على أمها كان هائلًا فلقد وضعت يدها على فيها ثم مدت يديها تتناول الطفل منها كان طفلًا بريئًا يضاهي القمر في جماله وبيد مرتعشة فكت الخادمة لفافة حول يده لتظهر يده اليسرى بأربعة أصابع فقط..

وفي طريقهما للعودة لجناحهما كانت مارا تكاد أن تطيح برأس أمها من كثرة أسئلتها عن هؤلاء الجعسوس..

فهمت منها أن أي طفل في المملكة يولد بعيب خلقي مهما كان صغيرًا يتم نفيه إلى وادي الجعسوس الذي يضم أمثاله من ناقصي الهيئة..

علمت أن هذا الوادي يقع تحت المملكة يتم الوصول إليه عن طريق سراديب مغلقة بأبواب يحرسها عساكر قائد الجيوش.. ولأنهم منبوذين لم يجرؤ أحدهم على الدخول للمملكة، لا يدخلون إلا خلسة وبعيدًا عن أعين الناس وفي أيام محددة فقط..

يحق لأهل هؤلاء الأطفال أن يلتحقوا بهم في الوادي ولكن عندها يحرم عليهم العودة للمملكة مرة أخرى.

صفقت مارا بكفيها في براءة ثم قالت:

ولماذا تبكي الخادمة؟ كل ما عليها أن تذهب للعيش مع طفلها.

ردت الأم بأسى:

الأمر ليس بهذه السهولة يا بنيتي عليها أن تخدم عامًا كاملًا في بيت الغفران أولًا ليسمح لها بالعيش في وادي الجعسوس.

فرت مارا من أمام أمها غاضبه وهي تضرب الأرض تحت قدميها.

أسبوع واحد فقط وتم انتزاع الطفل من أمه، بكت مارا وهي تشاهد الخادمة تصرخ وتزحف بلوعة خلف طفلها.. التفتت إلى أمها قائلة:

إن هذا ظلم.

ولكنها القوانين يا بنيتي.

قوانين جائرة يا أمي.

ردت أمها بخفوت:

أعلم ولكن ماذا عساي أن أفعل؟

بعقلها الصغير ظنت أنها تستطيع تغييرها فذهبت لوالدها تطلب منه هذا الأمر فقال وهو يجثو على ركبتيه أمامها:

الملك ملك لأنه يحترم القوانين فإذا خالفها يومًا يصبح من العامة، هذا أول درس لابد وأن تعيه في أمور المملكة.

ومن حينها أصبحت أمها تجنبها مثل تلك المواقف.

وعندما كبرت كانت تسمع عن واديهم وأنهم تكاثروا وأنجبوا أطفالًا أسوياء أغلبهم ظلو بجوار والديهم والقلة منهم من حالفه الحظ ليعيش مع الأسوياء فوق سطح المملكة ولكن هذا الأمر لم يكن سهلًا، كان له ثمنًا، وثمنًا كبيرًا.

أغنياء المملكة الأسوياء الذين حرموا من الإنجاب يقومون بأخذ أطفال من الجعسوس يتعهدون برعايتهم والاهتمام بهم ليصبحوا لهم أبناءً ولا يحق لوالديهم الجعسوس المطالبة بهم ولا رؤيتهم مادام كل شيء تم في بيت الغفران..

وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع الجعسوس أن يضمنوا لأبنائهم عيشًا أفضل.

سيل من الذكريات اندفع إلى رأسها وهي تنظر جامدة إلى القزم الواقف أمامها الذي مل انتظار ردها فتحرك باتجاه طريقة يوقن أنها ستتبعه فلا مفر من ذلك ولقد فعلت..

خرجا من الطريق باتجاه الجبل، صعدا على درجات صخرية متهالكة، لم تكن مارا متأكدة أنها تستطيع الوقوف عليها ولكنها لا تملك بديلا مع ذلك القزم قليل الكلام الذي تسلق الجبل بسهولة بينما جاهدت هي لتصمد حتى القمة ثم بدأت رحلة هبوطهما التي لم تكن بنفس المشقة وما إن وصلا لمنتصفه هبوطًا حتى توقف القزم ليقول بجمود:

استعدي يا سيدتي.

كادت أن تسأله عن ماذا تستعد ولكنه لم يترك لها وقتًا للسؤال عندما ضغط بكفه على نتوء صغير بجوارها لتنفتح الأرض تحت أقدامها ثم تهوي في حفرة سحيقة تنتهي بسرداب مائل تقاذفتها جانبيه يمينا ويسارا دون أدنى مقاومة منها حتى وصلت لنهايته بعد دقيقتين، شعرت حينها أن عظامها قد تحطمت وأنفاسها قد تراجعت وقوتها قد انتهكت..

قامت تنفض عن ملابسها الغبار وهي تلعن هذا القزم ولكن عيناها كادا يقفزان من محجريهما عندما وجدته يقف أمامها بكامل هيئته دون أن تعلق بملابسه ذرة تراب واحدة..

كادت أن تسأله كيف وصلت إلى هنا قبلي وقد تركتك فوق الفهوة ولكنها سمعت جلبة تأتي من النفق الذي جاءت منه ثم جذبها القزم من يديها وهو يهتف:

احترسي.

تحركت بفعل جذبته لليسار ثم ثوانٍ قليلة وخرج قزم مشابه تمامًا للقزم الواقف أمامها نفض ملابسه وهو يقول:

أنا راو وهذا أخي كايو.. نحن توأمان.

حياها كايو ثم قال:

أهلا بك يا مولاتي في وادي الجعسوس.

ثم أضاف بود:

نحن آسفان على الطريقة التي أحضرناك بها إلى هنا ولكن هذا الباب هو الوحيد الذي يبعد عن أعين حراس الوادي.

عقدت حاجبيها ولكنها تابعتهما صامتة حتى عبروا نفقًا صخريًا ضيقًا ومنه إلى آخر حتى دخلت كوخًا متهالكًا تستحي أن يكون مأوى لخادمها لتجد جلوان أمامها فتتنفس الصعداء أخيرًا..

مسح ذرات التراب العالقة بوجهها وهو يهمس:

سامحيني

جلس بجوارها بعد أن رحل راو وكايو ثم تحدث:

كيف حالك يا حبيبتي؟ كيف أصبحتِ دوني؟

دعك مني الآن.. آنا لم آنم منذ البارحة أريد أن أفهم كل شيء، كيف سجنت؟ وكيف هربت؟ وما الذي رماك في هذا الوادي الملعون؟

كانت تتحدث باندفاع كعادتها فابتسم ثم جاوبها بهدوء:

لقد سجنني أخوك طراد.

تساءلت مستنكرة:

لماذا؟

لأنني كنت أجري تحقيقا سريًا في مقتل أبيك.

وما شأن أخي بهذا الأمر؟ لماذا يضايقه هذا؟

تنحنح جلوان ثم ابتعد عنها قليلًا وتردد بعض الشيء فعقدت حاجبيها وهي تتابعه يدور في الغرفة ثم تحدث أخيرًا:

لقد توصلت لقاتل أبيك.

هتفت بحماس:

رائع لماذا لم تخبر طراد ليعدل نتائج تحقيقاته التي تقول أن أبي انتحر.

طراد هو قاتل الملك سنمار.

قالها سريعا يلقي ثقلها عن كتفيه فهبت من مكانها وقد انطفأ حماسها وقالت بحشرجة:

أنت تهذي بالتأكيد.

لم يرد عليها وأشاح بوجهه فتقدمت نحوه تجذبه من ذراعه لتجبره على مواجهتها وهي تهزه بعنف تداري ارتعاشة شفتيها وهي تصرخ:

جلوان لا تقتلني بصمتك هذا وأخبرني أنك لا تقصد أن أخي قد قتل أبي.. هذا صحيح؟

جاوبها بحسم:

ولكنها الحقيقة يا مارا.. أخوكِ قاتل.

ترنحت قليلا من الصدمة وعجزت حروفها النازفة عن التعبير وقادت دموعها الحديث، ترك لها جلوان فرصة لتخرج ما بداخلها، ثم جلست تبكي في صمت فجاورها جلوان صامتًا وبعد قليل تحدث بهدوء:

قبل مقتل الملك سنمار كان يقوم بمشروع لكي يستطيع تغيير كتاب المواثيق أو لكي يجعلها باطلة ويكتب كتابًا آخر للمواثيق.. وأنت تعلمين أن هذا من شأنه نزع السلطة عنه وعن كل أولاده ولقد تسرب الخبر لأخيك طراد، لا نعلم كيف تم ذلك ولكن طراد تعجل الأمور وقتل والدك ثم حلت اللعنة.

من بين دموعها تساءلت:

لماذا هربت إلى الجعسوس؟ وما علاقتك بهم؟

الجعسوس كانوا يشكلون النهضة التي يحلم بها أبوك، كل أبحاثنا كانت تدور هنا، منهم كونت جيشًا صغيرًا لأكون قادرًا على حماية المملكة لحظة تغيير كتاب المواثيق.. كنت أنا الرسول بينهم وبين أبيك فلذلك لجأت إليهم..رأينا أنه لابد وأن يتم هذا الأمر بعيدًا عن أعين قائد الجيوش جيساو؛ وإلا استولى على السلطة وتدمر كل شيء.. لذلك كان الممر السري الذي جئت منه اليوم هو بوابتي لوادي الجعسوس.

وماذا الآن؟ لماذا تخبرني بكل هذا؟

تنهد ثم قال بصوت قوي مليء بالحزم:

لابد وأن تتولي الحكم بدلا من طراد.

نظرت إليه بحدة غاضبة فأكد كلامه:

أنت الوحيدة القادرة على تنفيذ مشروع الملك سنمار.

كانت تتمنى أن يتراجع عن قوله ولكنه صدمها بقوله فتحدثت ساخطة وقد بلغ غضبها ذروته:

أتعلم بأي شيء يتفوه فوهك؟

صمت جلوان وقد بدا عليه التأثر، فتابعت وهي تتحرك بالغرفة بعصبية غير مصدقة لما قال:

إذا أصبحت الحاكمة فلن نتزوج أبدًا.. أنت لست من نسل الحكام..

ثم اقتربت منه فجأة تضربه بيدها في صدره وهي تصيح:

لقد رضيت أن أخرج من نسلهم في سبيل أن أكون بجوارك فكيف تستطيع قولها؟ كيف تضحي بحبي لك هكذا؟

زاغت عيناه وقاوم دمعة كادت أن تفر من عينيه وهو يقول بخفوت:

أنا لا أطيق البعد عنك ولو ليوم واحد.. ولكنه قدرنا.. يجب أن نضحي من أجل حياة أفضل لشعبنا.

كان يقصد بجملته تهدئتها ولكن ما حدث أن غضبها قد زاد أضعافًا وارتعشت شفتيها دون أن تتفوه بكلمة لتسمعه يقول:

بعد أن تنفك اللعنة ستستقر أمور المملكة بين يديك و...

وكيف ستنفك اللعنة؟

زفر ثم قال:

كما قال الحكيم.. من قتل يقتل ويشرب البحر من دماء الظالم كما ارتوى من دماء المظلوم.

ضربته في كتفه مرة وثانيه وثالثة ثم تفجر غضبها في هيئة كلمات حارقة:

لقد جننت.. جننت بالتأكيد.. أنا لا أوافقك على هذا الهراء ولا أقبل أبدا أن تحصل على دماء أخي.. لا أدري كيف أحببتك يوما؟ أنا لا أصدق كلمة واحدة مما قلت.

التقطت أنفاسها ثم أشارت إليه وهي تبتعد باتجاه باب الغرفة وهي تصرخ به:

أعلم أنك قد ارتكبت جرمًا عظيمًا، ربما تكون أنت قاتل أبي وحبسك أخي وأردت أن تتجو بنفسك على دمائه.. لا ياجلوان لن أسمح لك أبدًا.. إذا اقتربت من طراد سأقتلك بيدي.

وتركته ورحلت ذاهبة ليدخل راو قائلًا:

هل نتبعها يا سيدي؟

لا يا راو.. دعها.. أنا أعلم أن نقاء قلبها سيقودها للحقيقة..

ثم أضاف بعد برهة:

اذهب الآن وأبلغ العالم ماشو أنني سأزوره ليلًا، لابد وأن يكون قد انتهى من التركيبة.. الوقت يداهمنا.

وبعد أن ذهب وقف جلوان يتطلع من النافذة حيث ذهبت مارا غاضبة.. يوقن أنها لن تشي به ولكن الأمانة التي حملها له الملك سنمار لن تكتمل إلا بتعاونها.. عليه أولًا أن يرى تركيبة العالم ماشو وبعدها يقرر ماذا سيفعل..

هذه التركيبة تعني له الكثير..

إنها الضمان الوحيد الذي سيحفظ لمارا حكمها وللشعب كرامته..

الضمان الوحيد الذي سيحميها من ألاعيب جيساو التي لا تعلم عنها شيئًا..

ومن أعمق جزء في قلبه تمتم:

آآآآآآآآه يام ارا.. لو تعلمين كم أحبك! وكم يتمزق قلبي لأجلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١١-

بحلته العسكرية وقف جيساو رافع الرأس بخيلاء يتابع بعض العروض العسكرية وبجواره وقف الملك طراد يرد تحية العساكر والجنود كفأر يجاور ثعلب، فأر يظن أنه يزأر كالأسد، وثعلب يزعم أن خيوط اللعبة بيده يحركها كيفما شاء.

بعد انتهاء العرض وانصراف الملك حضر أحد العساكر ليهمس في أذن تارا مساعد جيساو المخلص الذي تغيرت ملامحه ثم صرف الجندي فنظر إليه جيساو وهو يقول عاقدًا حاجبيه:

ما الذي حدث؟

لقد رصدنا الأميرة مارا تخرج من إحدى بوابات وادي الجعسوس.

التمعت عينا جيساو ببريق عجيب وهو يقول:

رائع يبدو أن الخطة تسير كما أخطط ياتارا.. جلوان أرسل لمحبوبته.. ولا يعلم أن لي ألف عين في الوادي.

صمت تارا وهو يتابع سيده الذي تحرك خطوتين ثم أكمل وهو يلتفت لتارا:

هذا الغبي لابد وأنه أخبر الأميرة بشأن تحرياته.

قلب تارا يديه ثم قال حائرًا:

ما زلت يا سيدي لا أدري لماذا وضعت في طريق جلوان تلك المعلومات التي تدين الملك؟

قهقه جيساو ثم اقترب منه متحدثًا:

أنت لا تعرف جلوان مثلما أعرفه.. جلوان كان سيصل لتلك النتيجة.. كل ما في الأمر أنني اختصرت عليه بعض الوقت والمجهود.

ولمَ؟! ألسنا نعمل في ذات الصف مع الملك؟

أمسك جيساو يده وهو يقول بقسوة:

أنا لا أعمل إلا في صف نفسي يا تارا.

ابتلع تارا ريقه قبل أن يسأل:

الآن هل سنخبر مولاي الملك بشأن الأميرة أم...

رفع جيساو يده محذرًا وهو يقول بحسم:

إياك يا تارا.. هذا الأحمق لابد وأن يظن أنه يسيطر على كل شيء حتى تنتهي خطتنا ونحكم قبضتنا على المملكة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تشعر أنها في بحر متلاطمة أمواجه لا تكاد تنجو من موجة حتى تضربها أخرى، في داخلها لا تستبعد فعل أي شيء على طراد فهو دائمًا متهور يتصرف قبل أن يفكر ولكن هناك جزء في عقلها يرفض تصديق أن يكون توأمها بهذه الخسة وتلك الوضاعة..

لابد وأن الأمر قد اختلط على جلوان.. تتمنى لو يتراجع عما برأسه ولا يدخل في تلك الصراعات المشئومة.. ولكنها تعلمه جيدًا ما دام أخبرها بهذا فلن يتراجع حتى يقتل دونه..

«هذا الملعون لا ينظر إلا لنفسه ولا يحب سوى ذاته..كنت أظنه يحبني كما أحبه ويقدمني على نفسه كما قدمته على كل شيء..»

تمتمت مارا بحنق ثم أضافت وقد تحول حنقها إلى غضب:

«والأدهى أنه يقول بكل بساطة أنه سيقتل أخي! سأقتلك يا جلوان غير مأسوفة إن فعلت هذا»

قالتها ثم قامت إلي المغطس لتطفئ نيران غضبها، تريد أن تتريث قبل اتخاذ أي قرار ربما تندم عليه فيما بعد فالرؤية أمامها أصبحت مشوشة والأوراق قد اختلطت..

وقت طويل مكثت في مغطسها الخاص وذهنها لم يصفُ بعد ولكن ما لفت انتباهها عند عودتها للغرفة أن شرفتها كانت مفتوحة، هرولت تلقي نظرة على حديقة القصر، تمنت لو كان جلوان قد أتى يعتذر عما قاله لها منذ أيام ولكنها لم تجد أحدًا، فقط لفافة وبجوارها رسالة..

قلبت اللفافة بين يديها ثم فضتها لتتفاجأ بزجاجة مياه شفافة لم ترَ مثلها منذ شهور، مياه نقية لا أثر فيها للدم.. فتحت الزجاجة بحذر تشممتها أولًا، رائحتها لا تحمل رائحة المياه المخزنة بالصهاريج إنها مياه قد ملئت حديثًا عقدت حاجبيها فهي تعلم أن كل مياه المملكة قد حلت عليها اللعنة حتى هي تقتني تلك القنية السوداء التي يشرب منها الجميع.. رفعت الزجاجة لفيها لتتذوقها ببطء تلذذت بطعمها الغائب عنها منذ شهور كثيرة.. ثم عقدت حاجبيها عندما انتبهت للرسالة التي بيديها الأخرى فضتها سريعًا لتقرأ ما بها:

«شعبنا يستحق أن يشرب مياه نقية.. يستحق أن يحيا حياة كريمة عادلة.. قومي بمهامك أيتها الملكة»

اشتعل غضبها الذي كان قد خبا قليلًا مرة أخرى فصرخت وهي تقذف الزجاجة في الجدار أمامها تهشمها:

سحقًا لك يا جلوان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظت مارا على جلبة شديدة بداخل القصر، خرجت لتجد العساكر تملأ المكان وأحدهم يقول:

لقد قُتل الملك طراد وأصيب قائد الجيوش.

اندفعت باتجاه قاعة الحكم لتجد جيساو قد اكتست ملابسه بالدماء وضمد ذراعه على عجل نظرت إليه متسائلة بفزع دون أن تتفوه بكلمة فقال وهو يستدعي دموعه مشيرًا إلى حيث جسد طراد:

لقد حاولت إنقاذه ولكنني جرحت وقتلوه هو.

تقدمت ببطء من الجسد المسجى أمامها لتجلس بجواره.. دومًا كانت تقول له لقد آتينا للحياة في الساعة نفسها وسنرحل سويًا يا شقيقي.. حتى الآن لا تدري من فيهما أكبر من الآخر؟ من أتى إلى الحياة أولًا؟ لم تخبرها أمها ولم تسأل هي..

وضعت يدها على الغطاء تحسسته ثم ردتها إلى جوارها مرة أخرى كررت المحاولة وفي كل مرة تفشل في التقاط طرف الغطاء وبعد أن نجحت في الإمساك به في المرة الأخيرة بدا ثقيلًا لا تستطيع رفعه خاصة مع ارتعاشة يديها التي لاحظها كل المحيطين بها، حاولت أن تمسح دموعها باليد الأخرى لتتجلد ولكنها صعقت عندما أدركت أنها لم تبكِ بعد..

في النهاية رفعته مغمضة عينيها ثم فتحتهما ببطء لتجد أمامها ما حاولت نفيه، أخوها مقتول ولا أثر للدماء في وجهه كأن أحدهم قد سحب الدماء عن عمد من عروقه.. أول ما دار بخلدها أن جلوان نفذ تهديده، لم يدم تأملها لوجهه سوى ثوان قليلة وبعدها غابت تمامًا عن الوعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رفض عقلها تصديق هذا الكابوس الذي تحياه.. لم تعد تشعر بالأمان في هذا الوطن.. ولم يعد قلب جلوان لها مأوى.. تفر من واقعها بتلك الغيبوبة.. ولكن لابد لها أن تستيقظ وقد فعلت..

استيقظت لتجد واقع آخر أكثر مرارة، أخوها وأبوها قُتلا، ولعنة تعصف بالمملكة، وحبيب أصبح هو الخنجر الذي أدمى قلبها، تشعر أن كل حبها السابق لجلوان قد تحول لغضب.. بل كراهية، أصبحت تمقته بكل نبضة في قلبها، نادت باسمه وبكل لحظة من وقتها صرفتها في التفكير به.. كان بالنسبة لها كل شيء ولكنه صدمها في كل شيء.. حتى ولو كان أخوها هو القاتل ما كان يجب أن يتورط هو في هذا الأمر خاصة وأنه يعلم كم سيؤذيها هذا، دموعها ما عادت تجدي ولا تشفي.. كل ما تعلمه الآن أن قلبها ناقم وساخط على جلون..

دخل عليها جيساو وقد تعافى كثيرا.. فقط خط رفيع باق من أثر جرحه، وبعد أن اطمأن عليها قال:

مولاتي لقد قبضنا على الخائن جلوان وأتباعه.. ننتظر منكِ إذنًا لتنفيذ الحكم.

قالت بإحباط:

هل تمت محاكمتهم.

نعم رئيس قضاة بيت الغفران قد تولى محاكمتهم بنفسه.. وقد ثبت أنهم مذنبون.

نظرت له نظرة جامدة فتابع وهو يضغط على زر تشغيل التواصل أمامها:

حتى شعب المملكة ينتفض من أجل القصاص، أي تأخير في هذا الأمر ربما يعرض المملكة لاضطرابات لا نتحملها الآن.

نقلت نظرها بين الشاشة الوهمية التي تنقل لها ردود أفعال الناس الغاضبة وبين وجه جيساو الذي ينتظر إذنها وبعد تردد وبغصة تحرق قلبها تحدثت والدموع تخنقها:

حسنا ياقائد الجيوش.. أخبر بيت الغفران ليستعدوا للقصاص.

ومراسم التتويج؟

سألها جيساو بلهفة واضحة ولكن مارا لم تنتبه لهذا وجاوبته وهي تنظر للفراغ أمامها:

أعتقد أن هناك من يستطيع قيادة المملكة بطريقة أكفأ مني.. أنا أفكر في الرحيل عن هذه المملكة، ولكن لننتهي من القصاص أولًا لن أستطيع التفكير في شيء قبل القصاص لأخي..

ثم أضافت بقسوة نمت بداخلها بفعل الأحداث التي مرت بها:

لا أريده قصاصًا عاديًا.

نظر إليها جيساو يستوضح فجاوبت:

أريد أن يتم القصاص في الساحة وعلى منصة الإعدامات وبنفس الطريقة القديمة.

فتح جيساو فاه غير مصدق ثم قال ببطء وهو يشير لها:

تقصدين؟!!!

ردت بثبات:

نعم يا جيساو سأقطع رأسه بسيف الملوك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرج جيساو من عند مارا وهو غير مصدق أن الأميرة مارا قد تبدلت هكذا، لقد اختارت أبشع قتلة لجلوان وستنفذها بنفسها أمام الجميع.. ربما لو قتلته بأحد الأسلحة الحديثة لكان الأمر أسهل ولكن يبدو أنها تعاني كثيرًا وتريد الانتقام بنفسها وهي التي لم تمسك سلاحًا من قبل، عليه أن يكون مستعدًا ويضاعف الحراس في هذا اليوم لكي يتجنب ألاعيب جلوان التي لا تنتهي..

بالفعل عقد جيساو مؤتمرًا ليعلن أن القصاص سيكون في الساحة الكبيرة المقابلة لبيت الغفران أمام الحشود وقبل أن ينصرف سأله أحد الصحفيين:

لماذا لم تتم مراسم التتويج حتى الآن؟

الأميرة ترغب في القصاص أولًا ثم ستقرر إذا كانت ترغب في عقد مراسم التتويج من أجلها أم من أجل شخص آخر.

سأله صحفي آخر:

كلنا نعلم أن الأميرة مارا لم يكن لها اختلاط بالحكم، فهل إذا رفضت تولي أمور المملكة ستنتقل السلطة لك كما يقول كتاب المواثيق وتصبح عائلتكم تجمع ما بين الجيش وشئون المملكة؟

ضرب جيساو بقبضته على المنضدة التي أمامه ثم قال غاضبًا:

ليعلم الجميع أن السلطة ستظل في أسرة الملك العظيم سنمار.. لن نبدل ولن نحرف من بعده.. أنا لست طامعًا فيها أبدًا.. الأميرة تمر بظروف عصيبة ولكنها قادرة على قيادة المملكة.

قال جملته ثم انصرف غاضبًا ليظل حديثه هذا هو الشغل الشاغل للمملكة في وسائل الإعلام التي اتفقت جميعًا على أن جيساو هو الأجدر والمنقذ الأوحد الذي سينقذهم من مصير الكواكب المجاورة التي حل بها البؤس والدمار.. ولابد وأن يتم الضغط عليه إذا اعتذرت الأميرة ليقبل بالحكم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

امتلأت الساحة عن آخرها.. الجميع ينتظر هذا الحدث الذي لم يتكرر من قبل، فمنصة الإعدام القديمة قد أصبحت أثرًا ومزارًا سياحيًا بعد أن تم استبدالها بأسلحة حديثة للقتل..

الأسرة الحاكمة هي فقط التي لها خيار القصاص على هذه المنصة.. ويتم بعدها نفي أسرة المذنب إلى وادي الجعسوس ويظل نسله ونسل أسرته ملعونًا إلى الأبد بلا توبة أو رجعة.

وقف الجميع ينتظرون بصمت تارة وبهمس تارات أخرى.. انقسموا فيما بينهم ما بين مؤيد لقتل جلوان لأنه يستحق هذا وما بين معارض لأنهم يرون أن المحكمة غير عادلة ولم تدع له فرصة للدفاع عن نفسه ومن داخلهم واثقون أنه بريء.

كان المشهد مهيبًا بحق، على يمين المنصة تجلس الأميرة وبجوارها جلس جيساو الذي كان متوترًا على غير عادته وبجوارهما الوزير الكبير ومن خلفهم جلس باقي الوزراء.

وعلى يمين المنصة جلس قاضي بيت الغفران ورجال الدين الذين حملوا معهم نسخ مصغرة من كتاب المواثيق يحتضنونها بكلتا يديهم في تناسق عجيب.. بينما يتقدمهم القاضي الكبير يحمل بيده صحيفة ما..

دقائق وتعالت الهتافات الساخطة تارة والمتعاطفة أخرى لتدرك مارا أن جلوان يصعد للمنصة ورغم أن قلبها ارتجف أو كاد إلا أنها ضغطت عليه ليصمت فلن تتراجع أبدًا عن خيار القصاص، لابد وأن تدمره وتدمر أسرته من بعده كما دمرها وحرمها مما تبقى من عائلتها.

أما جيساو فلقد توترت خلاياه حد أنه قد قام من مكانه ينظر لمساعده الذي أشار إليه أن يهدأ، فالأمور كلها بين يديه فجلس مرة أخرى ولكن قلبه لم يطمئن.

صعد جلوان على منصة الإعدام ولأول مرة ينظر في عيني مارا معاتبًا ولكنها أولته نظرة كراهية وقسوة وكأنها تضغط على كل ذرة حب له فتسحقها..

ركع جلوان المقيد اليدين في منتصف المنصة يستمع لقاضي القضاة الذي خطب خطبة قصيرة قبل أن يشير لأحد القضاه فيأتي إليه بالسيف الملكي فيمسكه بيديه المفرودتين أمامه وتتعالى أصوات الموسيقى التي زادت الأجواء رعبًا..

ابتلعت مارا ريقها وشعرت أن ركبتيها لا تحملانها.. ولكنها تماسكت لتقوم ناحية قاضي القضاة تأخذ منه السيف ثم تتقدم ناحية جلوان، وقفت في مواجهته بينما صمت الجميع ينتظرون اللحظة الحاسمة.. نظرت إليه تنتظر تبريرًا أو طلب رحمة وعفو ولكنه قال بثبات:

كان هذا هو طريقك الوحيد للحكم.

تمعض وجهها ثم اكتسى بالقسوة وهي تتمتم:

لو تعلم كم أبغضك اليوم يا جلوان.

ثم رفعت يديها وقبل أن تهوى على مؤخرة رأسه رأته يحرك شفتيه دون صوت قائلًا:

وأنا أحبك.

شعرت أن السيف كاد أن يسقط منها ولكنها تماسكت لتهوي به على مؤخرة رأسه أو المكان الذي كانت به مؤخرة رأسه فلقد اختفى جلوان تمامًا وكأن المنصة قد انشقت وابتلعته.. نعم هذا ما حدث لقد انفتحت فجوة بالمنصة وابتلعته!

تقدم منها جيساو ليسألها:

أأنت بخير يا مولاتي؟

قالت وهي تلهث كأنها عائدة من سباق للتو:

نعم إنني بخير ولكنه هرب.

ابتسم جيساو ثم قال:

كلا لم يهرب لقد توقعت منه هذه الحيلة فهذه المنصة كانت مجهزة قديمًا لأحكام الإعدام شنقًا لذلك وضعت بداخلها فرقة للحراسة تحسبًا لتلك الخدعة.

لم يكد ينتهي من حديثه حتى أتى جنديان وهما يجران جلوان الذي تغطيه الدماء وأحدهما يقول:

لقد قتلناه يا سيدي كما أمرتنا.

قلبه جيساو بقدمه وهو يشعر بانتشاء عجيب، لقد تخلص من طراد وجلوان بضربة واحدة وأصبح هو المغرد الوحيد في تلك المملكة؛ انتشاء جعله ينفصل عن العالم حوله وتتسع ابتسامته دون أن يأبه بمن حوله لقد طويت هذه الصفحة للأبد.

وقفت مارا صامته تبحث عن النار التي أطفأها القصاص فلم تجد بداخلها إلا حريقًا مستعرًا وألمًا وحزنًا فاق حدود قدرتها..

لقد حطمت بيديها كل أمل تبقى لها في هذه المملكة وكل ذرة انتماء لهذا الوطن، أصبحت عازفة عن أي شيء وكل شيء..

نظرت بيأس إلى جيساو قائلة:

أعلن مراسم التتويج يا جيساو، لن أستطيع المكوث في هذه المملكة كثيرًا.

قالتها وهي تنصرف تجر قدميها التي صنعت الخيبة حولهما عقالًا يقيدها فلا تكاد تتحرك، الشوارع حولها أصبحت ضيقة تخنقها، تعتصر رقبتها، الوجوه من حولها شاحبة ترميها بنظرات الاتهام والاستنكار، يخترق أذنها سبابهم الساخط ونحيبهم المكتوم، الشمس من فوقها أصبحت باهتة قديمة فقدت الكثير من حرارتها ولم تعد قادرة على أن تمنحها الدفء والحياة..

ومن خلفها وقف جيساو وهو يضحك ضحكته الظافرة، يظن أن أيام سعده قد آتت فلن يوقفه أحد بعد اليوم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عادت مارا لغرفتها تلملم ما تبقى من روحها ولكنها لم تجد شيئًا.. روحها وئدت وأنفاسها انتهكت وأصبحت تتمنى أن تموت اليوم قبل الغد، تتمنى لو أن هناك ضربة صائبة تحصد روحها في ظل هذا الخبط العشوائي فتريحها..

فكرت أن تترك المملكة وترحل ولكن جزء صغير في عقلها وبعض من المسئولية تجاه شعب المملكة التي زرعها فيها والديها جعلها تعزف عن تلك الفكرة.. لابد وأن تتحمل حتى انتهاء مراسم التتويج وبعدها تفعل ما تشاء.. مرت الأيام بطيئة كئيبة تصبر نفسها فيها لا تكاد ترى شمسًا ولا تلمح نورًا، أصبح قلبها إسفنجة لا تمتص سوى الحزن الذي تغلغل به وملكه، تبحث عن منقذ وتعلم أنها لن تجده..

اقتربت مراسم التتويج.. غدا ستعلن تنازلها عن الحكم لجيساو وستترك تلك المملكة الملعونة للأبد.

سمعت صوت عصفور صغير، عصفور كان يزورها عندما يأتي جلوان، عصفور جعل كل مشاعر الندم التي حرصت على وأدها في الأيام السابقة تستيقظ..

خرجت إلى شرفتها تتفقدها بلهفة ولكنها لم تجد شيئا.. فعادت لغرفتها وخيبة الأمل بداخلها تتسع، ولكن طرقات خفيفة على بابها جعلتها تنهض مرة أخرى من فراشها لتفتح باب الغرفة بتكاسل ثم تتسع حدقتا عينيها وهي تنظر للواقف أمامها قبل أن تهتف:

أنت؟!!!!!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تجول عامر بناظريه في الأرجاء، كل شيء أمامه قد اكتسى باللون الرمادي لا أثر للحياة أمامه، جال بخاطره أنه ربما هبط بهم على الكوكب الخطأ، ودعم هذا الهاجس سؤال نون ونظرات ريحانة ونور وآسية المرتعبة.. تمنى من داخله ألا تكون آسية أخطأت خطأها السابق، كان يتمنى أن تسير الأمور طبيعة ويذهب بهم إلى القيادة أولا ولكن آسية شغلت البرنامج الاحتياطي وطبقا لحساباته هم على الكوكب الصحيح.

نظر في ساعته ثم رفع رأسه إلى نون يجيبها:

نعم يا نون نحن على كوكب بروكسيما.

تسأل أيوب هذه المرة:

ولكن هذا الكوكب لا أثر فيه للحياة.

لم يكد يتم كلامة حتى ظهر أمامهم خمسة من الجنود أحاطوا بهم وقائدهم يقول:

هبوط لكوكبنا بلا إذن.. يبدو أننا سنستمتع اليوم بحفلة عظيمة.

ثم أشار للجنود فتقدموا للقبض على الفريق.

كان عامر يدرس الموقف حوله ويحصي عدد الجنود بينما آمر أيوب الفتيات بالتنحي ليقف أمامهن شاهرًا مسدس الليزر الذي دربه عليه عامر، ضغط عليه ليلقي بباقة من أشعة الليزر تخترق بين أقدام الجنود وهو يقول:

إياكم أن تقتربوا.. وإلا لن يكون لنا خيار.

تراجع الجنود قليلًا بينما جاور عامر أيوب وهو يشهر سلاحه رغم علمه أن مشاركة الفتيات في القتال سيقوي موقفهم إلا أنه كان يخطط لانسحاب استراتيجي للمركبة، لا يريد قتالًا الآن..

غمز لأيوب بطرف عينيه ففهم ماذا يقصد ثم قال بصوت مرتفع:

عندما تتعقد الأمور نلجأ دائمًا للخطط البديلة.

كانت هذه العبارة تعني أن تنسحب الفتيات للمركبة وسيقوم عامر وأيوب بتغطيتهن.

نظر عامر لأيوب ثم هتف:

الآن.

تحركت الفتيات أو كادت أن تتحرك فلقد أوقفتهن كتلة من اللهب اندفعت تقطع الطريق بينهن وبين المركبة بينما وقفا عامر وأيوب عاجزين بعد أن أطلق مسدسيهما ولكنهما لم ينطلقا:

مالذي حدث لهذا الشيء؟

هتف أيوب ليجيبه عامر:

إنها إحدى عيوب التكنولوجيا يا صديقي.. يمكن إيقافها.

كان الجنود قد اقتربوا منهم فرمي عامر وأيوب مسدسيهما أرضًا وهما يزفران بحنق ولكن أيوب صرخ:

ولكن سيفي لا يمكن إيقافه.

قالها وهو يجذب أقرب الجنود إليه ثم يسحب سيفه لقطع يده ويتخذ منه درعًا..

توتر الجنديان الآخران وهما يريان زميلهما قد وقف بينهما وبين ذلك المعتوه حائلًا فترددا في استخدام مسدسيهما بينما قال الرابع رافضًا الهزيمة.

فلتذهب للجحيم معه.

قالها وهو يرفع مسدسه يستعد لإطلاق أشعته المميته ولكنه توقف عندما سمع صيحة هادرة تأتي من خلفه:

كفى.

تعلقت أنظار الجميع بالذي اقترب منهم فتراجع الجنود للخلف بينما وقف هو يقابل الرجلين قائلًا:

أعتذر عما حدث كانت غلطتنا وسنعمل على إصلاحها.

قال جملته ومد يده ليصافح عامر وهو يقول:

أنت السيد عامر أليس كذلك؟

صافحه عامر وهو يقول:

بلى أنا هو.

وأنا القائد سادن رئيس حرس الملكة.

قالها ثم التفت إلى أيوب الذي كان لا يزال ممسكًا بالجندي يعتصر رقبته قائلًا:

مرحبًا بك يا سيدي.

قالها وهو يمد يده يصافحه فنقل أيوب بصره بين يده الممدودة وبين عامر الذي أومأ له ليترك الجندي ثم يقول:

أهلا بك سيد سادن.

أشار سادن للجنود المصاحبين له: انقلوا هذا الجندي للغرفة الطبية.

ثم أشار للجنود الأربع وألقوا القبض على هؤلاء. ثم نظر لعامر ورفاقة قائلًا:

أعتذر مرة أخرى يا رفاق، خطأ غير مقصود.

هز الجميع رأسه متفهمًا فقال سادن وهو يشير لمركبة متحركة تشبه العربة تقع بالقرب منهم: هيا بنا سنذهب للمملكة. تبادل الجميع النظرات قبل أن تفصح الأميرة نور شاه عن السؤال:

أليست هذه أرض مملكة بيروكسيما؟

نعم هذا سطح المملكة.

قالت نون هذه المرة:

ما دامت هذه المملكة فإلى أين سنذهب؟

تغير وجه سادن ثم قال بأسى وهو يشير لما حوله:

سطح الكوكب قد خرب كما ترون.. نحن لا نعيش عليه.

سألته ريحانة بنفاد صبر:

أين تعيشون إذن؟

نحن نعيش في باطن الكوكب في وادي كان يسمى قديمًا وادي الجعسوس.

عقد الجميع حاجبيهم فلقد كانت هذه مفاجأة بالنسبة لهم..

الوحيدة التي بقيت هادئة هي آسية..

وكأن الأمر لا يعنيها ولا يمثل لها فارقا..
أو أنها في الأصل لم تتفاجأ..
لم تتفاجأ على الإطلاق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٢-

خربشات تداعب رأسها وهي تنظر للعمدان الخمسة الذين تتوسطهم وجوه جلوان ورفاقه الأربعة، الذين أصرت على حفر وجوههم على تلك العمدان ليكونوا عبرة لغيرهم في المملكة.. ولكنها في الحقيقة حفرتهم لتخلد ذكراهم أمامها دائمًا وتسكت صوت ضميرها الذي ما زال يصرخ في أعماقها منذ علمت الحقيقة منذ ما يزيد عن خمسة عشر سنة..

ليلة الحقيقة هكذا تسميها ففيها تجلى كل شيء وانقشعت الغمة عن عينيها..

كانت قد قررت أن تترك المملكة بعد إعدام جلوان.. لم يعد لها شيء فيها..

غدًا مراسم التتويج التي ستعلن فيها أمام كبير قضاة بيت الغفران قرارها بالتنازل عن حكم المملكة لجيساو..

ولكن ذلك القادم الذي طرق غرفتها غير لها كل شيء:

أنت!!!!!

قالتها مارا وهي تنظر لسادن الواقف أمامها، كانت قد رأته أكثر من مرة بصحبة أبيها وجلوان.

تلفت حوله ثم قال:

هل تأذن لي مولاتي الأميرة بالدخول؟

أفسحت له الطريق فدلف ثم أغلق الباب قائلًا:

هناك رسالة لكِ سيدتي قبل الحديث.

أخرج من جيبه صندوقًا صغيرًا بحجم الكف، تناولته مارا متسائلة ولكن ملامحه ظلت جامدة..

فتفحصته لتجده مغلقًا بختم أبيها الذي لا يوجد مثلة ولا يستخدم إلا في الرسائل الهامة فقط، رفعت رأسها مرة أخرى لسادن ثم فتحته بلهفة، كان به رقاقة صغيرة قلبتها بين يديها لتجدها رقاقة خاصة بأبيها الملك التي يستحيل تزويرها أو التسجيل عليها لأحد سواه.

اتجهت لشاشة في أقصى غرفتها دست بها الرقاقة بسرعة لتشهق وهي تجد أباها أمامها.. ثوان قليلة من الصمت ثم تحدث:

«ابنتي العزيزة..

طالما وصلتك هذه الرسالة فأنت حينئذ وحيدة بلا سند وربما جلوان لم يعد بجوارك..

لا أدري لماذا؟ هل لأنكِ فرطتِّ في وصيتي فلم تستمعي له؟ أم لأنه....

أيا كان ما حدث، وأيا كانت الصعوبات التي تواجهك الآن فأنا أذكركِ أنكِ من نسل ملوك لا يحق لكِ أن تفرطي فيما لا تملكين..

لا يحق لكِ أن تقدمي هوى نفسك على شعبك..

المملكة أمانة بين يديك، لا تتركيها للثعالب تأكل لحم شعبها وهم يستمتعون بعزف لحن أنينهم دون شفقة أو رحمة..

أعلم أن الحمل ثقيل حد الإنهاك ولكنك قادرة على اجتياز هذه الصعاب.. وتلك المشاق..

الآن لن أقول لك استمعي لأحد فيبدو أن الأوضاع ساءت كثيرًا، فقط يا مارا استمعي لقلبك وعقلك..

نفذي ما يمليه عليك ضميرك تجاه شعب المملكة.. قومي بمسئولياتك كسليلة أسرة شريفة لا تقبل إلا بالرفعة والشرف..

سامحيني يا بنيتي.. سامحيني واعلمي أنني أحبك»

«وأنا أيضًا أحبك يا أبي»

تمتمت بها مارا من بين دموعها التي أغرقت وجنتيها..

ظل سادن صامتًا تاركًا لها فرصة للتنفيس عما بجوفها واستيعاب حديث والدها.. ولكنها توقفت عن البكاء بغتة ثم رفعت رأسها إليه متسائلة بحدة:

ماذا تريد يا سادن؟

أجاب على الفور وبلهجة آمرة متجاهلًا مكانتها التي تجعلها سيدته:

أريدك أن تتوقفي عن هذا الهراء وتلتفتي للمملكة.. كما أمر الملك سنمار.

شعرت بالإهانة من لهجته فوقفت قبالته قائلة بتحد:

أبي لا يعلم أن جلوان قد قتل طراد.

بادلها نظرة التحدي وهو يقول:

ولكن طراد قاتل يا سيدتي.

أنت تتحدث مثله.

لا، أنا أقول الحقيقة ولكن تصرين على غلق أذنيك.

قال جملته ثم قام للجهاز أمامه ليضع بها رقاقة أخرى

لترى الملك سنمار يجلس على شاطئ النهر كما اعتاد في الليالي القمرية وفجأة ظهر طراد رافعا سلاحه في وجه أبيه وهو يقول:

لقد أخبرتك أنني سأجعلك تدفع الثمن إذا تمسكت بما في رأسك.

تراجع يا طراد عن هذا.. إنني لا أخشى الموت ولكني أخشى عليك من نفسك.. أخشى أن تظلم هذا الشعب.

أنا لن أظلم أحدًا، أنا أفعل الصواب للجميع..

قالها ثم أطلق أشعته التي اخترقت صدر أبيه فارتمى قتيلا قبل أن يقذفه بقدمه في النهر.

أظلمت الشاشة أمامها فجأة

هذا كذب.. إنه مقطع مزور.

صرخت بها مارا

حسنًا سأتركه لك حتى تتأكدين من صحته.

قالها ثم هم بالرحيل ولكنها استوقفته قائلة:

انتظر.

التفت إليها فقالت:

لنفترض أنه صحيح لماذا لم يرني إياه جلوان؟

جلوان كان يخشى عليكِ وعلى مشاعرك.. لقد أخبرته مرارا أن قلبه هذا سيوقعه في كثير من المشاكل ولكنه كان عنيدًا.

صمتت وأغلقت عينيها تحبس دموعها وتحاول أن تجمع شتات قلبها الذي قسمه إحساسها بالذنب إلى شقين متناحرين وعند ارتجافة شفتيها الواضحة تحدث سادن بخفوت يخفي به تأثره:

كان يتمنى أن يمهله الوقت لتنقشع الغيمة عن عينيك.

ولكنه تعجل وقتل طراد.

قالتها وهي تحاول أن تجد لنفسها مبررا لتهدئ سياط ضميرها التي تجلدها الآن.. قالتها ثم لامت نفسها بقسوة عندما رمى لها سادن بالقاضية قائلًا بحسم:

جلوان لم يقتل طراد، لقد كان معى وقت وقوع تلك الحادثة.

هل تعني أن جلوان بريء.. ولكن كيف؟ لقد تم سحب دماء طراد حتى ظننت أنه فعل هذا ليحقق تلك النبوءة المزعومة.

صمت قليلا ثم تنهد قبل أن يتحدث:

نعم.. تم سحب دماء طراد ولكن هذا تم ممن خطط لجعل جلوان متهما أمامك لقد أراد أن يذهب ذهنك إليه عند أول لحظة.. وقد حدث.

انهارت على أقرب مقعد تعض شفتيها ثم قالت بصوت مختنق تلومه ولكنها في الحقيقة تلوم نفسها:

لماذا لم يدافع عن نفسه؟ لماذا استسلم حتى منصة الإعدام؟ لماذا لم تتحدث أنت بما حدث؟

لأن هذه كانت رغبته.. كان يرغب في أن يتم القصاص بتلك الطريق لكي يستطيع الحصول على ما يريد.

ما يريد!

نعم.. قنية صغيرة فضية اللون بها دم طراد الذي سيفك اللعنة عن المملكة بأسرها.. كان يريد أن تلتفت أنظار الجميع للقصاص بينما نستطيع الحصول على القنية، جلوان ضحى بحياته من أجل المملكة.. ولقد نجحنا بالفعل في الحصول عليها ولكن...

صمت مترددًا لحظات ثم قال وهو يشيح بوجهه:

لقد اختفت القنية.

نجح سادن في جذب انتباهها فتناست ألم قلبها مؤقتًا وسألته باهتمام:

اختفت؟

بعد أن حصلنا على القنية كان جلوان يخشى أن تقع في يد جيساو مرة أخرى.. ويعلم جيدًا أن جيساو سيقلب المملكة شبرًا شبرًا حتى يجدها لذلك كان الحل أن نذهب بها لكوكب مجاور لا يكون لجيساو سلطة عليه حتى تستقر أمور المملكة بين يديك وبالفعل ذهب أحد أفرادنا لتلك المهمة ومعه قزم من وادي الجعسوس

كايو؟

لا، راو... لقد كان خبيرًا في التعامل مع المركبات الفضائية ولكن للأسف لا ندري كيف تم رصد القنية وتتبعها حتى خرجت المركبة عن مسارها ودخلت في فجوة زمنية.

تقصد فضائية.

لا يا سيدتي زمنية لقد ذهبت لزمن غير زمننا ولكوكب لا ينتمي لمجموعتنا الشمسية يسمى كوكب الأرض.. معلوماتنا عن هذا الكوكب قليلة ولكن التاريخ الذي أرسله إلينا راو يشير لزمن بعيد.. الأرض الآن في بداية الألفية الثالثة ولكن التاريخ الذي يشير إليه راو بداية الألفية الثانية..

ولماذا لا تتواصلون مع الأرضيين؟

هذا ليس ممكنا الآن.. كوكب الأرض كما أخبرتك للأسف بعيد عنا.. نحتاج لكثير من الوقت والمجهود والأبحاث للتواصل معهم.. ونحتاج للدعم على نطاق واسع من الملكة وبعيدًا عن أعين قائد الجيوش..

تجاهلت تلميحه وسألت:

لماذا لا تضعون احتمال أن راو هذا قد مات.

إنه احتمال كبير ولكن الشيء الذي نثق به أن القارورة ما زالت تنبض وترسل إلينا إشارتها كل قمر.

كانت تتذكر تلك الليلة وقد عاودتها نفس الآلام التي تزورها مع كل ذكرى، قطع سيل أفكارها حضور سادن الذي انحنى أمامها باحترام ثم قال:

كما أمرتِ يا سيدتي.. لقد ذهب الفريق الأرضي إلى الجناح الملكي، يقوم على خدمتهم إلين وكايو.

حسنا فعلت يا سادن.. هل تحدثت معهم؟

نعم.. كايو وإلين سيطلعونهم على كل شيء.

لم يكد ينتهي من جملته حتى ارتفع صوت من حزامه ليضغط على زر التواصل بحراس القصر الذي قال أحدهم:

سيدي قائد الجيوش يطلب الإذن بالدخول.

رفع سادن رأسه لمارا فأذنت له فقال على الفور:

دعه يدخل.

دقيقة واحدة واندفع جيساو وهو يصيح ثائرًا:

كيف يا مولاتي يأتي هؤلاء الأرضيون دون علمي.

نظرت إليه مارا ثم قالت ببطء مستفز:

وهل سأحتاج إلى إذنك لأستقبل من أشاء في مملكتي.

لا أقصد يا مولاتي.. كل ما في الأمر أنني أردت الاستعداد لتأمينهم.

دع هذه المهمة لسادن، مسؤولياتك كثيرة يا قائد الجيوش.

لكنك يا مولاتي لا تعلمين ماذا فعلوا بجنودي؟ لقد اعتدوا عليهم وقطعوا أيديهم.

نظرت لسادن الذي كان صامتًا فأجاب:

جنودك هم من بدأوا بالعدوان يا قائد الجيوش والضيوف كانوا يصدون العدوان.

قلبت مارا شفتيها ببطء ثم قالت بحسم:

لقد أخطأ جنودك يا جيساو.. ما كان يجب أن يتم هذا مع علماء في مثل قامتهم.

ولكن يامـــــــ.....

صاحت به:

لقد انتهى النقاش يا جيساو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخلت الفتيات الأربع إلى الجناح الملكي الذي كان مقابل لجناح الشابين، خمس غرف متجاورة أمامهن ردهة واسعة ليس بها شيء ولكن ما إن تقدمن خطوات في الردهة إلا وظهرت أمامهن أريكة تبعتها ظهور المقاعد..

هتفت ريحانة:

آي سحر هذا.

كل ما نحن فيه الآن ألا يعد لك سحرًا؟

جاوبت آسية وهي تضحك ضحكة مغتصبة.

أمضت الفتيات وقتًا قليلًا في التعرف على الجناح قبل أن تدخل آسية وريحانة إلى غرفتيهما لأخذ قسط من الراحة بينما جاورت نور شاه نون في الردهة ثم التفتت إليها قائلة:

هذا العالم غريب حقًا.. بل كل ما أنا فيه غريب.

ابتسمت نون فأكملت الأميرة:

أتدرين؟ أحيانا أخشى أن تكون هذه المغامرة حلمًا سأستيقظ منه عما قريب.

إنها حقيقة يا ريانة.

تغير تعابير وجهها لتقول فجأء وبصوت هامس:

عندما أتينا إلى هنا وشاهدت هؤلاء القوم تحول حماسي لرهبة.. تمنيت أن لو لم أكن قد أتيت معكم.

لا تخشي شيئًا.. نحن جميعًا بجوارك.

سمعتا صوت طرقات خفيفة على الباب فقامت نون لتفتح الباب فإذا بفتاة عرفت نفسها أنها إلين:

نعم أعرفك قال السيد سادن أنك ستصحبيننا.. تفضلي.

قالتها نون وهي تفسح لها الطريق فدخلت الفتاة لتسلم على نور شاه التي قالت على الفور:

أنت جميلة يا إلين لقد تخيلت أن الفتيات في هذا الكوكب يشبهن الرجال.. حمدًا لله لقد خاب ظني.

ضحكت إلين على دعابتها ثم قالت:

لقد أخبرتني أمي أنني عندما ولدت ورآني أبي أخفاني عن الأعين سنوات كثيرة.. كان يخشى عليّ من عيون فتيان الوادي؛ خاصة أنني كنت فتاة سوية بلا إعاقة.

هزت نور رأسها متفهمة بينما قالت نون:

يجب أن تتعرف عليك ريحانة وآسية أعتقد أن هذا سيهون عليهما ما لقياه منذ هبوطنا على هذا الكوكب.

قالتها ثم قامت تطرق غرفتيهما وأخبرتهما بقدوم إلين..

ثوان قليلة وخرجت ريحانة التي رحبت بها بابتسامة هادئة وجلست بجوارهن تستمتع لحكايا إلين الممتعة عن مملكتها. وبعد دقائق خرجت آسية بعد أن بدلت ثيابها وإن بدا على ملامحها الإرهاق قليلًا ولكن حالها تبدل تمامًا عندما لمحت إلين ، اتجهت إليها تحتضنها بقوة وكأنها صديقتها الغائبة منذ سنوات.. ظلت إلين بين أحضان آسية قليلًا ولكنها تجمدت عندما طرقت آسية على ظهرها ثلاث طرقات بطريقة معينة ثم فجأة أبعدتها عن حضنها وابتعدت لتجلس في أقصى الردهة وهي تنظر

ليديها باضطراب وقد بدا على وجهها الشحوب.. وحدها نون التي عقدت حاجبيها وهي تنقل بصرها بين وجه آسية الشاحب ووجه إلين المشدوه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضرب السطح بقبضته مرة وأخرى وهو يصيح في تارا هائجًا:

إنها تعبث معي يا تارا.. تلك الحقيرة تخطط لشيء ما.. كل المعلومات التي أمامي تزعم أن هؤلاء خبراء في معالجة المياه.. ولكن كل هذا هراء.

أنت تبالغ يا سيدي.. مولاتي مارا ضعيفة وهؤلاء الضيوف لقد رأيتهم إنني أستطيع سحقهم بقبضتي هذه.

أنت أحمق.

أحمق؟

نعم أنت أحمق كبير.. هؤلاء إن كانوا كما أظن فعندها سيسحقونك وأنا قبلك.. الحرب التي بيننا ليست حرب عضلات كما تظن بل حرب عقول.. ولو كنا نريد أن ننتصر فيها لابد وأن نكمل ما ينقصنا.

وماذا ينقصنا يا سيدي؟

المعلومات.. المعلومات ياتارا، لابد وأن نعرف كل شيء عن هؤلاء وبأسرع وقت ممكن.

حسنًا يا سيدي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تجاور عامر وأيوب على طاولة الطعام بينما جلس كايو في نهاية الردهة صامتًا فتحدث أيوب قائلًا:

اقترب يا كايو شاركنا الطعام يا رجل.

إن طعامكم له مذاق غريب لا أستطيع تحمله.

قهقهة عامر ثم قال:

حسنًا يا كايو المرة القادمة اصنع لنا طعامًا من كوكبك لنرى.

اندفع كايو يقول بحماس:

على الرحب والسعة سيدي.. ستجد مذاقًا لن تنساه طوال عمرك.

قال أيوب وهو يضحك:

أنت أخبرتنا أن أخاك قد ذهب للأرض.. لابد وأنه أكل طعامنا.. كن مثله.

أخي راو كان أكثر مني تحملًا.. في الحقيقة كنت أستمد منه قوتي وشغفي رغم أنني أكبره بساعة كاملة.. كان يكره الفشل ويعشق النجاح.. يحمل آمالًا وطموحًا لا يفلها الجبال.. وأهدافًا لا يقربها

اليأس.

رائع هو راو هذا.

تابع كايو وهو ينظر للفراغ أمامه كأن لم يسمع تعليق أيوب المنبهر:

كان دومًا يقول «لابد وأن تحلم يا كايو.. قاوم.. لا تدع اليأس يقترب من قلبك فيعتصر روحك»

ابتسم كايو ثم تحولت بسمته إلى ضحكة قبل أن يواصل:

أتعلمان.. لقد بدأ الأمر غريبًا.. كنا طفلين شقيين، ولأن طولنا كان يسمح لنا بالتسلل عبر فتحات البوابات فقد كنا نتسلل إلى المملكة أثناء تبادل الدوريات.. المرة الأولى كنت خائفًا جدًا ولكنني طاوعته خوفًا عليه؛ كنت أخشى أن يحدث له شيء ولا أكون بجواره.. ولكن بعد ذلك تعددت المرات حتى أصبحنا نتسابق من منا سيتسلل أولًا.

توقف برهة يلتقط أنفاسه ثم واصل بنفس ملامحه البشة:

لقد بدأ الحلم بلعبة.. كنا ذات مرة نقف في الطريق المؤدي لكهف بيتوس عندما لمحنا بعض الجنود يجرون بعربتهم مركبة فضائية خربة.. تتبعناهم بحذر لنجدهم يتخلصون منها في صحراء النفايات..

وبعد أن رحلوا اقترب راو من المركبة ثم قال بزهو: «هذه ستكون الطريق لنصبح مثلهم يا كايو»

شهور كثيرة استغرقناها في نقل قطع المركبة إلى وادينا بحذر وعندما استعصى علينا نقل الأجزاء الكبيرة منها قررنا حفر نفق خاص بنا بالقرب من أرض النفايات وكهف بيتوس بعيدًا عن أعين المملكة وقد كان..

نظر كايو إلى عامر وأيوب اللذان توقفا عن الطعام ينصتان إليه فقال بخجل:

معذرة إنني أثرثر كثيرًا.

إطلاقًا.. إننا مستمتعان أكمل.

قالها عامر بابتسامة هادئة فتابع كايو:

بعد سنوات من الجهد والتعب صنعنا فيها الأجزاء التالفة بأنفسنا وطورنا في المركبة، قرر راو أن يحطم المركبة.

يحطمها؟! لماذا؟

قالها أيوب باستغراب فزم كايو شفتيه بأسى ثم قال:

لقد صدمت أحلامنا بالسقف.. كنا نظن أننا قادرين على التحليق وتناسينا أننا بلا سماء.. وأن قوانين المملكة الجائرة ستظل تسحق أحلامنا حتى نموت.

وهل حطمها؟

سأل عامر هذه المرة فأجاب كايو:

نعم حطم جزءًا منها.. ولكنه أصلحه في اليوم التالي عندما أخبرته بالسر.

أي سر؟

نحن البكران لأبوين في المملكة، تم نفينا لوادي الجعسوس عندما ولدنا بأربعة أصابع في قدمنا هذا قبل أن تكتشف أمنا فيما بعد أننا أقزام أيضًا وبعد عام في بيت الغفران لحقت بنا.. وذات مرة بينما كنت ألهو إذا بامرأة تأتي لأمي بعد نفي طفلها وتخبرها أن أبي قد تزوج بعد رحيلها وأنجب طفلًا سويًا ويبدو أن أبي كان يعده ليصبح ذا شأن فلقد ألحقه ببيت العسكرية مبكرًا.. لم أخبر راو حينها.. لا أدري لمَ؟ حتى أنني قد نسيت الأمر تمامًا ولكن عندما وجدت الإحباط يسيطر على راو لأول مرة في حياته أخبرته وقلت له ربما يساعدنا.

وهل ساعدكما؟

نعم.. جلوان لايتردد في الوقوف بجوار الحق دائمًا.

قال عامر بذهول:

جلواااااان.. هل هو...؟

نعم إنه هو.. القائد جلوان الذي أعدم يوم انطلاق راو بالقارورة.

ثم تابع وهو يمسح دمعته التي هزمته أخيرًا:

أي أنني فقدت أخوين في يوم واحد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرجت ريحانة من غرفتها.. توضأت وعند عودتها لغرفتها سمعت صوت أنين يأتي من غرفة آسية فطرقت بابها برفق ولما لم تتلق ردًا تراجعت ولكن الأنين تحول لنشيج اقتربت مرة أخرى وطرقت الباب بصوت أعلى هذه المرة وهي تقول بقلق:

آسية هل أنت بخير.

نعم.

هل تسمحين لي بالدخول.

فكرت أن تتراجع مرة أخرى عندما لم يأتها جواب ولكن آسية فتحت لها الباب لتجد ريحانة الدموع تغرق وجنتيها فتلقفتها بين أحضانها وهي تقول بفزع:

ماذا بك حبيبتي؟

زاد نشيج آسية وعلا نحيبها وارتجف جسدها فضمتها ريحانة لصدرها أكثر وهي تقول بحنان:

اهدئي حبيبتي.. اهدئي.. ستكونين بخير إن شاء الله.

استكانت آسية بين أحضانها وبعد قليل من الوقت كانت قد فرغت فتحدثت بخفوت:

معذرة يا ريحانة.

علامَ؟ ماذا بك يا حبيبتي؟ أخبريني.. ألسنا صديقتين؟

فركت آسية يديها ثم ابتعدت عن ريحانة الجالسة على الفراش وبعد ثوان ضغطت رأسها بقوة ثم عادت لترتمي في أحضان صديقتها وهي تقر:

أنا متعبة يا ريحانة.. أكاد أن أجن.

طبطبت ريحانة على رأسها ثم همست:

هل ما زالت أخوتي لريانة تزعجك؟

اعتدلت آسية في جلستها ثم همست كأنها تفشي سرًا:

هناك ما هو أهم.. أنت لا تعلمين شيئًا.. أنا أعرفها.

هزت ريحانة رأسها ثم قلبت كفيها قبل أن تقول بحيرة:

تعرفين من؟

مالت نحوها أكثر لتقول بصوت خفيض بالكاد تسمعه:

تلك الفتاة التي تحتل الغرفة الخامسة بالجناح.. إلين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٣-

أفكار عديدة تدور بذهن ريحانة وهي تنظر لآسية التي أفصحت للتو أنها تعرف إلين ولكنها لم تحصل على جواب؛ لذلك قالت ببطء:

كيف تعرفينها من قبل؟ نحن لم نلتق بها إلا اليوم.

قامت آسية من مكانها تدور في الغرفة تريد أن تهرب من نظرات ريحانة التي تحاصرها:

لا أعلم.. كل ما في الأمر أنني أشعر بها داخلي.. هذا الكوكب بكل ما فيه أشعر به.. كما لو أنني...

قطعت عبارتها ونظرت لها بحيرة فشجعتها ريحانة لتفصح:

كما لو أنني جزء منه.

لم تدر ريحانة ماذا تقول، بل ظلت تقلب الأمور في رأسها ثم تحدثت:

آسية حبيبتي أنت تتعرضين لصدمة فقط.

أصرت آسية وهي تجاورها مرة أخرى:

لا يا ريحانة.. أنا لم استغربهم عندما رأيت صورهم معكم لأول مرة.. أتدرين لماذا؟

صمتت ريحانة تنتظر التوضيح فجاوبتها:

لقد كنت أحلم بهم من قبل.. العجيب أنني عندما كنت أحلم بهم لم أكن أجزع.. لم أستيقظ يومًا فزعة كما يجب أن يحدث..

يوم أن ساقني فضولي للمركبة كنت أتجول بين الأزرار كما لو كنت قد تعلمت هذا من قبل، ولكن عندما ضغطت بالخطأ على ذاك الزر وظهرت صورة هؤلاء الكائنات أمامي عدت لرشدي وأدركت حينها أنني لا أحلم وأنني آسية الجارية في قصر السلطان.. تراجعت للخلف خائفة.. تراجعت وأنا أنوي الفرار ولكنني سقطت في تلك الغيبوبة اللعينة.. لقد كنت أقاومها، أنتزع منها نفسي انتزاعًا.. ولكنها كانت تجذبني إليها كطفل يتشبث بثياب أمه يخشى فرارها..

اغرورقت عينا ريحانة بالدموع وهي ترى آسية أمامها تبكي، فضغطت على يديها ثم قبلت رأسها واحتوتها بين أحضانها لتهمس:

يبدو أنك تعانين كثيرًا ولا نشعر بك.. سامحيني.. سامحيني بحقك أخيتي..

اعتدلت آسية وهي تمسح دموعها بباطن كفيها ثم تروت دقيقة كاملة قبل أن تسأل بحيرة تكاد أن تفتك بها:

من أنا يا ريحانة؟ بربك من أنا؟ هل أنا جارية الأميرة؟ أم أنا مسخ متحول من تلك المسوخ؟ هل أنا طيبة القلب كما أبدو؟ أم نبتة شيطانية لن تبرح حتى تقضي عليكم؟

ودون تفكير جذبتها ريحانة لصدرها مرة أخرى ثم همست:

أنت حبيبتي وصديقتي وأخيتي أيمَّا كنتِ.. ثقي في ذلك.

تعلقت آسية بثيابها أكثر فتابعت ريحانة وهي تمسد على رأسها:

أنا لا أثق في الناس بسهولة.. ولكنني وثقت بك يا آسية..

ثم أبعدتها عنها لتنظر في عينيها قائلة بثقة واضحة:

نظرتي فيكِ لن تخيب أبدًا، أراهن على ذلك بعمري يا صديقتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في غرفته السرية الخاصة التي لا يعلم عنها أحد شيء سوى مساعده تارا جلس جيساو يتنقل بين الشاشات التي تنقل له كل شبر في المملكة إلا الجناح الملكي والذي يعلم جيدًا أن سادن ينظفه بنفسه مرتين يوميًا.. لم يكن هذا الجناح يقلقه كثيرًا فيما سبق فلا أحد يسكنه والملكة تحت سيطرته لا تفعل شيء إلا بعد استشارته أو هكذا كان يظن طوال خمسة عشر عاما أو أكثر منذ تلك الليلة المشئومة..

كان يعد نفسه ليصبح ملكًا، جهز الخطاب الذي سيلقيه أمام الجمهور، لابد وأن يظهر أنه متفاجئ وأنها مسؤولية كبيرة، ولكنه سيضحي بكل شيء من أجل تحملها لصناعة مستقبل أفضل لهذا الشعب وللأجيال القادمة..

تجمعت الجماهير في الساحات يشاهدون اللحظة التاريخية التي ستنتقل السلطة فيها من أسرة الملك سنمار لأسرة قائد الجيوش جيساو مع تنبؤات من المحللين أنها لحظة فارقة ستتحول المملكة فيها من أقصى اليمين لأقصى اليسار..

الملك الجديد يحمل في جعبته العديد من الأفكار والمشروعات التي ستعلى من شأن المملكة وستقضي على اللعنة..

جلس الكاهن الكبير لبيت الغفران ومن حوله الكهنة الأقل رتبة يتلون تعاويذهم المقدسة حتى حضرت الأميرة مارا، جلست على مقعد مقابل لجيساو الذي كانت فرحته منقوصة منذ علم باختفاء القنية، ولكنها اليوم ترقص على وجهه فها هو قاب قوسين أو أدنى من تحقيق حلمه..

عندها لن تهمه القارورة ولا غيرها، ستكون سلطته المطلقة على المملكة بلا رقيب أو حسيب..

انتهى الكهنة من قراءة تراتيلهم ثم أشار كبيرهم للأميرة التي وقفت في المنتصف بينهما قبل أن يميل نحوها ويسألها وهو يغلق عينيه:

هل تقبلين حمل إرث آبائك وأجدادك أيتها الأميرة وتتممين رسالتهم على أكمل وجه.

تعلقت العيون بها وتأرجحت عيناها بين الجميع ثم توقفت لحظات عند سادن الذي كان بين الحراس فأومأ إليها برأسه ابتلعت بعدها ريقها ثم تروت لحظات قبل أن تقول بثبات:

نعم.. سأحمل إرث آبائي وأجدادي، وأكمل رسالتهم على أكمل وجه.

صعق الحضور وتعالت صيحات الجماهير في الميادين ابتهاجًا وفرحًا بهذا القرار فهم يعرفون أن جيساو هو الوجه القاسي للمملكة الذين لا يتمنون أبدًا وقوعهم في قبضته حتى ولو ادعى غير ذلك..

بينما تراجع جيساو مذهولا في مقعده وأصبح وجهه أسود يحاكي المرضى، ولم يفق إلا بعد أن تلت الأميرة القسم وأهال عليها الكاهن المياه المباركة ووضع تاج الحكم على رأسها ثم صعدت بثبات لتجلس على كرسي العرش..

العجيب أنها دعته بعد مراسم التتويج مباشرة لتخبره:

أنا أشكرك يا جيساو.. أنت قائد أمين حقًا.. لولا حديثك معي وإصرارك أمام الجميع أن أتولي شئون المملكة ما تراجعت عن قراري.

لم يكن يدرك عن أي حديث تتحدث، أو لعلها فهمت كلماته السابقة أنه يدعوها للتمسك بالحكم «سحقًا لهؤلاء النساء إن مزاجهن يتغير بين لحظة وضحاها»

هكذا حدث نفسه ومارا تقول وهي تبتعد بضع خطوات عن عرشها:

لقد كنت محقًا.. لا ينبغي لسليلة ملوك مثلي أن تستسلم للتفاهات.. لقد لاقي هؤلاء الخونة جزاءهم على فعلتهم الشنعاء والفضل يرجع إليك ياجيساو.. أنت قائد الجيوش الأعظم في تاريخ المملكة.

رغم أنه كان يغلي من داخله إلا أنه شعر ببعض الزهو من كلمات الإطراء تلك ففكر أن يهادنها حتى يستطيع التخلص منها فيما بعد، فقال وهو ينحني:

أنا لم أفعل سوى واجبي يا مولاتي الملكة.

هذا ظني بك يا قائد الجيوش، ولكن أريدك أن تعلم أنني لست خبيرة في شئون المملكة.. سيكون اعتمادي الأساسي على خبرتك الطويلة مع أبي وأخي..

قال وهو يمني نفسه بسيطرة مطلقة على الحكم:

لن أتردد في مساعدتك يا مولاتي.. رقبتي فداء لك.

هناك أمر هام أريده منك.. لقد تشاءمت من طاقم الحراسة الخاص بأخي.. أريد قائدًا جديدًا للحرس..

حسنًا من الغد ستكون لديك قائمة بأفضل القواد لتختاري منهم مـــ....

قاطعته بإشارة من يديها وهي تقول:

ولماذا الانتظار للغد؟ أنا أعلم أن لديك قائمة بأسماء القواد العشر الذين سيتم تتويجهم الشهر المقبل.. أعتقد أنهم أفضل القواد لديك، سأختار منهم واحدًا طالما أنك قد اخترتهم بنفسك..

ولكن يا مولاتي الوقت ضيق لترشيح قائد يحل محل من ستختارينه من القواد العشر.

ضيقت عينيها ثم عادت لتجلس على كرسي العرش مرة أخرى قبل أن تقول بغضب مصطنع:

هل تقصد أن حماية الملكة تقل أهمية عن مهام القواد العشر؟

لا.. لا أقصد هذا يا مولاتي.

دقائق وكانت القائمة بين يدي الملكة التي قرأتها بعدم اهتمام، ثم قالت: سأختار سادن فهو يبدو أن له خبرة في الحراسة.. لقد عمل من قبل مع أبي..

لم يجد جيساو مفرًا من قول:

كما تأمرين يا مولاتي.

كان جيساو يتذكر كل هذا والدماء تغلي في عروقه.. تركت له كل شيء إلا ملف المياه ولكنه أيضا كان يعلم تفاصيله بطرقه الخاصة.. لم تصطدم معه إلا في أشياء قليلة حتى ظن أنه هو الحاكم..

حتى تلك المشاورات مع كوكب الأرض كان يعلمها جميعا.. ولكن قلبه ينبئه أن هناك سرًا.. سرًا لا يعلمه إلا سادن..

«هذان الحقيران يخططان لأمر ما وسأعرفه»

بعد أن انتهى من جملته دخل تارا عليه ليقول:

لقد حللت جميع المراسلات التي تمت بين الأرض وبيننا.. إنهم بالفعل خبراء لمعالجة المياه.. أنت تعلم أن الأرض قد مرت بتجربة مشابهة واستطاعت السيطرة على تلك اللعنة والعودة للمياه النقية مرة أخرى..

لا يا تارا.. لا.. نحن لا نحتاج لخبراء مياه؛ نحن نعرف كيف ستحل اللعنة..

قالها ثم تابع وهو يتحرك في الغرفة كأنه يفكر بصوت عالٍ

ما داموا يسكنون الجناح الملكي الذي لا تطاله أعيننا، وما دامت الملكة قد جعلت في خدمتهم كايو وإلين وسادن الذين تثق في إخلاصهم فلابد وأنهم يخططون لشيء.

ثم أضاف بإصرار:

وسأعرفه..

قالها ثم وضع يده فجأة على كتف تارا وهو يتحدث بفحيح مخيف:

لابد وأن تدخل هذا الجناح بنفسك يا تارا.. لابد وأن نتأكد إذا كانوا يحملون تلك القنية أم لا..

قالها وهو يوقن أن الصراع مع الملكة أصبح صراع بقاء وفي عقيدته البقاء للأقوى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ردهة الجناح الملكي جلست ريحانة وآسية بجوارهما إلين.. كانت ريحانة تريد أن تتحدث إلين ليطمئن قلب آسية فابتدرتها قائلة:

علمت أنك مسئولة صرف المياه بالمملكة.

نعم.. رغم أني ولدت لأبوين جعسوسين إلا أنه عندما هبط الجميع إلى وادي الجعسوس أصرت الملكة على ألا أترك منصبي؛ فلقد كنت مسئولة عن المياه في الوادي..

سألت آسية باهتمام:

كيف هبطت المملكة للوادي يا إلي؟

ارتجفت إلين قليلًا ثم قالت فجأة:

آسية هل تقابلنا من قبل؟

تعالت دقات قلب آسية واصفر وجهها دون أن تتفوه بكلمة.. أما ريحانة فلقد نقلت نظرها بين الفتاتين، هالها وجه آسية الشاحب فأمسكت بيديها تطمئنها ولكنها وجدتها باردة كالثلج..

بدا لإلين أنا ما تفوهت به مجرد سخافة لذلك لوحت بيديها ثم قالت وهي تضحك:

حسنًا.. هذا مستحيل أعلم.. ولكن يخيل إلي أنك تشبهين شخصًا أعرفه..

صمتت برهة، تنهدت فيها قبل أن تقول بصوت خافت:

شخص عزيز عليّ جدا.

مـمـ... من هو؟ أقصد كـ.. كيف كان عزيزًا عليك؟ أقصد كيف أشبهه؟

سألت آسية بتلعثم..

تأملتها إلين مليًا ثم قالت وهي تبتسم:

أنت لا تشبهينه على الإطلاق.. أنت جميلة جدا يا آسية.. في الحقيقة هو لم يكن جميلًا على الإطلاق ولكنني كنت أحبه.. أحب روحه الذي تشتعل حماسًا وحيويه.. أحب ذكاءه الذي لايخبو.. أحب حنانه الذي كان لا ينقطع.. أشعر كما.. كما لو أنك تتصرفين مثله في بعض الأحيان.

نظرت آسية إليها بعين زائغة فقبضت ريحانة التي كانت تجاورها على يديها لتطمئنها ثم قالت:

الأمر لا يتعد تشابه الأرواح..

ابتسمت إلين وهي تنظر لريحانة ثم قالت:

نعم.. أعتقد هذا.. إنه الحنين الذي يجعلنا نرى من نحب في كل من نقابل.

تنهدت ثم زمت شفتيها قبل أن تتابع:

بعد أن تولت الملكة مارا الحكم زادت الأحوال سوءًا فوق سطح المملكة؛ أجدبت الأرض وأصبحت الوفيات في ازدياد بسبب تلك المياه الملعونة.. ولكن العجيب أن تلك اللعنة لم تمتد إلى وادينا، لقد كنا نشرب مياهًا نقية، حاولوا توصيل المياه للسطح ولكن ما إن تلامس المياه سطح المملكة إلا وتتحول للون الدماء..

عندها كان القرار الأصعب على الملكة لقد قررت فتح أبواب وادي الجعسوس لمن يريد العيش فيه وبالفعل هرب الجميع من تلك اللعنة فأصدرت قرارًا من بيت الغفران أن تنتقل المملكة بسادتها وشعبها للوادي.

آلم يقاوموها؟

قالتها نور شاه التي انضمت لهن منذ قليل، فردت إلين:

قاوموا.. ولكن اللعنة كانت تطالهم أيضًا.. ولقد وافق قرار الملكة هواهم فوافقوا..

ولكننا نطمح فيما هو أكثر.. نطمح في فك اللعنة والعودة جميعًا للسطح بعد تغيير القوانين الجائرة في كتاب المواثيق.

اعتذرت آسية التي بدأت تشعر بدوار يجتاح رأسها منهن لتدخل غرفتها فتابعتها ريحانة بعينيها بقلق وكادت أن تقوم خلفها ولكن إلين جذبت انتباهها وهي تقول لنور شاه:

الليلة في المساء سيتم اصطحابك وريحانة لأبي؛ سنقوم بتجربة أوليه قبل أن تعلن الملكة موعد فك اللعنة..

أبوك؟

قالتها ريحانة وعقلها ما زال مشغولًا بصديقتها فأكدت إلين:

نعم.. أبي هو العالم ماشو المنوط به عمل كل الأبحاث السرية التي تخص المياه.. غدا سيكون موعد اكتمال القمر.. وستكون مراسم التتويج أيضًا.

صفقت نور شاه بيديها كما الأطفال قبل أن تقول:

أووووووه.. كم أعشق القمر إن له سحرًا لن أنساه أبدًا.

عقدت ريحانة حاجبيها ثم قالت:

كنت أظنك تكرهينه مثلي.

كيف أكرهه والقمر هو دليل العاشقين وملاذ المحبين.

وماذا عن الوشم؟

أي وشم؟!

صمتت ريحانة برهة وكادت أن تقول شيء ما ولكنها تراجعت في النهاية لتقول بحيرة:

لا شيء.. لاشيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحرك عامر وأيوب بصحبة كايو في أرجاء الوادي، قال أيوب لكايو:

لماذا شمسكم مختلفة عن شمسنا؟

إنها شمس صناعية.

رد عامر ففغر أيوب فاه ثم قال:

هل صنعتم الشمس أيضًا؟

ضحك عامر وكايو قبل أن يقول الأول:

لا يا أيوب.. إنها عملية معقدة من الاندماج النووي تمت تجربتها على الأرض من قبل، سأريك إياها إن شاء الله عندما نعود سالمين للوطن.

بهدوء تحدث كايو:

لقد كنا نعيش في ظلام قبل نزول السادة للوادي، تشرق الشمس دقائق قليلة في الجزء الذي كان يجاور البوابات فقط، الجو شديد البرودة، الشتاء طوال العام، لم نكن نعرف ماذا يعني الصيف ولا كيف يكون، بعض المتسللون لسطح المملكة تذوقوا الصيف ولكنهم في أحايين كثيرة يعودون وقد فارقوا الحياة، فإذ لم تقتلهم الشمس الحارقة قتلهم الحراس، ولكن بعد نزول السادة للوادي تم إنتاج تلك الأضواء التي تحاكي الشمس في سطوعها ودفئها ورفضت الملكة أن تكون الشمس للحي الذي يقطنه السادة فقط بل جعلتها للجميع.

أكملوا المسير صامتين حتى عرجوا على بوابة دائرية مفتوحة يقف على جانبيها تمثالان ضخمان منحوتان من صخرتين متساويتين ذوا جناحين عظيمين يرفع أولهما جناحه الأيمن ليقابله الآخر بجناحه الأيسر فيلتقيان في أعلى نقطة من البوابة، رقبتهم طويلة وعين واحدة ثاقبة لكل واحد منهما، ينفث من فمهما المفتوح نارًا مشتعلة كأنهما يحذران من يقترب من غضبهما، يتعاقب أهل الوادي على إشعال تلك النار صباحًا ومساءً منذ أعوام كثيرة، أشار كايو للتمثالين قائلًا:

مرحبًا بكم في وادي الجعسوس القديم.

ما قصتهما؟

سأل عامر وهو يشير للتمثالين ليجيب كايو:

إنهما من التراث، أمان وادينا منذ القدم، الوحشان الخارقان أبطال أساطير الوادي وحكايات الجدات لأحفادهن اللذين تكفلا بحمايتنا من الممالك الأخرى.

بدا لهما أن كايو سيكتفي بهذا الرد المبهم ولكنه وضح:

تقول الأسطورة أن العملاقة بيادوس آخر سلالة الحماة حملت على عاتقها حماية المملكة من الأشرار بعد وفاة زوجها وكم كانت سعيدة عندما أنجبت ثلاثة توائم ظنت أنهم سيكونون امتدادًا لها ولزوجها في نيل هذا الشرف العظيم ولكن أحيانا لا تسير الأمور كما نشتهي، لقد تحطمت كل آمالها عندما نظرت لأطفالها الصغار؛ لقد كانوا عاجزين.

عاجزون؟

نعم، لقد ولدو بلا أعين؛ لا يرون بالليل إلا اليسير ولا يرون بالنهار مطلقا وبعد أن استوى عودهم وأصبحوا قادرين على حماية المملكة وشعرت هي بدنو أجلها قررت بيادوس أن تهبهم عيونها الثلاثة التي كانت كل عين فيهم ترى ثلث المملكة لتستقيم رؤيتهم، وقسمت المملكة بينهم وأخذت منهم عهدًا على ألا يظلموا أحدًا، يومًا كاملا غابت فيه مع أولادها في الكهف ليخرج الوحوش الثلاثة بلا أم.

ماتت أمهم وبقي الثلاثة يحرسون المملكة بلا مشاكل سنوات عدة وذات يوم اغتر أكبرهم والذي كان يدعى بيتوس ويفوقهما قوة وحجما فطمع في حكم المملكة فقرر أن يسيطر على المملكة ويبسط نفوذه للممالك المجاورة وكان عليه أن يستولي على عيني أخويه ليفعل ذلك، استغل اجتماعهما السنوي في الكهف لزيارة قبر أمهما واستطاع انتزاع عينيهما بعد أن قتلهما ولكنه لم يكن يدرك أن بصره مرتبط ببصر أخوية لذلك بمجرد انتزاع عينيهما.

غادرته عينه لتستقر الثلاث عيون في جسد أمهم، وبقي هو وحيدًا تائهًا في الكهف يتخبط حتى يومنا هذا، لا يجد سبيلًا للخروج حتى يدله أحدهم على الطريق، وإلى الآن من يدخل الكهف لا يخرج لذلك لم ينجح، أجدادنا نحتوا هذين التمثالين ليوهموا الأطفال أنهم بأمان وما زال الوادي تحت حماية العملاقين، وجداتنا نسجت حكايات خارقة حول هذين العملاقين اللذين ترتد الروح إليهما كل مساء ليقوما بعملهما.

وهل تصدق هذا الخرف؟

قالها أيوب مندفعًا ليجيب كايو بخجل:

إنها أسطورة من أساطيرنا ورغم أننا نعلم في داخلنا أنها مجرد حكايات ربما لا تكون صحيحة إلا أن جزءًا من الشعب ما زال يؤمن بها وينظر إليهما أنهما أبطالهما الشعبيين.

ثم أضاف بصوت خفيض:

إياك أن تتهكم عليهما أمام شعب الجعسوس فلن يعجبهم هذا.

تعجب أيوب من هذا المنطق ولكنه لم يعلق واكتفى عامر بابتسامة هادئة قبل أن يتبعا كايو لداخل الحي الذي كان أقل تناسقًا ذو مباني قصيرة، في أعلاها كوة سوداء قاتمة تستخدم كمنفذ لتجدد الهواء، شوارع متكسرة ضيقة يلعب بها مجموعة من الأطفال ما إن رأوهم إلا وابتعدوا مفسحين يرتكنون إلى الجدران يصوبون نظرهم إليهما في حذر لم يشفع لهما وجود كايو بصحبتيهما الذي همس لهما:

إن أطفالنا ما زالوا يخافون من الغرباء.

لم يعلقا على جملته ولكن أحد الأطفال صرخ بقوة فانفتحت الكوة التي تعلو المنازل لتطل منها رؤوس النساء وهن يطلقن سبابًا ساخطًا، ولكن كايو رفع يديه معتذرًا ثم سحب عامر وأيوب سحبًا حتى غادروا الزقاق والمنطقة بأسرها.. بسرعة كان عامر قد لاحظ أن أغلب أبوابه مغلقة وعليها دائرة حمراء بوسطها نقطة بيضاء أو نقطتين وأحيانًا ثلاث.. فسأل:

لماذا يبدو هذا الجزء من الوادي وكأنه مهجور؟ ولماذا توضع علامة حمراء متماثلة على بعض المنازل دون غيرها؟

هذه العلامة تعني أن بداخل هذا البيت طفل يصلح لمراسم التتويج.. والنقطة البيضاء هي عددهم.

وماذا يعني هذا؟

أخذ نفسًا عميقًا ثم تحدث:

لدينا مراسم تتويج أساسية وهي التي تتم عند تتويج الملك وعندها تشتعل المملكة فرحًا وبهجة وتقدم الولائم في الطرقات وتوزع المشروبات وتعلق الزينة..

صمت برهة قبل أن يكتسي وجهه بالألم ويشوب صوته بعض الحزن وهو يكمل:

أما مراسم التتويج الأخرى فهي مراسم تتويج القواد العشرة في الجيش التي تتم كل ثلاث سنوات.. تلك المراسم التي تتحول إلى مأتم في كل بيت جعسوسي.

لمَ؟

هذا التتويج ليس بالمياه المقدسة كتتويج الملك بل تكون بالدماء المقدسة.. يتم أخذ ثلاثة أطفال وتصفيتهم إلى طفل واحد وبعدها يتم أخذ دماء هذا الطفل لتوضع في إناء التتويج.

يا للبشاعة.. هل تقتلون الأطفال هكذا؟

قالها أيوب ساخطًا بينما عقد عامر حاجبيه..

حرك كايو يديه نافيًا وهو يقول:

كان يُقتل في السابق لكن الملكة مارا خففت الأمر واستبدلت قطع رأسه بقطع يديه.

مال نحوهم ثم همس:

الملكة ترسل أموالًا لأهالي هؤلاء الأطفال تعويضًا لهم.

قال أيوب مستنكرًا:

وهل تظن أن تلك الأموال ستعوضهم عن عيشهم عاجزين؟

إنها القوانين يا سيد أيوب.. للأسف لن تستطيع الملكة مخالفتها.. وإلا انفرط عقد المملكة منها ليلتقطه قائد الجيوش.

قوانين جائرة.

قالها أيوب وهو يتركهما ويسرع الخطى، فتبادل عامر وكايو النظرات ثم تبعاه قبل أن يفعل شيئًا أحمق.

قادهما كايو لأقصى مكان بالوادي؛ أرض متسعة تغزو الطحالب جوانبها وفي وسطها منحدر عميق، وقفا على جانبة ليشير كايو لوسط المنحدر:

هنا قوة وادي الجعسوس.. هنا مياه الشرب المتجددة.

قالها واندفع يهبط المنحدر بسهولة بينما تابعاه عامر وأيوب بحذر على السلالم المنحوتة في صخور المنحدر حتى وقفوا على لسان صخري ممتد داخل البحيرة. نظر أيوب حوله يبحث عن مصدر المياه التي تغذي البحيرة؛ لم يجد سوى بضع قطرات ينزفها سقف الوادي لتلتقي بمياه البحيرة في رقصة بطيئة مملة يزيد من كآبتها تلك الجدران المحيطة.. لا يدري لماذا تذكر نهر جيحون في هذه اللحظة

وتذكر تذمره عندما تتجمد مياهه وهو الذي يعشق المياه الجارية ليكتشف آنه ولو كان النهر متجمدًا فإنه حتما سيكون أكثر حياة من هذا البؤس الذي يراه الآن.

قال كايو وقد لاحظ تعبيرات وجه أيوب:

ربما هذه البحيرة لا تضاهي الأنهار عندكم ولكنها تعني لنا الحياة بعد اللعنة، هذه البحيرة تقع تحت منبع النهر وهذه القطرات النازفة، إنها منه؛ كانت تسقي الوادي من قبل اللعنة والآن تسقي المملكة جميعها، نحافظ عليها أكثر من أبنائنا حد أننا خشينا أن نغير من هيئتها أو ندخل عليها أي تعديلات فتغضب هي الأخرى كما غضب النهر.

ولكنكم تستحقون الأفضل يا صديقي.

قالها عامر فرد كايو:

هذا ما نسعى إليه وصبرنا من أجله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المساء كان عامر ينتظر نون لتخرج مع ريحانة ونور شاه، خرجت نون أولًا نحته جانبًا ثم تحدثت:

عامر أعتقد أنك كنت محقًا بشأن آسية.

سألها باهتمام:

ماذا هناك؟

لا أعلم ولكنها لم تكن طبيعية عندما رأت إلين..

فكر للحظات ثم قال:

حسنًا دعينا أولًا نعود من عند العالم ماشو وبعدها سنعرف ماذا ورائهما؟

هزت رأسها بالموافقة ثوان قليلة وخرجت إلين تابعتها نور شاه وريحانة..

تحركوا جميعا باتجاه النزول ولكن فجأة أطلت آسية برأسها فلمحتها ريحانة فقالت لهم: اذهبوا أنتم وسألحق بكم في بهو الفندق.

عادت لآسية التي ما إن رأتها حتى قالت:

ريحانة أنا خائفة.. لا تتأخري أرجوك.

قبلتها في رأسها ثم قالت بحنان حقيقي.

لن أتأخر يا آسية صدقيني.. لا تخافي.. أيوب سيكون بالجناح المقابل كل ما عليكِ هو ضغط هذا الزر ليكون أمامك لا تقلقي لقد تم تأمين الجناح جيدًا.

أنا لا أخشى سوى نفسي يا ريحانة صدقيني.

مسحت ريحانة على رأسها ثم قالت وهي تحتوي وجهها:

وأنا أثق بنفسك التي حفظت لي أختي.

تركتها وانصرفت تتبعهم حتى وصلوا لمعمل العالم ماشو..

كانوا يدركون خطورة ما هم مقدمون عليه لذلك لف الجميع الصمت وهم يتابعون ماشو الذي حصل على قطرة من دم ريحانة ثم نور شاه قبل أن يضيف عليهما بعض العقاقير ثم يفحصهما مرة وثانية وثالثة ثم التفت إليهم ليقول بملامح باردة بعد أن هز رأسه قليلًا:

النتائج سلبية.

شعر الجميع وكأن دلوًا من المياه قد سكب عليهم.

وإلين تسأل بذهول:

ماذا تعني بسلبية؟ ألن نستطيع فك تلك اللعنة بعد كل هذا العناء يا أبي؟

أنا لم أقل هذا.

ضربت ريحانة كفيها ثم قالت بنصف ابتسامة:

هل من الممكن أن تلقي ما في جعبتك مرة واحدة؟ أم أن هذا شيء مشين في هذا الكوكب اللعين؟

رغم سخافة الطريقة التي تحدثت بها ريحانة إلا أنها لم تلقَ اعتراضًا من أحد ولا حتى من ماشو نفسه الذي تابع:

عندما طلب مني القائد جلوان صناعة مادة فعالة كان الهدف منها هو حفظ دماء طراد على هيئته مهما طالت المدة ولقد صنعت لراو ذاكرة بديلة.

ذاكرة بديلة.

قالتها إلين هذه المرة وقلبها يرتجف..

لا أقصد بديلة بالمعنى المفهوم، ولكنه قرص خارجي يحتوي على بعض الذكريات الخاصة به والتي لدي نسخة منها كنوع من التأمين إذا حدث شيء له نستطيع تتبعه عن طريق تلك الذكريات..

ولكن عندما أرسل رسالته ومع أول قمر نبضت القارورة علمنا أنه فضل القارورة ومستقبل الكوكب على نفسه.. لقد وضع قرص ذكرياته بالقارورة.. ولكن ما يحيرني أن التحاليل التي أمامي ليست بها أثر لتلك الذكريات..

وماذا يعني هذا.

يعني أننا سننتظر اكتمال القمر وتدخلا بنفسيكما لمنبع النهر.. فربما تنجحا.. ولكن لن تستطيع الملكة المجازفة بالإعلان عن شيء لا نثق به.

قال ذلك ثم أشار لريحانة قائلًا:

هذه الفتاه يختلف دمائها عن تلك.

كان يقصد نور شاه التي كانت تجلس في أقصى المعمل ووجهها ممتقع ونون تسأل:

لا نفهم أيها العالم ماشو.. نريد الإيضاح.

كاد أن يتحدث ولكنه أغلق فاه عندما قالت ريحانة وهي تهب واقفة:

ولكنني أفهم..

أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تكمل بثقة:

نور شاه لم تُحقن بالعقار الذي في القارورة..

نظر الجميع لبعضهم ونور شاه تغلق عينيها تحاول حبس دموعها قبل أن تلقي ريحانة بقنبلتها:

لأنها ليست ريانة.

قالتها ثم اقتربت بحزم لتجرد نور شاه المستسلمة في مقعدها من حذاء قدمها الأيسر لتجدها ملساء فحجبت الرؤية عن عامر وكايو وماشو بجسدها ورفعته في وجه إلين ونون وهي تصيح:

أخبراني هل تلتئم الجروح؟ ريانة كانت لديها وشم كهذا.

قالتها وهي تشير للوشم الذي يستقر بباطن قدمها.

التزم الجميع الصمت بينما ارتفع صوت نحيب نور شاه فابتعدت عنها ريحانة لتضرب أقرب منضدة إليها بقبضتها قبل أن تقترب منها مرة أخرى ثم تقول وهي تقبض على ذراعها بيديها وتمسك بخاتم أمها باليد الأخرى:

أخبريني من أين حصلتِ على هذا؟

جاوبتها دموع نور شاه.. فصاحت بها ريحانة:

أخبريني.

أبعدتها نون عنها وهي تقول:

اهدأي يا ريحانة.. سنعرف كل شيء.

الآن.

قالها عامر قبل أن يضيف بحسم:

لقد أخطأنا خطأً لن يغتفر يا د/ نون.. نتحمل تبعاته سويًا.. ولكن الأميرة نور شاه ستخبرنا بكل ما تعرفه الآن.. الوقت يداهمنا.

ابتلعت نور شاه ريقها ثم قالت:

هذا الخاتم يخصك أنت وآسية تركته أمكما مع رسالة أخرى تركتها في غرفتي.

«إذن كل ما تشعر به آسية هو من ذكريات راو»

سطعت هذه الجملة في رأس ريحانة وسقط الخاتم من يديها وانهارت في مكانها تحاول ألا تحرق نفسها لومًا ولكنها لم تستطع، لن يطفئ لهيب قلبها إلا عناق ريانة ودون تفكير اندفعت خارجة باتجاه الجناح الملكي.. وتبعها باقي الفريق..

ولكنهم عندما وصلوا لم يجدوا لريانة أدنى أثر ولا لأيوب..

لقد اختفت ريانة وأيوب..

واختفت الرسالة أيضًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-١٤-

على طرف فراشها جلست تلقي بالسهام واحدًا تلو الآخر حتى صنعت في الحائط المقابل ثقبًا صغيرًا..

سمعت صوت طرقات ضعيفة على الباب فاعتصرت السهم الذي بيديها ثم ولت وجهها شطر الباب دون أنت تتفوه بكلمة.. وبعد دقيقة من الصمت بدا لها خلالها أن اليد التي تطرق الباب مترددة..

فصرفت ريحانة وجهها للثقب الذي صنعته بالحائط لتواصل توسيعة بملامح جامدة تحاول أن تفرغ فيه طاقة الغضب التي بداخلها..

ثوان قليلة قبل أن تفتح نور شاه الباب وتقف على عتبته قائلة بصوت منكسر:

ريحانة.. هل أستطيع الدخول؟

تلحفت ريحانة بالصمت كأنها لم تسمعها وواصلت ما تفعل، أسقط في يد نور شاه ولكنها كانت تتوقع رد فعل أقسى من هذا لذلك تقدمت بحذر وجلست بجوارها تشاركها الصمت تفتش في ذاكرتها عن كلمات تستطيع البدء بها ولكن الندم الذي يأكل قلبها لم يترك لها الفرصة، فقط همهمة خفيضة لا تكاد تسمع حتى أنها نفسها لم تسمعها ثم:

أنا آسفة.

اقتلعت الحروف من حلقها بعد صراع عصيب ليخرج اعتذارها مهزوزًا.. لا تدري أبسبب بكائها الذي لم ينقطع طوال الليل حزنًا على آسية؟ أم بسبب خجلها وخوفها من مواجهة ريحانة التي ضغطت على أسنانها ثم قطمت السهم الذي بين يديها إلى نصفين وألقت به في أقصى الحجرة؟

ظنت نور شاه أن ريحانة ستنفجر بها في ذات اللحظة وهيأت نفسها لهذا، فمهما فعلت هي محقة وستتحمل أي شيء تفعله..

ولكن ريحانة أطلقت زفرة ساخطة ثم واصلت رمي السهام مرة أخرى بملامح غاضبة.. أكملت نور شاه بندم حقيقي:

أعلم أنك غاضبة مني بشدة.. أنا أيضًا لا أستطيع مسامحة نفسي.. لا أدري كيف فكرت بتلك الأنانية؟ كيف حرمت آسية ذات القلب النقي من شقيقتها؟ كيف لم أمسك بلجام نفسي؟ لقد كنت أمر بظروف استثنائية ولكنني لم أقصد.. كانت تلك الليلة أول معرفتي بالحادثة لذلك لم أكن متزنة.

نجحت نور شاه في جذب انتباه ريحانة وكادت أن تسألها عن أي حادثة تقصد؟ ولكنها ظلت على صمتها ففضلت نور شاه أن تخبرها دون أن تسأل:

أبي كان الصديق المقرب للسلطان محمود.. عندما كنت طفلة ذهب مع السلطان للصيد.. تم نصب فخ لهما من الرجبوت وعاد السلطان وهو يحمل جثة أبي..

لم أكن أفهم شيئًا حينها ولكن اخترق أذني قول أحدهم أن السلطان قتل أبي لأنه خائن..

ولأنني كنت طفلة نسيت الأمر مع الوقت حتى تحدث أحدهم أمامي عن هذا الأمر، عندها تذكرت ما مضى ولكنني خفت أن أبحث عن هذا الأمر، خشيت أن يكون أبي خائن.. كنت أتمزق كل يوم وأنا أتخيله موصوم بهذا العار، صدقيني الحقيقة تؤلم أحيانًا..

ولكنني بعد جهاد كبير مع نفسي قررت أن أعرفها مهما كانت قاسية..

صمتت برهة تلتقط أنفاسها ثم واصلت:

السلطانة أخبرتني أن أبي شجاع قد قاتل بضراوة وضحى بحياته من أجل صديقه السلطان لذلك رباني السلطان في قصرة أنا وآسية وعاملني كابنته..

وأعطت لي خاتما وتلك الرسالة، كان قد أوصى السلطان أن يعطيني إياها عندما أكون قادرة على التصرف في الأمور..

علمت من رسالته أنه كان أمير المحاربين عندما قتلت أمكما ووجد الخاتم والرسالة في ملابس آسية بعد أن دلتهما أمكما عليها..

أبي ترك لي رسالة ملحق بها جزء كبير من رسالة أمكما التي توضح بها ما فعلت وأن دماءكما تحتوي عقارًا عجيبًا تطلب عرضه على البيروني ولكن أبي خشي أو شعر أنها خرفة..

لقد نقمت عليه وبشدة؛ نقمت أنه حرمها من حريتها طوال تلك المدة، أعلم أنه خشي أن يتركني وحيدة وهو يعلم كم كنت متعلقة بآسية..

ضحكت ريحانة بسخرية، لتقول نور مدافعة:

أقسم لك لقد كنت أعزم على البحث عنك من أجلها، كنت سأستقر في القصر الشرقي وأحرر رقبتها، كنت سأساعدها على العثور عليك ولكن عندما حدث ما حدث خفت أن يأخذكما عامر ونون لتلك المغامرة دوني..

خفت أن أكون وحيدة.. خفت أن يحـــ.....

بترت عبارتها بغتة لتقول برجاء مليء بالندم:

سامحيني أرجوك..

«سامحيني»

رددت ريحانة الكلمة داخلها.. تحاول أن تجد لها موضعًا في قلبها ولكنه أبى..

تلك الخرقاء تظن أن تلك الكلمة تكفي لإطفاء نار الغضب بداخلها.. تلك النار التي لو خرجت لأحرقتها الآن وأفسدت كل ما في هذه المملكة اللعينة..

ضمت قبضتها بعصبية تحاول أن تستجلب بوادر العقل وتمنع نفسها من الانفعال بعد أن نجح نون وعامر في تهدئتها وسط الليل..

ومنعها سادن من القيام بتصرف أحمق قد يضر أختها قبل أن يضرها..

رمتها بنظرة حارقة جمدت الدماء في عروقها وجعلتها تتوقع أن ريحانة ستخرج خنجرها لتقتص منها، ولكن ريحانة قامت من على فراشها وجمعت سهامها في حقيبتها واتجهت للباب، قبضت على مقبضه وقبل أن تفتحه كان صوت بكاء نور شاه قد وصل لأذنيها فأخذت نفسًا عميقًا ثم التفتت إليها لتقول وقد تصاعد الغضب بداخلها:

ليس المهم أن أسامحك.. المهم أن تسامحك هي.

ثم تحولت نظراتها لقسوة قبل أن تقول:

صدقيني إذا فقدتها فلن أسامحك ما حييت.. ولن يستطيع أحد أن ينقذك من مخالبي.

قالتها ثم اندفعت خارجة تاركة نور شاه تغرق في دموع ندمها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رائع يا تارا لم تخيب فيك ظني.

قالها جيساو وعيناه تلتمعان من الأخبار السعيدة التي أتى بها تابعه، فرد عليه الأخير منبهرًا:

لولا فكرتك العبقرية بزرع عميل لنا داخل الحرس الخاص بالجناح الملكي ما تمكنت من دخوله ولا عرفت بأمر تلك الرسالة ولا استطعت خطف تلك الفتاة..

اتسعت ابتسامته ثم لوح بيده قبل أن يستطرد:

رغم أنني كنت أعارضك عندما زرعته منذ سنوات عدة إلا أنك دائمًا تثبت لي العكس.. نظرتك دائمًا ثاقبة يا سيدي.

انتفخت أوداج جيساو ليقول بزهو:

كنت أعلم أنني سأحتاجه يومًا ما.. هذا العميل من النوع الذي يخدمك مرة واحدة ولكنها تكون القاضية.. لقد ظل خاملًا طوال عشر سنوات كاملة حتى حان وقت نشاطه وفي الحقيقة كان مفيدًا، مفيدًا لأقصى حد يا تارا.. كان من الصعب عليّ أن يكون هناك جزء في تلك المملكة لا أملك فيها عينًا.

كان جيساو يتحدث وهو يوليه ظهره ثم التفت صوبه يرمقه طويلًا قبل أن يسأله بغتة:

أتعلم يا تارا لماذا احتفظت أسرتنا بقيادة الجيوش حتى هذه اللحظة؟

لم يكن تارا قد سأل نفسه هذا السؤال من قبل، كاد أن يجيب على الفور ولكن الطريقة التي سأله بها جيساو جعلته يدرك أنه يريد إجابة خاصة تدور في رأسه هو؛ لذلك فكر قليلًا ثم قال بتردد:

لأنكم تعلمون كل ما يدور بالمملكة.

ابتسم جيساو باستمتاع خبيث ثم قال وهو يتراجع في كرسيه واضعًا قدم على أخرى:

ليس هذا فحسب..

نظر إليه تارا باهتمام أرضى الكثير من غروره فوأد ابتسامته ثم مال نحوه ليهمس إيمانًا منه بأهمية الأمر:

بل لأننا لم نترك لأحد الفرصة لكي يكون قويًا القوة لا تكون إلا بأيدينا فقط، عندما تم وضع كتاب المواثيق جدي الأكبر جعل مدة وجود القواد العشر ثلاث سنوات فقط.

أتدري لمَ؟

هز تارا رأسه نافيًا فتابع جيساو:

لكي لا تقوى شوكة أحدهم ويستطيع تكوين حزبا خاصا به في الجيوش.. الولاء دائمًا يكون لقائد الجيوش من أصغر جندي لأكبر قائد..

سكت برهة ثم أردف وهو يلوح بيده:

لم يستطع أحد مخالفة هذه القاعدة باستثناء جلوان الذي كان له أتباع رغم أنه لم يكن يومًا من القواد العشرة؛ لذلك كانت إزاحته واجبة.. لقد رفضت الزواج والإنجاب لكي لا يأتي من أضعف أمامه يومًا ما وأترك له قيادة الجيوش..

ثم أنهى كلامه بحزم وعيناه تشتعلان نارًا:

لن تستطيع قوة في هذا الكوكب انتزاع المملكة من بين يدي.

ابتلع تارا ريقه خوفًا من نظرات سيده الحارقة التي لم تدم طويلًا فلقد تبدلت نظراته فجأة ثم قام يتحرك ببطء في غرفته ليقول وهو عاقدًا يديه خلف ظهره:

أتعلم يا تارا.. أشعر الآن أنني أريد تصحيح هذا الخطأ.. كلما جلست في أحد العروض العسكرية فكرت من سيرث هذا الملك من بعدي.. أعلم أنني سأعيش كآبائي كثيرًا.. ولكن عندما تحين اللحظة لابد وأن يكون ولدي صالبًا طوله يقبض على سلاحه حاملًا نفس هيبتي وقوتي..

سأبحث لك من الغد يا سيدي عن عروس مناسبة.

لا.. ابني لابد وأن تكون أمه مميزة لا يناطحها أحد في شرفها ولا نسبها ولا مكانها. والدة ولدي لابد وأن تكون ملكة.

فغر تارا فاه لدقيقة كاملة ثم سأله بشك:

هل تقصد؟

نعم.. مارا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقد تم قتل الخائن يا مولاتي ولكن للأسف لم نستطع إنقاذ ريانة ولا السيد أيوب ولا حتى الرسالة.. ولكنني وفرت لباقي الفريق حماية خاصة كما أمرتِ..

قالها سادن وهو يشعر بالضيق فشاركته مارا ضيقها لتقول:

ما يحرقني داخليًا أن جيساو استطاع زرع هذا الخائن طوال عشر سنوات دون أن نشعر..

للأسف يا مولاتي لقد خدعنا طوال تلك الفترة، لم يصدر عنه خطأ أو هفوة.. سجل نظيف تمامًا.. لقد زرعه جيساو من أجل هذه اللحظة تحديدًا.. لقد كانت غلطتي.. ولقد عدلتها..

ليس هذا وقت اللوم ياسادن.. أعتقد أننا يجب أن نجد حلًّا لجمع دماء الفتاتين.. لقد أرسلت في طلب جيساو لأتفاوض معه.

نظر إليها مستنكرًا وكاد أن يعترض ولكن أتاها نبأ حضور جيساو فأذنت له بالدخول. وقف سادن في مكانه المعتاد ينتظر دخول جيساو الذي رمقه بنظرة مستهترة ثم تقدم من الملكة قائلًا:

مولاتي الجميلة كيف حالك؟

نظرت إليه مارا قليلًا، ما زال يريد أن يناور ولكن الوقت يجبرها أن تدير الصراع بطرقة المألوفة الحاسمة، لابد وأن تصل الأمور لمداها الأخير سريعا.. تحدثت بهدوء:

جيساو.. أنت تعلم أن الأوراق الآن أصبحت مكشوفة فهات ما لديك.

اقترب منها وهو يضحك ضحكة صاخبة بدت أسنانه من خلالها كأنياب قاتلة قبل أن يقول:

أكثر ما يعجبني فيك يا مولاتي ذكاءك الفائق الذي لم أشك يومًا فيه.

ظلت مارا على هدوئها تنظر له نظرة فاترة، تتابعه بعينيها وهو يميل عليها ليقول بفحيحه المعتاد:

أعتقد أن الأمر الذي سأتحدث معك فيه أمر شخصي.. الأفضل أن نكون وحدنا.

تعلقت عينا سادن المتحفزتان بمارا التي نظرت نحوه ثم عادت لتجلس على كرسي عرشها وتستند بيديها على جانبيه ثم تقول بحسم:

تحدث يا قائد الجيوش.. حديثك لن يخرج من الغرفة.

قلب شفتيه ثم تحدث بعد أن رفع كتفيه وأنزلهما:

حسنا.. لن أتكلم عن السابق ولا عن تلك القارورة التي حاولت حماية المملكة منها.. وحاول ذاك الملعون جلوان إثارة البلبلة بقتله للملك طراد والحصول عليها..

تحمي المملكة من القارورة!

تجاهل جيساو نبرة السخرية التي في جملة الملكة واندفع يؤكد:

نعم يا مولاتي صدقيني.. هذا الشعب إذا شعر بالنعيم تمرد وثار وطالب بما ليس له.. ولكن إذا ضيقت الخناق عليه سينشغل بحاله ويستكين باحثًا عمّا يسد به رمقه في صمت..

سألت مستنكرة:

أي منطق هذا؟

لوح بيده ثم تحدث وهو يرفع قامته بزهو:

منطق العظماء.. منطق السياسة الناجحة الرشيدة.. أنتِ رأيت بنفسك كيف استكان الشعب بعد حلول اللعنة؛ لقد قبضتُ عليهم بقبضة من حديد، لقد كان الأمر سهلًا..

قاومت امتعاضها ثم قالت بحزم:

ولكن اللعنة لابد وأن تنفك ياجيساو.. لنعمر سطح المملكة مرة أخرى.. أعلم أن هذا ضد رغبتك ولكنه أمر واقع وأعتقد أنك لا تريد نبش الماضي.

ضحك ضحكة قصيرة ثم قال وهو يعبث بذقنه:

حتى ولو نبشت، لن تجدي دليلًا واحدًا.. وعندها كما يقول كتاب المواثيق.. ستؤول المملكة لي..

وقبل أن يصدر منها رد فعل أردف وهو يرفع كفه بمحاذاة وجهه:

لكنني أريد أن أعرض عليك عرضًا أفضل يكفينا هذا النزاع.. أنا موافق على أن أفك اللعنة.. سأجعل الفتاتين تلتقيان وتدخلا الكهف وتصلا لمنبع النهر.. هذا طبعًا إذا لم يفترسهما الوحش.. وبعدها نعود مرة أخرى لقصورنا التي على السطح.

والمقابل؟

رد على الفور:

أن يجتمع شملنا.

نظرت إليه باستفهام فأجاب.

نتزوج.

شهر سادن سلاحه وهرول ناحيته ليضربه بقبضته في وجهه وهو يهتف:

كيف تجرؤ؟

ساااااااادن.

صاحت به مارا ليتراجع خطوتين للخلف تاركًا المجال لجيساو الذي عدل هندامه قبل أن يقول:

كنت أعلم أنك ذكية يا مولاتي..

ثم أضاف بغيظ:

ولكنني لن أمرر فعلته هذه.

نزلت درجتين من الدرجات الثلاث الذي يستقر عليها عرشها لتقول ببرود:

ستمررها يا جيساو.. ستمررها رغمًا عنك.

ثم أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تقول:

لأنني سأقبل عرضك.

ابتهجت آساريره ثم قال وهو يلعق شفته السفلى:

حسنًا اليوم سنعلن الزواج مع مراسم التتويج وبعدها أسلمك الفتاة لتذهب الفتاتين سويًا لفك اللعنة.

قالها وانصرف ليحتفل مع تارا وتركها خلفه تصعد لكرسي عرشها وقبل أن تجلس عليه تقدمت من العمدان الخمسة لتستقر عيناها على العمود الثالث، ثم تقول بصوت مختنق:

سامحني يا جلوان..

اقترب منها سادن ليقول:

مولاتي هل صحيح ما سمعته؟ أم أنك تناورين؟

جاوبت والتوتر يكسي نبراتها:

أريد كسب بعض الوقت يا سادن لكي لا يقتل الفتاة.. ولكن الآن لابد من إيجاد دليل.. دليل قوي وإلا..

هزت رأسها دون أن تكمل ولكن سادن فهم ماذا تقصد.. ستتزوج جيساو مجبرة، لا ترغب في أن يكون هذا نهاية المطاف ولكن الوضع الآن ليس به مجال للهروب، لابد وأن تصل بسفينة وطنها لبر الأمان مهما كان الثمن، لقد ضيق جيساو عليها الخناق فلا منفذ ولا مهرب وعقلها عاجز عن إيجاد حل سوى التضحية بنفسها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في أقصى غرفة ملساء لا يوجد بها سوى فراش واحد جلست عليه ريانة القرفصاء صامتة بائسة تنظر بعينيها لذلك الواقف أمامها يوليها ظهره يتفحص الجدران التي لا يعلم ماهيتها ولكنه لا يكف عن محاولة إيجاد ثغرة للخروج..

قال وهو يتفحص مقبض الباب:

لا تقلقي يا آسية سنخرج من هنا إن شاء الله..

قالت تلوم نفسها:

لو أنني لم أعثر على الرسالة ما أخذوها ولا عرفوا هويتنا.. دائمًا ما أسبب لمن حولي المشاكل.

تحدث يواسيها دون أن يلتفت إليها:

هوني عليك.. هذا تقدير الله.. ولكن ما أتعجب منه لماذا لم تقولي أنك ريانة الحقيقية؟

لم أكن واثقة.. كنت صغيرة حينما وشمتنا أمي.. لا أتذكر شيئًا سوى وجهها.. ربما تتذكر ريحانة أشياء عنها أكثر مني..

انحنى ليفحص إطار الباب وهو يقول:

لا فرق الله بينكما..

آمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عند المساء في ساحة ساسيوس الكبيرة جلست الأميرة مارا تتابع العروض الحربية التي تسبق مراسم التتويج وعلى يسارها جلس قائد الجيوش جيساو وعلى يمينها جلست الأميرة نور شاه، وعامر وبالقرب منهما وقف سادن الذي لم يكف نظره عن جيساو الذي تحرك قليلًا ناحية تارا ثم همس:

لا ترفع عينك من على سادن وضيوف الملكة، لا أريد أي مشاكل حتى انتهاء مراسم التتويج وإعلان الزواج.

لا تقلق يا سيدي كل شيء تحت سيطرتنا.

عاد جيساو لمكانه وبعد انتهاء العروض، انحنى أمام الملكة وقال وهو يبتسم ابتسامته السمجة:

سيدتي لقد حانت اللحظة.

هزت مارا رأسها قبل أن تلاحظ نور شاه اقتضاب وجهها فتميل عليها قائلة بهمس:

هل أنت بخير أيتها الأميرة؟

منحتها الأميرة ابتسامة خفيفة وهي تقول:

أنا بخير لا تقلقي.. لقد أصبحت أعلم كيف أدبر أمر نفسي جيدًا.

قالتها ثم قامت على الفور يتبعها جيساو ليصعدا بضع درجات في وسط القاعة، أخذت الملكة نفسًا عميقًا وهي تقف أمام إناء الكاهن.

نظرت لسادن تلقي له سؤلًا بعينيها.. هل من جديد؟

ليجيبها بزم شفتيه وهز رأسه ببطء قبل أن يخفض عينيه أسفًا

قام الكاهن بنثر بضع قطرات من زجاجة بيده في الإناء ثم بدأ في قراءة تعويذة خاصة بينما مدت مارا يديها لداخل ثيابها تتحسس شيئًا أخذته من الأميرة نور شاه قررت أن تلجأ للخيار الأخير إذا احتدم الأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقت طويل وأيوب يفحص كل شبر بالغرفة ولكن لا أمل أمامه ولا مخرج، يشعر بمسئولية تجاه تلك الفتاة التي تشاركه حبسة، زاد إحساسه تجاهها بالمسئولية عندما علم أنها شقيقة ريحانة الغائبة عنها منذ سنوات.. يبذل جهدًا مضاعفًا من أجل إنقاذها.. يريد أن يصنع لريحانة شيئًا يسعدها ولو كان هذا آخر شيء يفعله بحياته.. ولكن الأبواب كلها موصدة أمامه، زفر بقوة ثم اعتدل واقفًا ليقول بضيق:

سحقًا لهؤلاء.. جدرانهم وأبوابهم صلبة لأقصى درجة.. يبدو أننا لابد وأن نستخدم الحيلة لنجد طريقًا للخارج.

لم يكد ينهي عبارته حتى انفتح باب الغرفة فجأة ليطل منها أحدهم يحمل سلاحًا وقال من بين أنفاسه اللاهثة:

هيا بنا قبل أن يرصدوننا.

وقفت ريانة بحذر بينما دقق أيوب النظر في وجهه ثم قال:

ألست أنت...؟

بلى إنه أنا لا وقت للشرح.. هيا بنا وستفهم كل شيء في الطريق.. أحضر معك ريانة.

ثم ناوله سلاح وهو يقول:

من الأفضل أن تمشي خلف الفتاة.

أمسك أيوب سلاحه وأشار لريانة فتبعت القادم ثم تبعها أيوب، كانت هناك بعض الجثث في طريقهم وبعض التخريبات فقالت ريانة:

كيف سنخرج من هنا؟

لا تقلقي رجالي سيؤمنون لنا الطريق.

تابعاه وتولى هو قتل من يقابله وتولى أيوب من يأتي من الخلف خرجوا عبر نفق سري ليجدوا أنفسهم على سطح المملكة وبهرولة سريعة كانوا قد وصلوا لبداية الطريق المؤدي للكهف فتوقفوا يلهثون وقال القادم لأيوب..

سيد أيوب أنا أعتمد عليك في حمايتها، ستسلكون هذا الطريق حتى نهايته وهناك ستكون إلين في انتظاركما بصحبة ريحانة ونون وكتيبة من الجنود.. إذا لم تجدوهم اختبئا حتى ظهورهم.. لابد وأن أغيث الملكة.. كن حذرًا.

هز أيوب رأسه متفهمًا وهو يقول:

فتح الله طريقك، لا تقلق علينا.

تركهما واندفع للطريق المعاكس بينما تابع أيوب المسير وخلفه ريانة ولكن ما إن وصلا للكهف حتى ظهر ثلاثة جنود أمامهما ودون تفكير قتل أيوب أولهما ولكنه شعر بنار تحرق صدره فدفع ريانة جانبًا فانكمشت مكانها وهي تضع يديها على فيها تكتم أنفاسها بعد أن رأت الدماء تغرق أيوب..

أما هو فقد واصل تقدمه وهو يطلق سلاحه بلا هوادة، كان يعلم معنى توقفه وبعد أن قتل الجنديين سمع جلبه تأتي من بعيد فأيقن أن هناك فوج من الجنود في الطريق فتلفت حوله بسرعة يبحث عن مكان آمن لريانة، توقفت عيناه عند مدخل كهف بيتوس وبحركة خاطفة انتزعها من ذهولها ليقذف بها لداخل الكهف وهو يصيح:

تحصني به.. ستلحق بك ريحانة..

تسمرت على مدخل الكهف، عز عليها أن يضحي بحياته من أجل إنقاذها.. فكرت لو بقيت بجواره تساعده فهي تعلم أنه لن يصمد كثيرًا بحالته هذه أمامهم هزت رأسها بأسف وترقرقت عيناها بالدموع.

فصاح بها:

هيا.. إنه المكان الوحيد الذي لن يستطيعوا الوصول إليك فيه.. ليس لدينا الكثير من الوقت.

ثم أضاف بعد أن ضغط على أسنانه ألمًا:

ثقي بي.

ما إن دخلت للكهف إلا وظهر أمامه أربعة جنود، انقض عليهم أيوب كالليث الجسور متجاهلًا جراحة التي تنزف وما إن انتهى منهم إلا وتحول جسده لمصفاه تنفجر الدماء منها من كل مكان، حاول أن يبقى صامدًا ممسكًا بسلاحه وبصعوبة شديدة حول وجهه ناحية الكهف وعندما تأكد أن ريانة اختفت به تخلى عن سلاحه وانهار فوق الرمال أمام الكهف مباشرة..

سقط وقد شخص بصره وسكن جسده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظرت مارا للطفل الذي سيُهدر دمه بعد قليل، كان يبكي في صمت دموعه تجري أنهارًا مستسلمًا لمصيره فهو يعلم أن لا منقذ..أغمضت الأميرة مارا عينيها تحاول دفع الألم عن قلبها ولكنها فشلت وما زاد من وجعها وحنقها اقتراب جيساو منها ليهمس:

الكاهن سيعلن زواجنا قبل التتويج.. استعدي.

وقف أكبر الكهنة ليقول:

اليوم يوم ميمون في المملكة.. اليوم سنعلن زواج الملكة من قائد الجيوش.

قال جملته ثم تحرك قليلًا لتظهر شاشة عملاقة مقسمة لنصفين.. مارا على اليمين وجيساو على اليسار..

ثم تحركت الصورة عنهما لتظهر بعض إنجازات جيساو التي استحق بسببها قلب الملكة..

كانت مارا تقاوم رغبة عارمة في القيء، تشعر بالاشمئزاز والاستحقار من هذا الواقف بجوارها الذي مال عليها ليهمس بطريقة بدت لها مقرفة:

أعلم أن لزواجنا ظروفا خاصة ولكنني أعلم أنك تحبين الرومانسية.

لم تستطع منع نفسها من النظر إليه نظرة تحمل كل كراهية الكون.. حاولت أن ترى فيما ستفعله أي لمحة إيجابية أو بادرة خير للمملكة حتى ولو كان هذا لا يتوافق مع هواها ، ولكنها لم تجد سوى نارًا مستعرة ستحرق المملكة قبل أن تحرقها.. فكرة واحدة أصبحت هي المسيطرة عليها..لا ترى في غيرها بديلًا لإنقاذ المملكة من هذا المأفون..

قبضت على خنجرها الذي تخفيه في ملابسها وقررت إنهاء هذه المهزلة بنفسها، ستزهق روحه قبل أن يجد من يتصدى له.. وبكل ما يعتمل في نفسها من كراهية أخرجت الخنجر لتطعنه به..

حاولت ولكنها لم تستطع، لقد أمسك جيساو بيديها وهو يقول بقسوة:

كنت واثقًا أنك غبية وخائنة.. التخلص مني لن يكون بهذه السهولة.

حاولت مارا التملص من قبضته ولكنه كان أقوى بكثير، حاول سادن وعامر التحرك لإنقاذ الملكة ولكن جنود جيساو منعوهما ليقفا عاجزين وأصبح الصمت يخيم على المكان..

همس جيساو في أذنها:

أشكر غباءك أيتها الملكة الذي قدم لي المملكة على طبق من ذهب كما يقول كتاب المواثيق..

شعرت مارا أنها وقعت في الفخ كالغر الساذج ولكنها تجلدت ثم استجمعت قواها وأخرجت غيظها وسخطها منه في بصقة عطبت بها وجهه.

أغلق جيساو عينيه وهو يضغط على أسنانه، ثم مسح وجهه بطرف كمه ليظهر فوران وجهه الغاضب وعيناه المشتعلتان قبل أن يرفع كفه ليهوي به على وجهها بصفعة قوية حتى أن مارا أغلقت عينيها كرد فعل طبيعي ولكن لم تشعر بالصفعة ولا بألمها تسمع فقط همهمات بالقاعة..

وجيساو يقول ذاهلًا:

أنت!!!

فتحت عينيها ببطء لتجد أمامها آخر شخص تتوقع رؤيته ممسكًا بيد جيساو.. حتى ظنت أنها تحلم ولكنه نظر إليها ليقول بهدوء:

أنت لا تحلمين إنه أنا.

جـــ.. جـــلـــ.. جلوان.. كيف؟!

فيما بعد.

لم يكد ينهي عبارته حتى أضيئت الشاشات مرة أخرى ليظهر عليها هذه المرة طراد الذي كان يحاوره جيساو، كانت صورة بلا صوت ولكنها بألف معنى..

امتقع وجه جيساو وأصبح يحاكي الموتى وهو يرى نفسه على الشاشة يرفع سلاحه في وجه طراد ليقتله وتتدفق الدماء من صدره ثم يسقط أرضًا قبل أن ينحني جيساو ليسحب دماءه ويضعها في قارورة شفافة ثم يخبئها في ملابسه ويصيب نفسه و...

صاح جيساو هائجًا في هذه اللحظة:

إنه كذب.. مقطع ملفق.. أيها القواد العشر اقبضوا على هذا الأفّاق.

لم يتحرك أي منهم وجلوان يقول باستحقار:

هؤلاء القواد يدينون بالولاء للمملكة وليس لك أيها الخائن.

زاد غضب جيساو فصاح فيهم:

سأحاكمكم جميعًا بتهمة الخيانة وأولكم ملكتكم.

قالها ثم أخرج سلاحه وصوبه إليها ضغطه مرة وأخرى ولكنه لم يعمل فضحك جلوان ثم اقترب منه ليقول بشماتة:

يبدو أنك قد نسيت القواعد.. من يدخل مكان به الملكة يتعطل سلاحه ذاتيًا..

كان جيساو يعلم هذه القاعدة جيدًا ولكنه يعلم أيضًا أنه لم يعد يطبق هذه القاعدة على نفسه منذ سنوات..

مال جلوان نحوه ثم همس بسخرية:

مفاجأة أليس كذلك؟

كيف حصلت على هذا القرص؟ لقد أعدمه تارا بنفسه..

تارا لم يعدمه.. تركه عنده لوقت الحاجة.. يبدو أنه كان يجهز نفسه ليخلفك ولكن حديثك عن زواج وابن أشعل نار الغيرة بداخله فرأى أن الأسلم التضحية بك والقفز على منصبك.. صدقني تابعك الطماع هذا لم يكن يحتاج سوى لتلميح بسيط أنه إن تمت إزاحتك فسيكون هو أنسب من يتولى قيادة الجيش بخبرته الفذة.

رمقه جيساو بنظرة حانقة وهو يقول:

كيف خططت لكل هذا؟ وكيف اختبأت طوال هذه المدة؟

لقد كان الأمر شاقًا.. ولكنك ساعدتني كثيرا.

رد باستنكار:

ساعدتك!!

نعم لقد كنت تراقب كل شبر بالمملكة إلا نفسك.. قصرك كان المكان الأمثل للاختباء.. وغرفتك السرية، كانت عيني على كل ما يدور بالمملكة.. وشفرتي الخاصة التي تنقلها العصافير التي تحوم حولك كانت وسيلة تواصلي مع أتباعي.. صدقني ياجيساو أنت كنت الداعم الرئيسي دون أن تشعر.

الخزي والعار والهزيمة.. كلها مشاعر اجتاحت عقل وقلب جيساو في هذه اللحظة ولكن مشاعر الكراهية كانت هي المسيطرة؛ لن يقبل بهزيمته أمام جلوان أبدا، لن يقبل بسحب البساط من تحت قدميه أبدا، سيجعلهم يندمون وأولهم جلوان..

لن أدعك تفوز أبدًا يا جلوان.. ستخسر كل شيء.

صرخ بها وانقض على الخنجر الذي سقط من يد الملكة منذ قليل.. ثم جذبها نحوه ووضع الخنجر على رقبتها وهو يقول بهيستيريا..

سأقتلها يا جلوان.. سأقتلها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خطوات حذرة وهي تتقدم، مدخل مضيء قليلا بفعل ضوء القمر الذي يتسرب للداخل باستحياء وكأنه يخشى قطع الرهبة والوحشة التي تسكن المكان، شجيرات صغيرة إلى متوسطة تملأ المكان أوراقها بنصف حجم الكف يتدلى منها ثمرة تميل للون ما بين الصفرة والحمرة، حتى جوانب الكهف كانت تتدلى منها تلك النباتات بلا تنسيق أو ترتيب لتحجب حوائط الكهف عن ناظريها، رفعت رأسها لأعلى تظن أنها ستجد تلك النبتة في أعلى أيضًا ولكنها رأت سقف الكهف الرطب بوضوح لتعلم من أين يُسقى هذا الزرع، حوائط الكهف وتربته ندية كأنه شق في بطن بحر..

كانت المرة الأولى التي ترى فيها شيئًا أخضر على سطح هذا الكوكب ولكنها لم تهتم، لقد اعتادت على العجاب منذ جاءت إلى هنا، فكرت أن تنتظر ريحانة هنا ولا تتوغل للداخل فهي تخشى مواجهة وحش بيتوس وحدها.. ولكنها أصبحت تشم رائحة غريبة تشعرها بالدوار وتدعوها للقيء..

لقد قلّبت بخطواتها باطن الأرض اللينة دون أن تشعر لتنتشر الرائحة النتنة في الأجواء حتى تكاد أن تخترق مسام جلدها، أرادت التراجع ولكنها لم تستطع، عليها الالتزام بالقواعد.. الدخول مرة واحدة فقط كما أخبرها أيوب، يجب أن تتجلد لتقتل فزعها وتحرر الجميع، فزعها الذي ما زال يضعف من خطواتها ويشل قدميها، تقدمت للأمام لتبتعد عن تلك الرائحة التي تخنقها وتحصل على بعض الهواء النقي، تحسست الطريق أمامها بعد أن انعدمت الرؤية تماما، كانت قد تجاوزت هذه النباتات وبدأت تشعر بأرض صلبة تحت قدميها وقليل من الهواء حولها، لا تستطيع التقدم أكثر من هذا؛ تخشى أي مفاجآت تواجهها وحدها.. عليها أن تنتظر ريحانة ليصلا سويًا لمنبع النهر، سمعت صوتًا حولها فتحت عينيها المفتوحتين أصلًا تحاول أن ترى شيئًا ولكن الظلام الدامس كان هو السائد حولها، تحركت في المكان بعصبية عندما سمعت نفس الصوت وهي تصرخ برعب:

هل من أحد هنا؟

جاوبها الصمت لتزيد عصبيتها وهياجها ثم فجأة هوت.. سقطت في سرداب كبير معبق بالأتربة لا هواء به، فقط غبار وروائح نتنة تحوم حولها فتزكم أنفها..

حاولت أن تصرخ ولكن حلقها حبس، وضعت يدها على أذنها لتكتم تلك الصرخات التي تصمها لتكتشف بعد فترة أن هذه الصرخات تنبع من نفسها..

شعرت بتغيرات في الرؤية.. في الإدراك.. في الإحساس.. كل شيء مشوش، مهزوز، كما لو أن أحدهم قد طمس عينيها وعقلها معًا.

بعد أن لامست قدمها باطن الكهف استكانت مكانها دقيقتين ثم تحسست أعضاء جسدها، ومن بعيد لاح لها ضوء القمر يتسلل من شق دقيق في أعلى الكهف ليقضم جزءًا يسيرًا من ظلمته.. فجلست مكانها تتلفت فيما حولها..

بدأت تسمع أصواتًا متداخلة لتزيد الخوف بقلبها ثم رأت حولها أشباحًا بأنياب بارزة ورأس رفيعة، تتحدث إليها بأصوت مصمتة، تخيفها كعيونها المتوحشة، كبيرهم يقترب منها، قلص المسافة بينهما لخطوتين، زحفت برعب للخلف متراجعة حتى التصق جسدها بالجدار يدور بؤبؤ عينها فيما حولها تبحث عن منفذ..

تعلقت عيناها بشبح شعاع القمر الذي بدأ يتلاشى.. يحجبه الوحش عن عينيها.. سمعت دقات قلبها.. وأنفاسها المتلاحقة رعبًا..

رغبت في الصراخ ولكن الصرخة أبت الخروج للخارج، نضح العرق غزيرًا فوق جبينها وسقطت قطراته من يديها المرتعشة، صداع شديد يدق مؤخرة رأسها ثم في اللحظة ذاتها يتحول لمقدمتها ليأخذ نصيبه من جسدها المنهك..

دنا منها الوحش بطوله الفارع وأنيابه البارزة قبل أن يطلق صرخة مرعبة تشبه خوار الذبائح اقتلعت ماتبقى من صمودها كإعصار جامح يقتلع شجرة مائلة..

انكمشت في مكانها وهي تراه يدنو منها ليلتهمها ولكنها لم تنتظر هذه اللحظة لقد استسلمت للضباب الذي يهرول نحو رأسها وانهارت في ظلمات موحشة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل أن تتوقف العربة أمام الكهف كانت ريحانة تهرول عندما لمحت ذلك الراقد، كان وجهه شاحبا بلا حراك.. بركة صغيرة من الدماء حوله تنبئها أنه قد فارق الحياة، جلست بجوار رأسه لم تستطع لمسه خشية أن تواجه الحقيقة التي أمامها:

ولكن نون فحصته سريعًا لتقول:

ما زال يتنفس.

وجع رهيب يغزو قلبها وهي تمرر كلمات نون في رأسها هذا الراقد أمامها ليس أمامه الكثير، عاش دومًا يحاول أن يسعدها ويضحي من أجلها، تحمل معها مصيرا ليس له فيه ناقة ولا جمل..

ما زال يتنفس.. لكن جروحه تنبئها أنه ليس أمامه الكثير.. ودت لو عاد بها الزمن لتخبره بما كابرت كثيرًا لكي لاتعترف به حتى لنفسها..

وضعت يدها على عروقه لتجد نبضًا ضعيفًا فأغمضت عينيها ولكنها لم تستطع حبس دموعها النازفة..

لماذا عليها فقد أحدهم دومًا؟ وكأن الألم يتناوب بمصائبه عليها، تتأمر المحن لتختبر صبرها الذي أوشك على النفاد، وجدت نفسها تقترب من وجهه وتهمس في أذنه:

أيوب أرجوك استيقظ.. ما عدت أتحمل فقدًا مرة أخرى.. قاوم أرجوك.. قلبي لن يتحمل شقاءً بعد الآن.. أنت وقبلك ريانة و...

بترت عبارتها بغتة لتقول لنون بلوعة وهي تتلفت حولها والدموع تغرق خديها:

أين ريانة؟

قالت إلين التي كانت تتبع الآثار:

ريانة سبقتك للكهف.

نقلت ريحانة نظرها بين أيوب الراقد بين يديها يلفظ أنفاسه الأخيرة وبين مدخل كهف بيتوس وبين الفتاتين بحيرة وألم يمزق قلبها إربًا لتقول بصوت مبحوح وهي ترفع رأسها للسماء تتابع حركة القمر الذي اقترب من الزوال:

لم يتبقَ الكثير من الوقت.

قالت نون مشجعة وهي تمسك بيديها:

لا تقلقي سنهتم نحن به.

كانت نون تقول هذا وهي لا تعلم كيف ستهتم به وهي توقن أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة ولكن ريحانة منحتها ابتسامة باهتة لتقول وهي تعتدل:

إذا فتح عينيه أخبريه أنني كنت أتمنى أن أكون بجواره.

هزت نون رأسها وهي تقاوم دموعها التي انفجرت وهي ترى ريحانة تقتلع نفسها من بينهم وتتقدم سريعًا لداخل الكهف دون أن تلتفت خلفها.

فحصته إلين مرة أخرى لتقول:

إنه يرحل.

أعلم..

جاوبتها نون ثم أشارت إلى حيث ذهبت ريحانة لتكمل بألم:

وهي أيضًا تعلم.

قلبت إلين كف يدها الأيسر أمامها ثم حكت ذقنها بيدها اليمنى قبل أن تقول بتردد:

هناك طريقة واحدة ربما تنقذه..

نظرت نحوها نون وقد داعب الأمل وجهها قبل أن تكمل إلين بحماس:

زهرة أبيوس.

لم تفهم نون ماذا تعني إلين ولكنها قالت على الفور:

فيمَ الانتظار إذن.. هيا بنا.

نظرت إلين إلى وجه أيوب ثم عاودت النظر إلى وجه نون لتقول وقد فتر حماسها:

ولكن هناك شيء.

.....

ابتلعت إلين ريقها قبل أن تقول ببطء:

إذا دخل صومعة الزهرة لن يستطيع العودة لزمنه مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لمسة ناعمة تداعب جبينها ورذاذ منعش يجري على وجهها تجاهد لتفتح عينيها ولكن الظلام يصر على ابتلاعهما..

شيئًا فشيئًا يختفي الضباب وتتضح الرؤية ويختفي التشوش، هدأت الضوضاء الصاخبة التي كانت تصاحب الوحش بل اختفي الوحش نفسه ليظهر أمامها وجه باسمًا تظنه مألوفًا يقترب منها.. ثم:

حمدًا لله على سلامتك.

عادت ذاكرتها للعمل مرة أخرى وفُكت عقدة لسانها بعد أن اتضحت الرؤية تمامًا لتقول وهي تعتدل:

ريحانة.. كيف أتيت إلى هنا؟

لقد لحقت بك يا شقِّي لنكمل مهمتنا.

حمدًا لله أننا اجتمعنا مرة أخرى.

ضمتها ريحانة ثم همست:

لماذا لم تتكلمي يا ريانة؟ لماذا لم تخبريني أنك رأيتِ أبا نور شاه؟

لا أستطيع أن أتهمها بالكذب؛ إنها صاحبة فضل كبير عليّ أنا لم أعتد على المواجهة أبدًا، كنت أدعو الله أن يرشدها للصواب وتعود مرة أخرى.. أنا في الأساس لم أكن أعلم أن لي أختًا.. ولكن صدقيني كنت أشعر بك عند اكتمال كل قمر..

لا عليك حبيبتي أنا هنا.. لن نفترق مرة أخرى إن شاء الله.

استكانت ريانة لحظات ثم اعتدلت لتقول وهي تتلفت حولها بفزع:

هل قتلت الوحش؟

ابتسمت ريحانة لتقول:

هذه فائدة من فوائد الصيد في الغابات.

نظرت إليها ريانة بحيرة لتكمل:

النباتات التي بمدخل الكهف ماهي إلا نباتات تسبب الهذيان عند شمها ولأنها كثيرة فرائحتها تعبئ المكان، عندما رأيتها على ضوء القمر تعرفتها على الفور فكتمت أنفاسي حتى تجاوزتها..

هل تقصدين؟

نعم.. لم يكن هناك وحش؛ بل مجرد هلاوس سمعية وبصرية تصيب من يمر من خلالها.. الحمد لله أنك تحملتِ، من يدخل هنا يموت رعبًا.

حمدًا لله.

نظرت ريحانة لضوء القمر الضعيف ثم قالت:

هيا بنا الوقت ينفد.

تجاورتا لتتسلقا مكانًا مرتفعًا به الكثير من الصخور حتى وصلتا لينبوع يتفجر منه الماء ليحدث نافورة لا تتجاوز النصف متر، مكشوف للسماء بزاوية مائلة في قمة الكهف وتحت ضوء القمر أخرجت ريحانة خنجرها لتجرح يديها ويد ريانة ثم تسقط بضع قطرات من دمائهما في وسط المياه كما أخبرها ماشو، انتظرتا قليلا ولكن المياه لم تتغير، نظرت ريانة لأختها التي زمت شفتيها بحيرة ثم جثت على ركبتيها لتضع يديها التي ما زالت تنزف بكاملها في الماء وفعلت ريانة مثلها ولكن المياه ظلت على حالها فتبادلت الفتاتان نظرة يأس حقيقية وكل ما يدور في خلدهما عبارة واحدة..

«إنهما ليستا الفتاتين المقصودتين!»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان جيساو في حالة جنونية شديدة وحاول جلوان مسايرته والاقتراب منه ببطء..

ولكنه هدده وهو يصرخ بهستريا:

إذا اقتربت مني خطوة أخرى سأذبحها..

حسنًا.. حسنًا.. سأفعل ما تريد ولكن لا تؤذها..

قالها جلوان وهو يشير بيده ليهدئه وعقله يعمل بسرعة البرق يبحث عن وسيلة لإنقاذ مارا..

فجأة انشق خنجر عامر الذي كان سادن يخفيه له تحت مقعده تحسبًا لتلك الظروف ليستقر في يد جيساو الممسكة بالخنجر فصرخ وهو يشعر بألم شديد بها لترتخي ذراعه حول رقبة مارا التي نجحت في تحرير نفسها ليتلقاها جلوان وينقض على جيساو يقتله بخنجره..

ثم يقوم إلى مارا يحتضنها.. استكانت مارا دقيقة كاملة في حضنه ثم فجأة ابتعدت لتقول بسخط دون أن تهتم بمن حولها:

أين كنت يا جلوان.. لن أغفر لك ما سببته لي من ألم مهما حدث.

اقترب منها جلوان ليحتوي غضبها ولكنه لم يكد يتقدم خطوتين حتى اندفع سادن وهو يصرخ:

سيدتي لن تصدقي ما حدث للنهر لابد وأن تشاهدي هذا بنفسك.

قالها واندفع يضيء الشاشة العملاقة التي تكشف مجرى النهر واتسعت عيون الجميع فما يشاهدونه كان مذهلًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تستطع الفتاتان أن تتحدثا، أبعد كل هذه المشاق يضيع حلم المملكة؟

أبعد تلك الأهوال والمخاطر يصلا للا شيء؟

مسحت ريحانة وجهها بعصبية وتحركت حول المياه وهي تزم شفتيها تفكر في حياتها..

الحياة دائمًا تتقلب بين موج هادئ ذو نسمة رقيقة وإعصار جامح يدمر ما يمر به ولكنها دوما لاترى سوى الوجه الحقيقي للإعصار.. طوال حياتها تقف مستعدة للمصيبة التالية، تتسلح بكل قوتها لتواجه حتى ظنت يوما أنها ربما تكون سيئة الطالع ولكنها لا تدري ما ذنب هؤلاء الذين ينتظرون بارقة أمل تعيد لروحهم الحياة؟ جثت على ركبتيها لتقول بيأس:

لقد انتهى الأمر.

ظلت ريانة صامتة تنظر لشقيقتها ثم قالت تثبتها وتبث داخلها بذور الأمل:

دعينا نحاول مرة أخرى.

هناك خطأ ما.. صدقيني لن يتم الأمر.. لقد حُبسنا هنا.

صمتت ريانة مرة أخرى وأخذت تعبث بخنجرها في الأرض أمامها بلا هدف عندما سمعت صوتا معدنيا يحتك بسن الخنجر.. فالتمعت عيناها وهي تحفر أمامها بحماس حتى ظهر أمامها قرص دائري علية نقش بلغة غريبة، نظرت لريحانة التي انتبهت لما تفعل فجثت على ركبتيها بجوارها..

ابتلعت ريانة ريقها ومدت يديها لتسحب هذا القرص ولكنها لم تكد تفعل حتى سمعت جلبة قوية خلفها فالتفتت برأسها فلم تجد شيئًا ولكن الجلبة مستمرة كأنها صخور تتجهز للسقوط..

جذبتها ريحانة للخلف بلا هدف، وقفتا على جانب النافورة تتلفتان حولهما بريبة وعشوائية فهما لا يعلمان من أين ستأتي الضربة..

سكتت الأصوات وعم الصمت المكان فالتقطت الفتاتان أنفاسهما واعتدلتا في وقفتيهما وأطلقتا زفرتين حارتين بعد أن ظنا أن التهديد قد زال..

ولكن فجأة انشق الحائط الذي أمامهما بانسيابية ليظهر كتاب ضخم يستقر في مخبأ سري وفي نفس واحد هتفتا:

كتاب المواثيق.

تقدمت ريانة وصعدت على الصخرة التي تستقر تحته ووقفت على أطراف أصابعها لتزيد طولها بضع سنتيمترات وتناولته ثم عادت تقفز بسعادة وهي تقول:

لقد نجحنا.

ابتسمت ريحانة ابتسامة باهتة ثم أشارت للمياه أمامها قائلة:

لا أريد إحباطك.. ولكن المياه ملعونة كما هي.

أخذت ريانة نفسًا عميقًا ثم قالت وهي تبتسم بثقة: أعتقد أن لدي فكرة

هزت كتفيها ثم تابعت:

ربما تنجح.

نظرت إليها ريحانة دون أن تعلق

هل تشعرين بما أشعر.

عقدت ريحانة حاجبيها ثم فغرت فاها قبل أن تقول:

نعم أنت محقة.

ودون تنسيق اقتربت الفتاتان من حافة المياه وجلستا بجوارها، تناولت ريانة الخنجر الذي كان بحوزتها ورفعت قدمها ثم قطعت الوشم الذي كان ينبض كأنه جنينًا يبغي الخروج للحياة مسببًا آلاما لم تلتفتا إليها في موقفهما هذا..

ثم تناولت قدم ريحانة وقطعت وشمها هي الأخرى وقبل أن تضعا أقدامهما في منبع النهر أمسكت ريانة كتاب المواثيق باليد اليمنى وأمسكت يد ريحانة الأخرى ثم قالت:

ريحانة تمني شيئًا.. وأنا سأدعو لك به وأنت أيضا تفعلين معي مثل ذلك.

ترقرقت عينا ريحانة بالدموع ثم قالت بانكسار حقيقي:

أتمنى أن يعود أيوب للحياة.

قبضت ريانة على يد شقيقتها وقالت وهي تبتسم:

سلمه الله وحفظ عليه روحه وصحته وجمعكما على خير.

وأنتِ؟

أتمنى ألا نفترق أبدا.

احتضنتها ريحانة ثم مسحت بكفها على وجهها وهي تقول بابتسامة عذبة تنبع من قلبها:

لا فرقنا الله أبدًا يا شق روحي.

وضعت الفتاتان أقدامهما في منبع النهر ويداهما تتشابكان شعرتا أن هناك من يجذبهما حاولتا المقاومة ولكنهما فشلا فانزلقت أقدامهما وهما تصرخان لتجرفهما المياه لخارج الكهف..

وهناك استقرتا على الشاطئ تلهثان وريانة تشير للسماء التي يبزغ من خلالها ضوء الصباح ثم تقول:

لقد رحل القمر.

اعتدلت ريحانة في جلستها ثم نظرت للمياه وهي تقول بسعادة وحماس:

وتحرر الكوكب من اللعنة.

ودون ترتيب منهما اقتربتا من صفحة المياه النقية الشفافة تداعباها بأيديهما وهما تريان صورتيهما..

كل واحدة منهما نظرت لصورة أختها تمنحها ابتسامة رقراقة؛ ابتسامة تحمل في طياتها راحةً وأمانًا..

بعدما وجدتا السند الحقيقي وكأن كل منهما تقول للأخرى

مكانك يا أختي في القلب باقي

وحب لقاك يغزوه اشتياقي

ويجري في دمائي منك حب

كما الأمواه تجري في السواقي

-١٥-

في أعلى نقطة في الكوكب على جبل الجليد وقفت ريحانة أمام صندوق زجاجي شفاف تنظر لجسد أيوب المدفون في الثلج ولوجهه الغارق في غيبوبة منذ تركته أمام الكهف..

كان وجهه ما زال شاحبًا وكأن الدماء تضنّ على عروقه بالسريان وتعلن عليها العصيان..

من داخلها ودت لو كان يصلح أن تمده ببعض دمائها لتعيد الحياة لجسده ولكن لا حيلة بيديها..

تتحسس الصندوق وهي تجاهد لتتنفس في هذا المكان الذي يقل فيه الهواء بعد أن رفضت أن ترتدي قناعًا طبيًّا وهي تنظر له، تريد أن تشعر بكل ما يشعر، ودت لو اقتسمت معه آلامه كما كان يقتسمها معها دومًا.

لسانها لا يكف عن الدعاء..

نظراتها جامدة، دموعها لم تغادر مقلتيها..

تشعر الآن أنها ضعيفة هشة مثل سحابة صيفية لا يهتم لأمرها أحد..

ترتجف من البرد ولكنها لم تهتم..

أصبح جل آمالها أن يستيقظ..

أيوب وحده من قبلها بأخطائها وزلاتها..

تثق أنه سيمسح صفحة هفواتها وسيتغافل عن جفوها دون أن يذكرها بها كل حين.. وحده من يملك هذا القلب..

فجأة أصابها الهلع وحاولت التشبث بالصندوق عندما شعرت أن هناك من يسحبه لأعلى ليرتفع عدة أمتار عنها، تخشى أن يختل توازن الصندوق فيتهشم وتتناثر أجزاؤه، تابعته برعب حتى استقر مكانه أعلى عمود يناطح السماء التي تراها الآن قاتمة سوداء لا حياة فيها تشاركها ألمها كما كانت تفعل دومًا..

انتفضت عندما ربتت إلين على يديها وهي تهمس:

ريحانة هيا بنا.. لقد انتهت الزيارة.. يجب أن تعود الحرارة لوضعها لتنمو الزهرة أسرع.

لم تتحرك ريحانة قيد أنملة وكأنها لم تسمعها فوضعت إلين يديها على كتفها ثم واصلت حديثها بهدوء:

إذا بحثتِ في هذا الكوكب عمن تشعر بكِ فلن تجدي غيري.. ولكن بقاءك بجواره هكذا لن يفيد.. أيوب حالته صعبة ربما يحتاج للبقاء هنا لشهور لتلتئم جروحه.. أظن أنه من الأفضل أن تعودي للمملكة..

نظرت إليها باستنكار فتابعت إلين بهمس باك:

هل تظنين أنني بعد تلك السنوات استطعت أن أنسى راو؟ إنه يعيش بداخلي، يسري في عروقي، ولكن أحلامنا تحتاجنا أن نكون واقفين على أقدامنا لنحولها لحقيقة.

ارتجفت شفتا ريحانة وهي تقول بهمس متقطع:

ولكنه يحتاجني.

كانت إلين تعلم أنها إذا سايرت ريحانة في هذا الحديث فلن تستطيع التماسك لذلك حاولت أن تكون حازمة حينما ردت:

هو لا يحتاج سوى للرعاية الطبية الآن.

حقيقية تعلمها ريحانة جيدا ولكنها كابرت ثم أفصحت:

أخشى أن يستيقظ ولا يجدني بجواره.. سيكون إحساسًا مؤلمًا.. لقد خذلته كثيرًا ولا أريد تكرارها الآن.

تأملتها إلين وهي تراها تحاول الهروب مما يسكن بصدرها ورغمًا عنها هزت رأسها إشفاقًا عليها ثم قالت بصوت مختنق:

ولكن عليك الرحيل المركبة ستغادر قريبا.. عامر أخبرنا أنه لا ينبغي أن تبتعدوا عن كوكبكم أكثر من هذا لكي لا يتغير التاريخ.

حقيقية تعلمها ولكنها أفزعتها صدمتها ارتجف جسدها لثوان أغمضت عينيها تعتصر الألم بداخلها ثم استدارت لتلقي نظرة أخيرة على أيوب تودعه بها ثم جاورت إلين في الهبوط من قمة الجبل مستسلمة تماما لمصيرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مهرجانات في الشوارع ابتهاجًا بتلك اللحظة التاريخية مستبشرين بمستقبل أفضل يلوح لهم في الآفاق..

بعد أن كادوا ينسون مذاق المياه العذبة وشكل النهر الرائق يلتقطون صورا بجواره وكأنهم يريدون أن يؤكدوا لأنفسهم أن ذاك الحلم أصبح حقيقة..

رايات ترفرف فوق المباني، موسيقى تصدح في كل مكان، البيوت والطرقات طليت بالألوان الصاخبة المبهجة، فلكلور شعبي على ضفاف النهر رجال وأطفال يرسمون أعلام مملكتهم على صدورهم العارية ووجوههم المبتسمة، الشباب ينظمون المسابقات؛ يقف أحدهم في منتصف دائرة من معدن يحاول أن ينتصب بجسده الممشوق ليتحمل ضغط المياه الذي سيغمره بعد قليل، فجأة يطلق الآخرون السهام في أماكن محددة لتنفجر المياه الرائقة من كل مكان في الدائرة لتغرقه النافورة ومن

يستمر أطول وقت ممكن يكون هو الفائز ويرتدي طوق الزهور الذي صنعته النساء له اللائي كن يتزين بملابس مزركشة وألوان خلابة لحظات من السحر والجمال التحمت فيها كل المشاعر واندثر فيها الألم شعب المملكة أصبح على قلب واحد لا تفرقة بين جعسوسي وغيره، يتجاوران كتف هذا في كتف ذاك وكأنهم يتعاهدون على بناء وطنهم مرة أخرى.

تطل عليهم ملكتهم بفستانها الجذاب المرصع بالأحجار الكريمة ووشاحها الذهبي البسيط الذي يغطي نصف كتفها ثم يتدلى لخصرها ذاك الوشاح الذي كنت أمها ترتديه وهي تجاور الملك سنمار في المناسبات العامة ولكنها لم ترتديه أبدا بعد أمها، اليوم حرصت على ارتدائه ربما لأنها تريد أن تشعر بروح أبيها وأمها معها في هذا اليوم فهي ترتدي تاج أبيها ذو الماسة الخضراء التي لا مثيل لها في المملكة بأسرها.

ولكن ما إن رآها الشعب في الميدان الكبير إلا وبدأوا يهتفون باسمها بهيستريها ولكنها أشارت لهم ليصمتوا فأطاعوها لتقول بحماس وبأعلى صوت لها ومع المكبرات التي كانت تحيط بالميدان أصبح صوها مدويًا:

لا هتاف باسم الحاكم بعد اليوم.. لا ولاء إلا للوطن.

وبهستيريا أخرى هتف الجميع ليهتز الميدان من تحتهم:

بروكسيما.. بروكسيما.. بروكسيما.

تنفجر المشاعر المكبوتة داخلك وتكون الفرحة مضاعفة عندما تأتي بعد أن يتسرب اليأس إلى قلبك وتوشك أن تفقد الأمل، وهذا ما حدث مع شعب كوكب بروكسيما.. تابعت مارا الاحتفالات، ثم عادت لقصرها تشعر بالسكينة والراحة؛ فها هو شعبها يشم نسيم الحرية مرة أخرى بعد سنوات عجاف ظنت أنها لن تمر أبدا، جلست على كرسي في غرفة ملحقة بالقصر عندما دخل جلوان فتقدم منها وقال بأدب من يعرف مقامه:

مولاتي لقد طلبتِ حضوري.

تعمدت مارا طوال الفترة السابقة ألا تقابله خشية ألا تتحكم في انفعالاتها التي لابد وأن تقننها بعد أن أصبحت ملكة؛ لذلك فضلت ألا يكون لقاؤهما الأول قاعة العرش خوفًا من فلتات قلبها التي لا تضمنها ولكنها بملامح حاولت أن تبدو جامدة قالت:

اجلس يا جلوان.

جلس جلوان الذي كان يريد أن يفرغ ما في جعبته ليهدأ قلبه، كان ينتظر هذا اللقاء ليوضح ويبين ولكن يبدو أن مارا تغيرت كثيرا، تغيرت حد أنها صبرت كل تلك الأيام دون أن ترسل له وهي التي كانت يغلبها فضولها ولا تطيق بالًا بحجب سر لديه عنها..

قطع أفكاره قولها له بلهجة آمرة:

أخبرني كيف نجوت؟

أقر جلوان الآن أن مارا قد تغيرت أكثر مما كان يتخيل، شعر ببعض الضيق من لهجتها الجافة ولكنه أجاب بهدوء:

عندما سقطت في حفرة الإعدام كنت أعلم أن جيساو سيترك كتيبة لحمايتها ولقد رتب سادن أمر هذه الكتيبة؛ كانوا من الجنود الموالين لي، لم يكن من الصعب وضع بعض الدماء على ملابسي وبعد ذلك جروني ليرموني تحت أقدام جيساو.

لم تكن تملك سوى أن تصيح بغيظ:

سااااااادن هل كان في اللعبة من أولها؟ سحقًا لكما..

كان سيخبرك في الوقت المناسب ولكن اختفاء راو بالقارورة قلب الأمور رأسًا على عقب.

قال جملته الأخيرة بندم تعرفه جيدا ولكنها لم تهتم وتساءلت تضيق عينيها توجسًا:

وماذا لو اكتشف جيساو الخدعة؟

أجاب على الفور وكأنه كان يتوقع مثل هذا السؤال:

حالة الانتشاء التي كان بها جيساو كانت تمنعه حتى من النظر تحت قدمية.

رفعت أحد حاجبيها ثم ابتعدت ثلاث خطوات؛ تريد أن تزن كلامه برأسها.. تعلم أنه خبير في دراسة الشخصيات وردود الأفعال وهذا أكثر ما كان يزعجها منه أنه كان دومًا يتنبأ بردود أفعالها ويخبرها بها بطريقته الساخرة التي كانت تكرهها، ولكن الآن الوضع مختلف؛ لم يعودا هذان الحبيبان، إنها تحاسبه من موقع مسئوليتها تجاه شعبها، حاولت أن تناور وسألته ببطء بعد أن عادت للالتفات إليه:

ألم تخف أن أكتشفها أنا؟

شعرت بمدى حماقة سؤالها عندما أخذ جلوان شهيقًا قويًا ثم أخرجه زفيرًا متقطعًا قبل أن يصرح:

كنت أراهن على حبي بقلبك.. كنت أعلم أن الإحباط سيجعلك تغادرين المكان بأقصى سرعة.

ولأنه كالعادة تنبأ بما ستفعل فردت بحدة وهي تشعر أنها ما زالت كتابًا مفتوحًا له رغم الغموض والحذر الذي حاولت أن تتلبس بهما:

لذلك لم تخبرني؟

كانت الطريقة الوحيدة التي ستجعلك تقبلين الحكم.. خشيت إن علمتِ أنني على قيد الحياة أن تهتزي وتغلبك عاطفتك خاصة بعد أن عرفتِ الحقيقة من سادن.

نفس طريقته الغبية السابقة؛ يظن أن تلك المبررات ستشفع له.

أولته ظهرها وهي تستمع إليه اعتراضًا ولكنها في الحقيقة تريد ألا تضعف أمام عينيه، أما هو فقد تخلى عن الحكمة التي تحيط بكلماته السابقة ليتابع بملامح تقطر حبًا:

ولكنني لم أتركك وحدك دقيقة واحدة؛ كنت أدفع المخلصين دفعًا في طريقك، كنت مستعدًا دومًا للتدخل إذا فكر أحد في إيذائك.

كانت تستعيد صورته التي أصرت على حفرها على العمود بجوار عرشها لكي تجلد بها ذاتها حتى لا تنسى يوما جرمها، حاولت حبس دموعها خاصة وهي تستمع لجلوان يترجاها:

سامحيني أرجوكِ.

لم تشعر بأي تعاطف معه، بل على العكس زاد سخطها نحوه ونسيت مكانتها ومقامها ووجدت نفسها تلتفت نحوه لتثور في وجهه؛ ثورة امرأة عاشقة لم يهتم حبيبها لمشاعرها:

أحاول أن أسامحك.. ولكن الألم الذي سببته لقلبي جعله يأبى الصفح.

حاول الاقتراب منها فابتعدت عنه بعنف ثم رفعت أصبعها في وجهه لتكمل اتهامه:

كانت الحقيقة بيدك ودفعتني دفعا لقتلك.. كنت تعلم أنني أتألم كل يوم وأعيش أسيرة ذنب لم أقترفه وتركتني هكذا..

كان صوتها قد تلاشى في عبارتها الأخيرة وبدأت تشعر أنها ستنهار وهذا ما لا يليق بها فصمتت وأشاحت بوجهها للناحية الأخرى.

اقترب منها ببطء ليقف خلفها تمامًا وهو يعلم أنها مشتتة بين قلبها وعقلها الآن، همس بندم حقيقي:

آسف.. صدقيني كنت أتألم أنا أيضًا دون وجودك بجواري.. ولكنه الواجب الذي دومًا يكبل مشاعرنا.. قدرنا أننا يجب أن نكون على قدر مسئوليتنا..

كانت تواصل هز رأسها بأسف تحاول أن ترأب الصَّدع بداخلها فتحدث بصوت مختنق:

أتعلمين؟

جاوبه الصمت فأكمل وهو يتمنى أن تستدير له ليرتمي في أحضانها:

لا أدري كيف أقول هذا.. ولكنني أحيانا كنت أتمنى أن أدير ظهري لكل شيء وألقي عن كاهلي وكاهلك تلك المسئوليات وأن أنهي هذه اللعبة وأقتل هذا الوغد وأرحل بك بعيدا..

تقطعت أنفاسه وهو يكمل:

كنت أعنف نفسي لأقاوم لحظات ضعفي هذه.. كنت أدفن شوقي في أعماقي وأمضي نحو هدفي..

تلبثه رداء التشتت ليصمت ثوان ثم يتابع بعد نفس عميق:

حبك كان هو الشاحن الذي يعبئ داخلي بوقود المقاومة.. كنت أوصل زرع الصالحين في الجيوش استعدادًا لتلك اللحظة.. أدفع المخلصين حولك لتستعيني بهم.. كنت أتمنى أن تسكت مطارق الذنب التي تنهش قلبي بضراوة ولكنها لم تفعل، صدقيني ألمك بعد أن علمت الحقيقة هو أكبر ذنوبي التي سرقت مني النوم دون رحمة، يخنقني كل لحظة بلا شفقة.

وضعت يديها على قلبها لتكتشف أن المراوغة ما عادت تجدي.. إنها تعشقه بكل خلجة من خلجات جسدها فاستدارت إليه لترى الدموع تغرق وجهه والألم يعتصر فؤاده ثم انهارت مقاومتها عندما رفع كمه لتظهر تحته الأسورة التي صنعها لها وهو يقول:

كانت هذه سلواي في لياليّ العجاف.

ابتسمت مارا وهي تنظر للأسورة بلهفة ثم تسأله:

لقد بحثت عنها كثيرًا.. كيف وصلتك.

لم يجب جلوان بينما تناولتها مارا وقربتها من أنفها تتشممها بحب وحنين شديد وهي تغمض عينيها.. كان جلوان يتابعها بشوق يتذكر لحظاتهما السابقة وحنينه الجارف نحوها شعر أن عليه أن يقول كلمة حبسها كثيرًا

ودون مقدمات قال:

أتتزوجينني.

فتحت مارا عينيها ونظرت في عينيه المليئة بالحنين ثم أغمضت عينيها مرة أخرى تريد حبس صورته بداخلها فلا تفارقها أبدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ نزلت من جبل الجليد تجلس صامتة، تضع قوسها على فخذها، تتحسس خشبه الصلب ووتره المصنوع من عصب حيوان قوي، الخالي من السهام، تشده نحوها بطريقة معينة ثم تتركه فجأة فيحدث صوتًا عميقًا مموجًا كحياتها التي أضحت متقلبة في فترتها الأخيرة تفكر أن هذه الرحلة لابد وأن تنتهي يومًا ولكنها لا تتخيل أبدا أن ترحل وتتركه وحيدًا في حالته هذه بلا سند في عالم لا يعرف عنه شيئًا..ما أقسى أن تعيش وحيدًا وتموت وحيدًا..

تضع سهمين مرة واحدة في وتر قوسها، تجذبه جيدًا بيدها اليمنى وتضع خنصر يسراها بين السهمين ثم تتركه فيخرج السهمان في اتجاهين مختلفين ليستقر الأول في شجرة على يسراها والآخر في شجرة تبعد عن الأولى ثلاثة أمتار كاملة.

مستغرقة في أفكارها؛ بالكاد وجدت أختها التي وعدت أمها يوما بحمايتها.. والتي لم ترتوِ من قربها، عليها الاختيار بين خيارين كليهما مر..

وأيسرهما صعب..

لم تنتبه لنور شاه وريانة اللتان كانتا تصفقان بانبهار قبل أن تتقدم منها نور شاه ببطء لتناديها:

ريحانة.

أخير نظرت إليها فجلست بجوارها وبعد ثوان من الصمت تحدثت وهي تشير لريانة:

سامحتني آسية.. ولكنك تتجنبين الحديث معي منذ ما حدث ولا أريد أن نرحل دون أن أعرف أنك غفرتِ لي، صدقيني أنا لست بهذا السوء.

نظرت إليها ريحانة مليًا ثم قالت بهدوء:

أنا أيضًا لست بهذه القسوة التي أبدو عليها.. كلنا نخطئ..

ثم انتزعت ابتسامة من داخل الحرب المستعرة برأسها لتضيف بود حقيقي:

لا عليكِ حبيبتي.

كانت ريانة قد جاورتها لترتمي الفتاتان في حضنها فمسد ريحانة رأسيهما ثم همست:

المهم أنكما بخير.

ثم أضافت بغصة تحرق داخلها وهي تنظر لريانة:

والأهم أن تعتنيا ببعضكما.. حتى نلتقي مرة أخرى.

اعتدلتا ثم قالت ريانة بانزعاج:

ألن تأتي معنا؟

ابتعدت عنهما بضعة أمتار لتقف أمام الشجرة التي غرست فيها السهم منذ قليل، قبضت عليه ثم سمعت صوت ريانة الباكي من خلفها:

ريحانة أجيبيني، ألن تأتي معنا؟

أخذت نفسًا عميقًا، عميقًا جدًا، تحاول إسكات رجفة قلبها ثم التفتت نحوهما لتقول:

لا، سأظل بجواره.. فربما يستيقظ يومًا ما.

خيل لريانة أن عاصفة باردة هبت للتو لا حيلة لديها في صدها، ترقرقت عيناها بالدموع وهي تحول نظرها بين ريحانة التي تجاهد لتبدو ثابتة قبل أن تشيح بوجهها وبين نور شاه التى اقتربت منها تحتضن وجهها، تنظر في عينيها «أيتها الغبية ألا تعلمين أنني أدرى منك بك.. لا تقلقي سأفض الاشتباك الدائر بداخلك»

هكذا تحدثت عيون نور شاه قبل أن تحتضن ريانة ثم تهمس:

من الأفضل أن تبقي بجوار شقيقتك إنها تحتاجك بجوارها أكثر مني..

علا نحيب ريانة لتواصل نور شاه همسها:

لا تقلقي عليّ.. سأفتقدك ولكنني سأكون بخير بجوار السلطان والسلطانة.. وسأنتظركما كل قمر.

تنحنحت إلين التي كانت قد أتت منذ قليل ثم قالت:

لقد أمرت الملكة بتشكيل فريق من العلماء للعمل على جعل السيد أيوب يستطيع السفر عبر الزمن إذا أراد ذلك بعد شفائه.. هذا الأمر صعبًا ولكن ليس مستحيلًا يحتاج بعض الوقت فقط.

اقتربت ريحانة من نور شاه وشقيقتها لتحتضنهما وهي تقبل رأسيهما قبل أن يتعانقن الثلاثة ونور شاه تؤكد:

سأنتظركما عند اكتمال كل قمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما إن حطت نور شاه قدمها في الغابة إلا وشعرت بحنين شديد لموطنها، لكل شبر في غزنة، قصرها وأسواقها، غابتها وطرقاتها.. حتى شمسها وهوائها، كانت المرة الأولى التي تبعد فيها كل تلك المدة.. ترجلت حتى وصلت للقصر الشرقي، الشمس قد أوشكت أن تودع الحياة في ذلك اليوم وبدأت المصابيح الزيتية في الاشتعال على جانبي القصر وعلى بوابته عرفها الحارس ليقول:

مولاتي الأميرة أين كنتِ؟

نظرت إليه باستنكار ليتابع:

لا أقصد ولكن الدولة بأكملها تبحث عنك.

قالها وهو يفسح الطريق لها لتتجاوزه نحو الداخل وتصعد لغرفتها ثم ترتمي على فراشها.. بقيت هكذا وقتًا ليس بالقليل قبل أن يطرق أحدهم بابها

كان مسعود الذي أتى إليها مهرولًا بعد أن أنبأه الحارس.. أذنت له بالدخول فدخل قائلًا بلهفة حقيقية لم تشعر بها في صوته من قبل:

نور أأنت بخير؟

نعم.

نظر إليها بريبة ليقول:

أين كنتِ؟ لقد بحثت عنك في كل شبر من المملكة.

لماذا؟

ردد باهتًا:

لماذا؟!

أكدت:

نعم، لماذا بحثت عني في كل شبر من المملكة؟

تحرك نحوها خطوة فانعكس ظله على وجهها قبل أن تهب نسمة هواء باردة فتطفئ المصباح الوحيد الذي كان يضيء الغرفة ولكنه لم يكن يحتاج لإضاءة ليرى وجهها ويوقن أن تلك الظلمة لن تفلح في إخفاء مشاعر الحنين التي حوت حروفه وهو يقول:

كنت خائفًا عليكِ، خشيت أن يكون قد حدث لك شيء سيء.. لقد اشتعلت الحرب مع خوارزم وانتهت وما زلت أبحث عنك، لم أثق في أي حارس، ظننت أن عودتك مسئوليتي، ذهبت بنفسي لعم أيوب ولكنني لم أعثر على شيء.. لقد انقلبت غزنة وما حولها رأسًا على عقب حتى ظنوا أنك.. أنك...

لم يستطع إكمال جملته ولكنها فهمت ماذا يقصد، صمت برهة يستجمع أفكاره قبل أن يكمل همسه:

كان غيابك قاسيًا عليّ، ولكني كنت واثقا أنني سأعثر عليك.. قلبي أنبأني بذلك.

تجاهلت تلميحه ثم قامت للمصباح تشعله مرة أخرى وتتحدث بجدية:

هل ستصدقني إذا أخبرتك أين كنت مهما كان غريبًا؟

يراها مختلفة وكأنها بعدت عنه مائة عام، ولكنه شعر أنها كالغريق الذي يتعلق بقشة تريد أن يصدقها أحد، بل تريد أن يصدقها هو فلم يشأ أن يخيب رجاءها فلا مجال للخذلان بعد اليوم مهما كانت التفاصيل هز رأسه ثم قال:

نعم.. سأصدقك.

حسنًا اجلس هناك.

جلس على مقعد في نهاية الغرفة حيث أشارت ونظر إليها ثم تحدث:

كلي آذان صاغية.

ساعة كاملة ونور شاه تقص عليه ما حدث وهو يستمع إليها دون أن يقاطعها تحكي له عن آلات غريبة وصحراء مطيرة وكثبان صخرية ونجوم متناثرة وعوالم أخرى.. نهر ملعون وبحر مظلم وأشواك برية تنبت من وسط الصخور، يخاف عليها.. يبغي مقاطعتها ولكن فضوله في معرفة الحكاية لنهايتها يغلبه.. تلتقط أنفاسها بصعوبة تتوقف قليلًا ولكنه يظل على صمته، لا يريدها أن تتوقف الآن، إنه لم يستوعب بعد..

توشك أن تنتهي، تنظر للقمر الذي لم يولد بعد، يرى جسدها يتهاوى أمامه، يعصف الهواء البارد بوجهها لا يقترب منها، جامد في مكانه.. عقله لم يضع احتمالات، لا يستطيع أن يفكر إذا ما كانت كاذبة أم صادقة؛ إنه فقط ينصت لما تقول، انتهت.. إرهاق يسيطر عليها يضعف عزيمتها بعد أن كانت تظن أنها قادرة على المواجهة، انكمشت في مكانها وهي تتوقع ثورته المعتادة ولكنه ظل هادئًا بنفس وضعه وكأنه لا يراها رغم أن النور مسلط عليها يقلب الأمر في رأسه مرة ومرات ثم:

نور..

.....

تقدم منها يعاونها على النهوض، طاوعته ليكمل:

أنا آسف على كل لحظة تهور طالتك مني دون أن أشعر.

صمتت فتابع وهو ينظر في عينيها:

هل تقبلين الزواج مني.

اقتلعت الحروف من جوفها لتقول:

هل تصدقني؟

صمت برهة ثم أجاب:

نعم.

كانت السلطانة قد جاءت في هذه اللحظة فارتمت نور شاه في حضنها تشهق من البكاء.. لا تدري لماذا ولكنها تحتاج هذا، سألتها السلطانة:

ما الذي حدث لك يا بنيتي؟

رد مسعود على الفور:

لقد أغضبت الأميرة بغبائي المعتاد.. وظننت أني أستطيع الاستغناء عنها..

ابتسمت السلطانة وهي ترى ولدها يعترف بما يحمله في قلبه منذ سنوات فمسحت على رأس نور شاه ثم قالت:

أين كنت طوال هذه الفترة؟

رد مسعود أيضًا:

كانت تجمع آسية بأهلها.

تعجبت السلطانة:

آسية؟! هل؟

جاوبت وهي تفرك كفيها بتوتر:

نعم.. آسية من بغداد أسرت وهي صغيرة..

بانزعاج وتوجس سألتها:

هل سافرت إلى بغداد وحدك؟

فتحت نور شاه فاها لتجيب، ولكن مسعود كان أسبق قائلًا:

لا يا أمي، لقد أوصلتها إلى حيث شقيقتها ثم عادت وتركتهما يكملان المسير..

كيف يا بنيتي تفعلين هذا دون إخبارنا؟ لقد انفطر قلبي.

المهم أنها بخير يا أمي.

كانت السلطانة تعلم أنهما يخفيان عنها شيئًا لا يرغبان في البوح به حاليًا فلم تشأ الضغط عليهما ولكن خوفها من رد فعل السلطان جعلها تقول:

ولكن السلطان لن يقتنع بكلمة واحدة مما قلتِ.

اقترب منها مسعود ليقبل كتفها ثم قال برجاء:

لابد وأن يقتنع يا أمي.. لابد وأن يقتنع لكي يبارك زواجي بنور شاه.

تهللت أسارير السلطانة واحتضنتها مرة أخرى لتقول:

هنيئًا لكما.

وأصبح كل ما يدور بذهنها كيف ستقنع السلطان وتجعله لا يطلب الحديث مع نور شاه وحدهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد مسعود للقصر ونزل من فوره إلى صديقه ضياء الدين ليأخذ رأيه الطبي في حالة نور شاه، عرض عليه الأمر في كلمات موجزه فتحرك ضياء في الغرفة ثم قال:

لا أرى في هذا الأمر إلا شيئًا واحدًا.

نظر إليه مسعود بلهفة فتابع ضياء بملامحه الباردة بعد أن عاد لمنضدته التي يكتب عليها شيئًا ما:

لقد أصاب حبيبتك الخرف.

جز مسعود على أسنانه ثم وقف ينادي ضياء الدين الذي كان يوليه ظهره فالتفت له فقال مسعود:

بل أنت الذي أصبحت تهذي.

ثم اتبع جملته بلكمة قاسية قبل أن يتركه ويرحل فقلبه لن يتحمل كلمة واحدة تمس خطيبته بعد الآن لقد اعترف لنفسه كثيرا في غيابها وترك سلطان الحب يتملكه وقطع عهدا على نفسه أنه سيحميها حتى من غضبه إذا ما عادت إليه، وها هي قد عادت وعليه أن يوفي..

اعتدل ضياء الدين على كرسيه ليواصل الكتابة بيمناه، بينما يتحسس ألم وجهه بيسراه قائلًا:

«وها هو سبب آخر يعطلني عن السفر إليك زوجتي الحبيبة..

الأميرة أصابها عطب في رأسها وأصبحت تهذي.. لقد غابت فترة ثم عادت لتتحدث عن شيء اسمه السفر للمستقبل وعوالم أخرى.. لابد وأن أكون بالقصر لأبحث عن علاج لها»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن عادت نون للأرض واطمأنت على وصول نور شاه لزمنها، جاورت عامر في قاعة الاجتماعات تنتظر حضور السيد حسن الذي حياهما وشكرهما ثم جلس على رأس الطاولة يستمع إلى عامر يقول:

لقد أرسلت لسيادتك تقريري الخاص عن المهمة وكذلك فعلت الدكتورة نون.

هز رأسه مؤكدًا:

نعم استلمتها.. ولكن هناك شيء أخبرتني أنكما تريدان لقائي من أجله.

تحدثت نون هذه المرة قائلة:

زهرة أبيوس.

نظر إليها حسن متسائلا فواصلت:

زهرة عجيبة غريبة الشكل تنبت في أعلى الجبل في درجة حرارة تصل لتحت الصفر هي زهرة حية.. إذا غادرت موطنها تموت..

كل الزهور نباتات حية أعلم هذا.

ليس هذا ما أقصده.. هذه الزهرة من خلايا بشرية.. اطلعت أنا وسيادة الرائد على جزء من تشريحها وصور لها ولكننا لم نستطع إعداد تقرير لأننا لسنا متخصصين.

نظر حسن لكلاهما يستمع في صمت فتابع عامر.

هذه الزهرة تستخدم في إعادة خلايا الإنسان التالفة توضع بذرتها داخل الإنسان ليكون تربتها تأخذ دورتها التي تستمر من أسابيع لشهور حسب حالة الإنسان ثم تنبت خارجة من أضعف مكان به..

أضعف مكان؟ كالعين مثلا؟

هز عامر كتفيه وهو يقول:

لا أدري.. في حالة أيوب تم شق جزءًا خلف أذنه لتكون الزهرة قادرة على الخروج منه.

كانت نون أول مرة تسمع هذه المعلومة لذلك نظرت بحدة لعامر الذي احتفظ لنفسه بها فتابع وهو يرفع كفه معتذرا:

أقسم لكِ أنني لم أتعمد؛ لقد أرسل لي كايو صورًا حديثة لأيوب وهو يشرح لي عمل الزهرة بعد أن طلبت منهم تعاونًا مشتركًا بيننا فربما نستطيع الاستفادة من هذه الزهرة العجيبة..

ثم حول نظره للسيد حسن ليتابع دون أن ينتبه لنون التي كانت ترتعد في مقعدها:

أقترح أن يتم إرسال فريق متخصص ليقوم بأبحاثه على هذه الزهرة.. ستفيدنا كثيرًا.

وكأنها في عالم آخر تنازع أفكارها التي تتخذ من رأسها مسرحًا لعرض كل الخيوط.. الأمر يبدو عبثيًا.. لقد شعرت أنها رأت تلك الزهرة من قبل ولكنها لم تربط بينهما إلا الآن.

أين الصور؟

باغتته نون، فنظر عامر إليها يزوي بين حاجبيه، لا يدري سبب سؤالها فكررت بعصبية دون مراعاة لرتبته أو رتبة السيد حسن:

أين صور أيوب يا عامر؟

كان يبدو أن هناك فكرة تسيطر عليها وهي الآن على وشك الانفجار لذلك ضغط عامر ساعته فظهرت الصور تباعًا على شاشة كبيرة كانت تتابعهم نون بلهفة شديدة قبل أن تصرخ وهي ترفع يدها:

توقف.

توقف عامر على صورة بملء الشاشة فقامت نون إليها حتى كادت أن تلصق وجهها بها، مدت يديها تتحسس حفرًا خلف أذن أيوب..

حفرًا متعرجًا ينتهي برأس زهرة..

حفرًا يشبه ذاك الحفر الموجود خلف أذن جدها حبيب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا تدري نور شاه كيف استطاعت السلطانة أن تجعل السلطان محمود لا يتحدث معها عن فترة غيابها، عتاب هادئ مع وعد منها ألا تكرر فعلتها مرة أخري، أسابيع قليلة وتم الزواج المبارك وها هي تحمل بداخلها بذرة مسعود النقية بداخلها، تحسست بطنها وهي جالسة على سريرها ثم ضحكت ففتح مسعود عينيه ببطء ليبتسم في وجهها وهو يقول:

لماذا تضحك أميرتي؟

لقد ضربتني ابنتك.

زوى بين حاجبيه ثم قال:

ابني.. سيكون ولدًا إن شاء الله.

غضبت نور ثم قالت:

لا يا مسعود ستكون طفلة كما القمر.. وسترث ميراث القلب.

ضحك مسعود ثم قال وهو يقبل رأسها:

حسنًا.. حسنًا.. لا تغضبي يا حبيبتي.

ثم سألها بغتة:

ما ميراث القلب هذا؟

تنهدت نور شاه ثم عادت برأسها للخلف لتحكي..

كان مشهدًا مؤثرا؛ نور شاه ونون تودعان كل من بالكوكب وعلى رأسهما ريحانة وريانة، الأمر أشد ضراوة تجاه نور شاه؛ فنون لقاؤها أسهل أما نور شاه ربما يكون لقاؤها أصعب، تحركت نور باتجاه المركبة ثم نادتها ريحانة فعادت مسرعة لترتمي في أحضان الفتاتين، نزعت ريحانة خاتم أمها نظرت لريانة.. تستأذنها فأومأت لها علامة الموافقة فقالت:

هذا ميراثنا من أمنا، اجعليه معك يذكرك بنا حتى نلتقي.

قبلتها ريانة في كتفها لتقول بصوت متهدج وبعيون دامعة:

إنه ميراث القلب يا نور.. سيُذكرك دومًا أن هناك من يحبك في الجانب الآخر من الكون ولا يكف عن الدعاء لكِ.

ضمته نون لقلبها وهي تقول بامتنان:

سأحتفظ به بجوار قلبي وسأورثه لبناتي من بعدي بكل أسراره وحكاياته.. سأحكي لبناتي عن شقيقتي ريانة وريحانة.. سأنتظركما عند كل قمر.

اعتدلت نور شاه لتقول لمسعود الجالس بجوارها:

أتصدقني.

جاوبها وعيناه تحمل كل الثقة:

نعم أصدقك ولو كذبك العالم أجمع سأصدقك.. أتعلمين لماذا؟

مممممممم.

لأن كلماتك تخترق قلبي فتطيعه جوارحي دون أن أشعر.

وكانت هذه السعادة بالنسبة لها في أبهى صورها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نهبت الطريق نهبًا وهي تعود لمنزلها، الخيوط تجتمع في رأسها.. أنفاسها تزداد.. فرائصها ترتعد مما ستواجه..

أيوب هو جدها!! كيف لم تلتفت للشبه الكبير بينهما الآن؟ عينا أيوب أوحت لها بهذا الشبه عندما رأته لأول مرة ولكن الأحداث أخذتها فلم تحاول أن تستقصي عن هذا الأمر لقد خدعتها لحيته وشعر رأسه.. تعلم الآن لماذا كان يصر جدها على حلق لحيته وشعر رأسه دوما رغم أنه ليس أصلعا.. كان يريد إخفاء معالمه. الآن تتذكر.. جدها هذا لم يكن موجودا قبل الحادثة لقد ظهر فجأة وكأنه نبت من العدم..

ولكن يبقى السؤال لماذا؟!

توشك أن تجن ولكنها وصلت الباب أخيرًا،أخذت نفسًا عميقًا ثم ضغطت على الزر الذي أمامها لينفتح تلقائيًا، تقدمت للداخل وهي تنادي عليه.. حنجرتها متقطعة.. صوتها متحشرج يرتفع تدريجيا حتى يفرض نفسه على صمت المكان، عيناها تبرق تمزق كتلة الظلمة المحدقة بها تكتشف أنها لم تضيء ما حولها.. تهرول إلى الإضاءة تبحث عنه لا تجده.. تقتحم غرفته تنادي بهيستيريا بأعلى ما تملك ولكن لا أثر.. تهز رأسها بإحباط تبرق عيناها مرة أخرى عندما تلمح علبتة المخملية على سريره وبجوارها رسالة، تهرول نحوها تقض الرسالة أولا تلتهم السطور.

«صغيرتي نون..

أتوقع أنك قد عرفت كل شيء

أنا أيوب.. جدك المزعوم..

خرجت من صومعة الزهرة..

ولكن الإصابة كانت كبيرة فخرجت عاجزًا عن المشي..

وعاجزًا أيضًا عن العودة لزمني.. ولكن الملكة مارا أوفت بعهدها؛ سخرت كل الإمكانيات المتاحة لكي أستطيع السفر عبر الزمن مرة أخرى بخلايا زهرة أبيوس..

استمرت الأبحاث فترة كبيرة لكي أستطيع العودة لزمني..

في الحقيقة لم أكن أرغب في العودة ولكنني كنت أرى الشوق في عين ريحانة وريانة لأختهما الثالثة نور شاه..

ورغم خضوعي للاختبارات إلا أن أقصى مدة استطعت عودتها كانت ثلاثون عامًا.. كان من المفترض أن أعود مرة أخرى للكوكب لكي تستكمل الأبحاث وأستطيع السفر أكثر من ألف عام ولكنني قابلت عالمًا فذًا كان هو أول من طور آلة الزمن في شكلها الجديد..

نشأت بيني وبين هذا العالم الذي كان يسبق زمنه بسنوات من النجاح والابتكار صداقة قوية في فترة قصيرة استمرت لشهرين كاملين وقبل يومين من عودتي لكوكب بروكسيما دعاني لمنزله وهناك قابلتك..

أقصد قابلت زوجته؛ كانت تشبهك تماما وكنت أنت طفلة صغيرة لم تكن قد تجاوزت السنوات الخمس.. نعم وضعني الله في طريق أسرتك، ولكنني كنت أظنها صدفة أن أقابلك وأنت طفلة صغيرة وأنا قد تجاوزت الأربعين بقليل فلم أبُح لوالدك بشيء فأنا سأعود مرة أخرى لكوكب بروكسيما وتستمر حياتي بشكل طبيعي لأكتشف فيما بعد أن هذا كله من ترتيب الله لقد كان عليّ حمايتك وحماية أمانتك.

أذكر جيدًا تلك الليلة كأنها البارحة رغم أنه قد مر عليها أكثر من ستة عشر عامًا كنت أستعد للسفر عندما طرق أحدهم باب منزلي.. كان يطرقه بقوة جعلته يهتز بين يديه رغم أن أصابعه لا تبرح زر المنادي.. فتحت بعصبية وأنا أقسم أن أنفجر في وجه من بالباب ولكنني تراجعت وتبدلت ملامحي للقلق والتوتر عندما وجدت أباك يحملك في يد وفي اليد الأخرى تلك العلبة المخملية كان يبكي وهو يدفعك لحضني قائلًا بصوت متقطع:

لقد قتلوا زوجتي.. وسيقتلونها.. ارحل بها بعيدًا سافر بها لكوكب آخر.

ثم أشار للصندوق قائلًا:

يريدون ميراث القلب.

قال جملته هذه ورحل دون أن يوضح شيء.. لم يجد أبوك غيري ليستأمنني على حياتك وميراثك.. كنت الوحيد الذي بلا هوية فلن يتتبعني أحد..

أعلم أنه كان يريدني السفر بك لكوكب بروكسيما ولكنني خفت ألا يحتمل جسدك الصغير.. خفت أن يتغير مستقبلك فتفشل المهمة..كنت أظن أن أبوك يبالغ في خوفه عليك ولكن نبأ مصرعه أتاني بعد ساعة واحدة من رحيله ولأن خبرتي محدودة في الاختباء كان عليّ أن أرحل سريعا لأقصى مكان لا يستطيعون فيه الوصول إليك، ولقد فعلت..

خمس سنوات كاملة لم تري فيهن شمسًا ولم تلمحي قمرًا،عوضت ذلك بمكتبة كبيرة كانت كتبها هي وسيلة تواصلنا بالخارج ووسيلة المعرفة بالنسبة لك عندما قررت أن ألحقك بالمدرسة عند العاشرة، كنت تسبقين أقرانك بسنوات عدة.. كنت متفوقة في كل شيء إلا علاقاتك الاجتماعية التي اندثرت باختفائك عن العالم ولكنك كنت ذكية جدا فتجاوزت هذا سريعا بعد قليل من الإحباطات.. كنت أربيك كابنتي التي تركتها مع زوجتي تنتظرني فوق سطح مملكة بروكسيما..

أرى أن معرفة هذا الأمر الآن صعب ولكن ما كان ينبغي أن تعرفيه قبل المهمة وأعلم أنك ذكية ولن تفصحي لأحد عن هذا الأمر فالمستقبل لا ينبغي أن يتغير.

السنوات التي عشتها معك وأنت طفلة عوضتني قليلا عن أبوتي لابنتي التي تركتها طفلة وسأعود إليها لأجدها شابة مثلك.

الآن قد أتممت مهمتي وعليّ العودة لمن تنتظرني بشوق.

سامحيني يا بنيتي إن كنت قد قصرت معك ولكنني أردت المحافظة على حياتك وعلى ميراثك الذي تناقلته الأجيال عبر السنين..

أنا اجتهدت قدر طاقتي ربما أخطأت ولكنني أثق الآن أنك قادرة على حماية نفسك وميراثك جيدًا.

جدك حبيب»

عضت نون شفتيها تقاوم دموع التأثر مما فعله أيوب فتحت العلبة المخملية لتجد فيها خاتم بيسان والذي أسمته ريانة أمامها ميراث القلب.

حكت الخاتم بأصبعها انتزعت شبه ابتسامة ولكنها اتسعت عندما ارتدته ثم قبلته قائلة سأحافظ عليك بحياتي وسأورثه لأنبغ أبنائي من بعدي كما فعلت جدتي الكبرى نور شاه.

سيظل ميراث القلب رمزًا لأسرتنا على مر التاريخ والأزمنة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عند اكتمال القمر

وقفت نور شاه يحتضنها مسعود على أعلى نقطة في القصر ينظران للقمر وبينهما طفلتهما التي يزين بنصرها خاتم واسع ولكن أمها تصر على أن ترتديه كل قمر..

كانت ابتسامة نور شاه تتسع وهي تنظر للفضاء الواسع أمامها تثق جيدًا أن هناك على الجانب الآخر من يشتاق إليها وسيبقى دائمًا على العهد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يجلس في مقعده المعتاد يستمع لصوتها يطرب قلبه قبل أذنه، يغمض عينيه ليرى المشهد الذي تجسده بصوتها ثم توقفت فجأة ففتح عينيه ليسألها:

لماذا توقفتِ؟

أشارت لكوب الشاي بجواره لتقول بابتسامة محببة إليه:

شايك سيبرد.

صوتك ينسيني العالم بأسره يا حبيبتي.

أتعلم؟

مممممم.

لم أكن أدرك أنني أمتلك تلك الموهبة حتى أُصبت، نون أخبرتني قبل أن ترحل أن سماع صوت الحبيب يوقظ القلب وينشط الذكريات.. بعد أن أفرغت كل الحكايات كانت الكتب وسيلتي لقلبك.

تحسس وجهها وهو يقول:

ثلاثة أعوام كاملة لم تتخلفين يومًا عن القراءة لي.. كنت تصبرين الصبر يا روح الفؤاد.

قبلت باطن كفه ثم نزلت من على كرسيها لتجثو عند قدميه وتحتضن رجليه القعيدتين وهي تقول بعشق:

كنت على استعداد أن أنتظرك العمر كله يا أيوب.

أحبك يا ريحانة قلبي.

وأنا أحبك يا حبيب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في العيد السنوي للمملكة جلست مارا بجوار جلوان في مقاعد كبار الزوار يستمعون لكلمة الرئيس المنتخب يشرح للشعب خطته للمرحلة القادمة يبين إنجازات الفترة السابقة ويعتذر عن التقصير..

ابتسمت مارا وهي تنظر لجلوان الذي تزوجته ليعتزلا العمل السياسي سويا بعد استقرار أمور المملكة وإقرار الدستور العادل للبلاد..

كانت تشعر بالرضا على ما وصلت إليه المملكة من رخاء ورقي..

رخاء عم بالعدل والمساواة في البلاد بعد تحويل وادي الجعسوس لمزار سياحي يحمل اسم الملك سنمار.

وبعد إغلاق كهف بيتوس تماما.

تعانقت أيديهما وهما ينظران للأطفال الصغار الذين يمرحون ويقدمون العروض بلا خوف وعيونهم لا تحمل سوى الحب والأمل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

على مائدة طعام كبيرة اجتمعت ريانة وزوجها العقيد حسام الذي جاء في بعثة أمنية لكوكب بروكسيما شهور قليلة وتزوج من ريانة ليستقر معها هناك وينجبان ولدين حازم وحمزة اللذان أصبحا شابين

الآن ويجلسان بجوارهما مع ريحانة وأيوب وابنتهما الوحيدة ليلى.. كان الدفء يسود الأجواء، والسفرة مليئة بالطعام عندما اندفع حمزة يقول:

في غيابك يا سيد أيوب لم تكن خالتي تطهو هذه الأطباق الشهية.. كنا نعيش في مجاعة كل تلك السنوات.

ضحك الجميع على دعابته بينما تنحنح حازم واعتدل في مقعده ليقول:

في الحقيقة يا سيدي أنا كنت أنتظرك لأمر آخر.

انتبه أيوب له بينما أشاحت ريحانة بوجهها تخفي تشنجها وهو يكمل:

نريد أنا وحمزة دخول كهف بيتوس.

وأنا أيضًا يا أبي.

قالتها ليلي بحماس.

وما الذي يمنعكم؟

قالها أيوب فرد حمزة هذه المرة:

خالتي أخذت منا عهدًا ألا نقربه إلا بعد موافقتها ونريد منك أن تقنعها فنحن نعلم أنها لا ترد لك طلبًا.

نظر أيوب لريحانة وقبل أن يتحدث اندفعت تقول:

لا تحاول يا أيوب أرجوك.. هذا أمر لا فصال فيه وعهد لا أقبل نقضه منكم أبدًا..

ثم أضافت متوعدة:

من يريد فعل ذلك فليقطع صلته بي قبل أن يفعل.

رمت بجملتها ثم انصرفت للداخل قاطعة عليهم الطريق نحو مزيد من الحديث في هذا الشأن.. دخلت مطبخها وضعت الطبق الذي كان بيدها على الطاولة ثم استندت عليها، ركبتيها لا تساعدها لكي تبقى منتصبة جلست على المقعد، غطت وجهها بكفيها تهرب من الخاطر الذي يقض مضجعها منذ سنوات.. لقد نجحت في إقناع الملكة مارا فأغلقت الكهف الملعون إلى الأبد وأبعدت طفلتها وصغار شقيقتها عنه منعت مجرد ذكر اسمه أمامهم ولكن يبدو أن عودهم قد استوى وأصبح صلبًا عصي عليها ثنيه، لابد وأن تتخذ التدابير لكي يبتعدوا عن هذا الكهف فهم لا يعلمون ماذا ينتظرهم به..

كانت ريانة قد اقتربت، جلست قبالتها نظرت في عينيها طويلًا تقرأهما كأنهما نقش محفور أمامها ثم قالت:

لم أكن أهذي؟!

صمتت ريحانة وأشاحت بوجهها ولكن ريانة ردت على نفسها مؤكدة:

كان هناك..

ثم زفرت وهي تقول:

وكالعادة تحملت وحدك.

حولت ريحانة نظرها لشقيقتها ثم تمتمت:

لقد فعلت هذا لأنني ظننت أنه صواب.

اقتربت منها ريانة ثم داعبت أنفها قبل أن تهمس:

أعلم.. أعلم.

هذه المرة ارتمت ريحانة في حضن شقيقتها فعلى الأقل هناك من سيحمل معها هذا الأمر.. هناك من سيستمع لأفكارها المتصارعة التي لا تستطيع الإمساك بلجامها.

في الخارج أكمل الجميع طعامهم صامتين وهم يؤكدون فيما بينهم أن ريحانة تحتد عند ذكر هذا الكهف لأنها لا تريدهم أن يكرروا نفس تجربتها المميتة هي وريانة..

وحده حازم الذي كان يشعر أن هناك سر أكبر من هذا..

سر لن يكتشفه إلا بزيارة كهف بيتوس..

تلك الزيارة التي تمنى أن تكون قريبة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في باطن كهف بيتوس عند المنتصف تماما وقف بطوله الشاهق وعيونه الجاحظة وأنيابه الحادة البارزة يتحسس الشق الصغير الذي تنفد منه أشعة القمر ينظر ليديه المتوهجتين اللتان أحرقتهما ريحانة منذ سنوات بعيدة.

برزت أنيابه أكثر وتوهجت عيناه بلهيب حارق قبل أن يطلق صرخة غاضبة حبسها الكهف داخله..

صرخة يعلن فيها قرب انتقامه..

عليه فقط أن ينتظر من يفك القيد عنه لينطلق..

ولقد شعر أن هذا سيكون قريبًا..

قريبًا جدًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية

الإهداء..

قبل الحكاية

-١-

-٢-

-٣-

-٤-

-٥-

-٦-

-٧-

-٨-

-٩-

-١٠-

-١١-

-١٢-

-١٣-

-١٤-